عبده خال

نباح

الطبعة الثالثة



منشورات الجمل

رواية

هذا الكتاب

وكلابي الصغيرة أين هي الآن، خطفتهم الغولة جعدة، وخبّأتهم في مغارة لا تصل إليها العين، ربما يقتعدون غرفة صغيرة مغلقة الأبواب ينبحون كما يشاؤون، وأمهم تركض مع زوجها في مكان ما من جدة تمسح بيدها عمراً قضته في انتظار رجل عشق الفراغ فانتقل إليه بمخيلته وبالسفر.. هي وأولادي رحلوا أيضاً لفراغ آخر، سيتنبه الريح أني عمود دخان، وسيعود ليمزقني.. سيمزقني، فإلى أي أرض سأمضي؟!

أبعدت صورة ذلك الجرو وتطلعت من النافذة....

غابت عدن ولا أثر لتلويحة يدين صغيرتين، ارتفعت الطائرة عالياً.. عالياً جداً.

ولد **عبده خال** عام ١٩٦٢ في منطقة جازان/السعودية. درس العلوم السياسية في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، يقيم اليوم ويعمل هناك كمشرف على الملحق الاسبوعي الثقافي بجريدة «عكاظ». من مؤلفاته: **لا احد**، قصص (القاهرة ١٩٩٢)؛ **ليس هناك ما يبهج**، قصص (القاهرة ١٩٩٣)؛ **الموت يمرّ من هنا**، رواية (بيروت ١٩٩٥)؛ **مدن تأكل العشب**، رواية (لندن ١٩٩٨)؛ **من يغنّي في هذا الليل**، قصص (الدمام ١٩٩٩)؛ **الأوغاد يضحكون**، قصص (بيروت ٢٠٠٣)؛ **الطين**، رواية (لندن ٢٠٠٣). صدر له عن منشورات الجمل: **الأيام لا تخبئ أحداً**، رواية ٢٠٠٢؛ **الموت يمرّ من هنا**، رواية ٢٠٠٣؛ **ترمي بشرر**، رواية ٢٠٠٩ (فازت بجائزة البوكر العربية ٢٠١٠).

عبده خال: **نباح**، رواية

الطبعة الثانية ٢٠٠٧

الطبعة الثالثة ٢٠١٠

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٢٥٣٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: info@al-kamel.de

الإهــداء

لكل أوغاد العالم. . لعنة كبيرة

عبده خال

. . .آوه المدينة تعج بالكلاب

[١]

فعلها ذاك القواد الخسيس.

هاهي الطائرة نفسها تقلع في طريق العودة، ومدينة عدن تنام ملتحفة برداء البحر كعذراء سلبت بكارتها، فلاذت بجمع ثيابها الممزقة لستر عورتها المستباحة.

هكذا نعتها عياش قبل أن يلوح بيده مودعاً على بوابة الفندق، تصعد قدماي سلم الطائرة، وشيء يسيل من صدري لاعناً هذه المدينة.

مدينة خلع الإنكليز رداءها، وقبل أن تفيق عاقرها الروس، وتركوها تتلفت باحثة عن مخلص يأتيها من خلف الغيب، تتلفت صوب البحر، وعندما تمل تعلق أهدابها على قمة جبل شمسان في انتظار مرتبك.

- حتى المدن تتشتت خطاها حين يمتطي صهوتها سائس أخرق.

هذا تعليل عياش للارتباك الذي تعيشه عدن، يحفظ تضاريسها كما يعرف وجه أمه الذي تهدل بجريان ستين عاماً جرفت جمال امرأة عدنية، ولد في حي المعلا تنقل في أحيائها كعود أراك مهمته تلميع أرصفتها، وحين غادرها للعمل في السعودية اختنق، وكاد يموت في أزقة جدة فنقل للعناية الفائقة تحت سماء عدن ليعود خيلاً يصهل في كل حين، ويحمحم بعشقه لها في المطبوعات المحلية.

فوجئ حين رآني أقف على باب منزله، اتسعت حدقتاه من خلال نظارته المحدبة (التي تغريني دائماً برفعها ووضعها في مكانها المناسب)، جمعني بين ذراعيه مرحباً، لم يكن ذابلاً كما عهدته، شيء ما يروي عروقه، ويطفر من وجنتيه. . . ليس هو ذلك الشخص الذي جمعتني به مقاهي جدة المتناثرة على

شاطئ الكورنيش، كان شخصاً حياً متدفقاً.

في متجره بشارع قابل نكس رأسه بين ذراعيه، وعندما عجز عن ابتلاع جملته انحنى، ودس جملته في أذني:

- بلدكم حظيرة كبيرة تربي العجول لتذبحها بهذا الملل.... لا شيء فيها سوى العمل أو الموت!

يمقت السوفييت والإنكليز على السواء، فكلاهما بذر في تربة عدن مسامير الوجع لتتحول المدينة إلى آهة بحجم الألم الذي مضى، والذي سيأتي.

ها هو يقف مرة أخرى لتوديعي، نقف معاً لمضغ فاصلة في عمر قصير، كالأموات نتجاور، وليس لنا من هم سوى انتظار همة، وشراسة نملٍ عليه أن ينجز مهمته بقرضنا بأسرع ما يمكن!!

حزم حقيبتي، وناولني تلك الأوراق الرسمية صامتاً، كان يعلم أني سأطلق على مسمعه: أين هي؟

وقبل أن يتلقى هذه الرصاصة، حمل حقيبتي وغمغم على عجل:

- سأنتظرك عند بوابة الفندق.

نهار كسول يعرك أطرافه بين خطوات عمال الفندق المتوجسة من إحداث ربكة يمكن أن تفزع منها أجساد نزلاء الفندق المنهكة.

تنام تلك الأجساد في هذا الضحى انتقاماً من ليل أضنى أعطافها، وسلب ماءها في صفقة ساقطة.

قبل أن أصل إليه، كنت أتلفت في ممرات الفندق لا شيء هناك سوى تلك النادلة التي أبقت على ابتسامتها ناصعة وانكسار مريع يعتري وجهها، وأنا أضع بين يديها ما تبقى من حساب مكوثي كتنزيل حظي بمعاملة خاصة... هكذا أفهمتني السيدة التي أنهت إجراء إخلاء غرفتي.

الهواء يعبر الشارع الفسيح مُبشراً بقدوم غيوم حبلى بماء مهين، تصرف السماء بروقاً صغيرة تتوه في أرجاء المدينة، وتبقى في المدى شارات يوم ماطر.

على بوابة فندق (وضاح) وقف عياش وجلاً لوداعي، تتلجلج كلماته،

وعيناه تحومان من خلف نظارته خشية أن يلمحه أحد معارفه في هذا المكان، رغب أن يكون الوداع باتراً، هذه المرة لم يبقني كثيراً بين أحضانه، دفعني مراراً، واختصر الوداع بنصائح طالما سمعتها منه، في هذا الوداع عاد وجهه الذابل الذي كان يحمله في أزقة جدة، عاد كهلاً يحمل غربته، ووجع الترحال:

- نجد أقدارنا أينما ذهبنا فلا تبتئس.

دفعني نحو سيارة أجرة - كانت تقف بجوار البوابة في انتظاري - وانزوى جانباً، لم ألتفت لتلويحته، ولم أشأ أن تتلاقى أعيننا، فدسست جسدي داخل السيارة مهملاً كلمات الوداع التي كان يطلقها تجاهي، منحته نصف التفاتة، كان يقف في مكانه، في جهة لا تكشفه، ولا تخبئه، ويده الملوحة تثير الريبة باختلاسها الحالتين متناقضتين فحركتها تنبئ بالتريث والوداع معاً، آخر ما لمحت منه نظارته المحدبة أكثر من اللازم، التي تكاد تسقط من على أرنبته الغليظة، تقابلها دائماً رغبة ملحة لأن أثبتها له كما يجب.

السائق شاب ثلاثيني غرق وجهه في سمرة داكنة أبانت بياض عينيه ولمعانهما، استوى خلف مقود السيارة بابتسامة منشرحة:

- عياش أوصاني بك خيراً.

تنازعني رغبة البقاء، لعنت عياش في سري لم يكن جازماً في تأخير موعد رحلتي، فما إن أعلنت له رغبتي في العودة حتى كانت بطاقة صعود الطائرة ترفرف بين يديه:

- قلت لهم إنك ضيف الدولة، ومن العيب أن تعود في الدرجة السياحية كما جئت، فمنحوني بطاقة صعود الدرجة الأولى... اعتبر هذا الفعل هديتي لك.

أمسك بيدي المتسللة إلى جيبي:

- إياك أن تفعل، عد لأبنائك، وسأنتظر أخبارك.

(أبنائي، لم أخبره بشيء، لا أعرف لماذا لم أحدثه بما حدث، إن مهمة النار الأساسية إسقاط عمود الخيمة، حين حضنا بعضنا تمنيت أن أقول له:

شبت النار يا عياش، احترق كل شيء، بقيت لحظات وتنهي النار مهمتها الأساسية!).

حينما عبرت سيارة الأجرة مكتب الخطوط اليمنية كدت آمر السائق بالتوقف:

– هل يمكنني الحصول على رحلة في الغد؟

– لا أدري، هل تريد أن نتوجه لمكتب الخطوط؟

– لا لا، استمر في طريقك.

هذه الرغبات المختلطة والمترددة تصيبني بالارتباك، ماذا يحدث لو بقيت؟

الغمام يتواصى بالتوجه لقلب المدينة، وقد تخلى عن رذاذه ليعلّق على زجاج السيارات، وعلى واجهات المحلات، وينحدر من على رؤوس العابرين للشوارع الموزعة في شرايين المدينة.

قولد مور، خور مكسر، صهاريج كوجلان، تمتلئ عدن بهذه الأسماء الإنكليزية، وضع الإنكليز أسماءهم ومضوا، تركوا أختامهم هنا مؤقتاً لحين يعودون، الأقوياء والعارفون يعلمون بنتائج ألعابهم، والإنكليز يعلمون أن زمن العبودية سيعود مرة أخرى ساعتها يكفي أن يسترجعوا أختامهم وعبيدهم!

شوارع عدن بقايا لذاكرة إنكليزية لم يستطع الرفاق محو الثقافة الانجلوسكسونية التي جاءت إلى هذه البقعة في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ولم يستطيعوا إجادة لعبة الإحلال، والإبدال، بقي الإنكليز يمدون أعناقهم من خلال الشوارع، والبيوت، والتاريخ، والذكريات، هنا في (المعلا) رفات الإنكليز الذين لم يحافظوا على هذا الثغر الإمبراطوري، فحين أفرغت الخزانة البريطانية بفعل الحرب العالمية الثانية تخلت بريطانيا العظمى عن مستعمراتها، تخلت تحت شعار حرية تقرير المصير، هذه اللعبة السياسية القذرة تتناسخ صورها، وكل صورة تحمل استعماراً بشعاً يسوس الشعوب الغائبة بفعل الجهل، والجوع، والبطش.

لأنور شهية واسعة للعن الغرب، واتهامه بالتربص بنا في كل حين.

أنور صورة لفارس عربي سقط من على جواده، وظل يركض في أرض

المعركة بلا سيف، أو درع، يحوم مدافعاً عن صدره بالشتائم، وعياش صورة أخرى: فارس أيقن من الهزيمة فترجل عن فرسه ليتعرف على الضحايا، وليعرف أيضاً كل المؤامرات التي تركته يجول أرض المعركة بهذه الهزيمة. مشكلة عياش أنه يعرف التفاصيل ويعيش داخلها.

كادت نظارته تسقط من على أرنبة أنفه وهو يسهب في تلك التفاصيل:

حين جاء السوفييت حولوا هذا الميناء إلى مربط لخيولهم، ومدفأة لحرق حطب أخضر، ومجرى لرغبات ستالين، والرفاق العرب في كل أفعالهم لم يفطنوا للشرط التاريخي الذي يقيم عصب نظريتهم المحتدمة، فللمكان شخصية رافضة، وقبل أن تستزرعها عليك أن تتصالح معها، أولئك السوفييت كانوا زراعاً حمقى يبذرون الحبوب في أي أرض من غير تقليبها، أبقوا علفاً يابساً لا يصلح غذاء لتلك الأجساد المهدودة، واليوم تقف عدن بوابةً لذكريات الساسة المتناحرين على سجلات التاريخ، والمختصمين بين شواهد القبور المقبقبة على وجه هذه الأرض الرحبة.

عندما أمسكت يدي بسلم الطائرة أضفت جملا كثيرة في وصف هذه المدينة:

– آوه يا عياش عدن تقف اليوم بوابة للعذاب، بوابة لدهك الجسد، وبيع الرغبات الدنسة، والهوى المبتذل.

ثرثرت كثيراً بهذه الخواطر التي غدت – من غير أن أعلم – طعماً لذاك السائق الذي وجد في نقمتي على الإنكليز، والسوفييت – معا – فرصة لأن يريني معرفته بالتضاريس السياسية التي عبرت هذه البقعة من الوجع العربي.

– لم يكن عبدالفتاح إسماعيل خيراً ممن مضى... وقلنا إن البيض خلع رداء الاشتراكية، وسيسمح لنا بأن نحلم قليلاً لكنه نكص قبل الأوان.. الكل لوثنا!

صوب جملته إلى مسامعي كطلقات رشاش لن يقف قبل أن يفرغ خزينته، كان علي أن أصل للمطار قبل فوات الأوان، ولو استرخى هذا السائق في سرد حكاياته، فسأمكث ليلة أخرى في هذه المدينة المستباحة.

(ما بالي الآن على عجلة من أمري، فقبل لحظات كنت راغباً في البقاء لليلة أو ليلتين).

كنت قد استحثثته للحديث كي أقطع تلك الصور الضاغطة على أعصابي، وفي جريان حديثه أجهدت نفسي للفصل بين زمنين: زمن السذاجة، وزمن الجرح. إننا ننسكب كالدقائق الذاهبة لمرقدها الأبدي، هناك حيث تملأ فراغاً متسعاً يستوعب كل مخلفات البشرية.

إن الفراغ لا يشبع، دائماً يجد له فراغاً آخر يستوعبه.

حين بدأ السائق حديثه كانت تقف أمامي بعنفوانها، ذكرتني براقصات الاستربتيز اللاتي تدربن على إظهار مفاتنهن المخبأة، استوى جسدها بضاً شهياً، تلوت مبينة ارتواء نهديها كما يليق بشجرة طفحت ثمارها، وحافظت مؤخرتها على توترها الدائم، بقيت لدنة تستعصي على اللت، كانت تتلوى كحية أدمنت الرقص على ناي زمار محترف، لم تكترث كثيراً بمشاعري وهي تخلع ملابسها قطعة قطعة.

أعاد البال جسدها المتعري الطافر بالمتعة، ذلك الجسد القاذف بثماره على قارعة الطريق من غير أن يأتمن أحداً على حفظه، هممت بالعودة لجمع تلك الثمرات المتساقطة في سلة لأجففها كي لا تهرب مواسمها.

في طريق المطار هممت مراراً بالعودة، وكلما خبت رغبة البقاء استدعيتها معللاً النفس بأن ليس هناك ما ينتظرني، فأذعن لها، لألمح عياش يقف مستخفاً بي، فأطير رغباتي في الهواء.

سللت خيطاً عشوائياً للحديث عن اليمن، وفي كل مرة أجد السائق مفتونا بسرد وقائع من التاريخ (عرّف نفسه على أنه طالب يستعد لمناقشة الماجستير في تاريخ مملكة سبأ وعلاقتها بالشام والحبشة) هذا التخصص كان وبالاً علي، حدثني عن الإمامية، وعن انفصال شطري اليمن، وعن تسلل الإنكليز لشواطئ عدن، وعن قدوم الماركسية، وعن الثورة، وفي كل حديث له تبدر من رأسي عدة اهتزازات فيظنها استحساناً لمقولاته.

عضّ على شفتيه بحسرة:

- يبدو أننا سنظل رهينة للاحتلال في ما سيأتي من أيام.

تنبهت أنه استرخى في مقعده، وقلل سرعته لحدودها الدنيا، منتشياً بسماء عدن المحتشدة بالغيوم والبروق الخاطفة والرذاذ المتساقط على مساحات واسعة من الطريق، ويبدو أن متعته لم تكتمل كما يهوى، ولكي يستكملها أغلق جهاز التسجيل، وبدأ بسرد وقائع التاريخ اليمني محللاً الضائقات الاقتصادية والسياسية التي عبرت هذه البقعة الاشتراكية في ما مضى من زمن:

- الرفاق علمونا أهمية التاريخ، وأهمية التثقيف لكنهم نسوا أن يوفروا لنا حياة كريمة.

تلجلج، ومد عنقه من زجاج السيارة باصقاً زوائد القات الطافحة بين أسنان فكه الأيمن المتطحلبة كطحالب بحرية ملّها البحر:

- نعم نسوا ذلك.. هاجر الكثيرون هرباً من الفاقة، تقافز معظمهم للسعودية، ولم يكترثوا بتأميم أملاكهم هنا، بنوا مجداً هناك.

كنت أفيق أحياناً من شرودي هرباً من تلك الصور التي تداهمني عنوة، صور لها لزوجة المخاط تثير التقزز، وتلتصق بالجسد، ومع كل محاولة لإزالتها يبقى شيء منها عالقاً بين الجسد وراحة اليد.

عياش أراد توديعي بكلمات التصبر، وتهوين ما حدث.

رأيتها كأحسن ما تكون عليه حين تتزين، ما زالت محتفظة بعادة ترك غرتها تغطي جزءاً من وجهها، وتتصنع رفع تلك الخصلة عن عينها في كل حين. كانت أشهى مما كانت عليه.

صوته يصلني كطاحونة تقاعست عن طحن حبيباتها، ربما يتحدث الآن عن مجزرة الرفاق الحمر، كنت أسمعه يصف تلك المقتلة التي تخلى فيها الرفاق عن الأيديولوجيا، واستعاضوا برداء القبيلة، هؤلاء الماركسيون أرادوا أن يجعلوا الماركسية - في عدن - كعبة تحج إليها العرب فحين فقد غورباتشوف مؤشر البوصلة، واتجه غرباً أثار حمية عبدالفتاح إسماعيل الذي أخذ يبحث عن وسيلة لإعادة المجد الستاليني في جنوب الجزيرة العربية، وليعاود بث الرايات الحمر على بقاع الأرض، أي حمق كان يمتلكه ذلك الرأس؟! غورباتشوف يجد في

البيروسترويكا منفذاً لبقاء السوفييت كقوة عظمى، وعبدالفتاح إسماعيل يصمه بالخيانة العظمى للإرث الماركسي!!

أظنه لم يقل هذا! اختلط عليَّ الأمر فقد قرأت شيئاً شبيهاً بهذا في كتاب «حرب الخليج» لمحمد حسنين هيكل.

حرب الخليج هذه الكارثة التي اصطلينا بها كدجاج جلب من حظيرة لتقديمه في وليمة عشاء فاخرة، وكان على المدعوين تنفيذ شرط الوليمة: الاستمتاع بالشواء، وترك لحمنا ينز، يتساقط زيته على نار مستعرة من غير أن تمسه يد!

- كم ضحية نضج جسدها في حفلة الشواء تلك؟

إبراهيم المؤذن، ياسين، أبو ناب، عيسى شرف، وفاء، زينب، فؤاد، ليلى، محسن، أنا، زوجتي، أطفالي، العم جابر وحفيده، زوجة ابنه، وآلاف من البشر الذين لا أعرفهم.

جميعاً كنا في قضيب واحد نكمل دورة الشواء على مهل، كل منا تساقط لحمة في تلك النار المتأججة، أُخِذَ من أجسادنا ما لم يؤخذ من جسد صدام، أو جسد بوش مثلاً.

إبراهيم المؤذن ذلك المتيقن من إيمانه لم يتمتع بشبابه قضى سنوات سجنه في عمائر الإسكان بالشرفية، وحين خرج عاد لأفغانستان، عاد بعد أن شارك في إسقاط الرايات الحمراء، عاد يبحث مع رفاقه عن معركة أخرى بينما كانت أمريكا تتسلل إلى جوفه، حمل كرهها إلى بيشاور ربما ترافق مع ياسين ليهجرا بلدهما ويستقرا بين جبال باكستان وأفغانستان. . . قبل مدة وجيزة رأيت ابن ياسين ممسكاً بيد جده، قمر جاء من رحم أفغاني ليغرق في رطوبة جدة، العم جابر يقوده بيده وغصة تداعب حنجرته، بقيت له أيام ويغادر هذه الدنيا، فمن سيتكفل بزوجة ابنه وحفيده، كان يبحث لهما عن بيت في حينا نفسه علّه يرقد مطمئناً حين يتركهم في حي سيكرمهما من أجله.

السائق لا يزال يتحدث عن الدحابشة، هكذا وصف أهل اليمن الشمالي:

- هم يضيقون علينا أرزاقنا.

ثرثرة هذا السائق لم تكن متوقعة، كنت في حاجة إلى استعادة ما حدث بشيء من الحيادية، كنت في حاجة إلى استيعاب ما حدث. . لعنة الله على السياسة فهي تجعل الكل عالماً، وخبيراً. قاطعته كثيراً، وفي كل مرة أمنّي نفسي أن يقول لا أعلم لكي يتوقف هذا الشلال الذي فتحته على نفسي، فكلما هربت منه جاءني كالطوفان، فأتقيه بهز الرأس، والتعقيب بكلمة، أو كلمتين وفي كل مرة أتنبه والسؤال يغادر فمي:

- وكيف وضعكم بعد الوحدة؟

كان متزاحماً بمياهه كتزاحم سماء عدن بغيومها الثقيلة، وكمن كان ينتظر نفقاً ليعبر منه نحو الضوء حشر كومة من القات المقطوف في شدقه الأيسر، ومز سجارة (ماركة كمران):

- الدحابشة يضعون أقدامهم في بطوننا، ولا أحد يستطيع أن يقول ثلث الثلاثة كم!!

صمت لبرهة كأنه تذكر ألماً حاداً نخر قحف جمجمته، فعقب على عجل:

- علي عبدالله صالح أراد الوحدة لكن الحرب والفاقة بقرتا بطوننا.

صمت كما فعل سابقاً، وتطلع نحوي بارتياب:

- هل أنت يمني؟

وعندما لم أجبه، واصل صمته، واستحث همته في إيصالي من غير بطء فيما كان المطر ينهمر في محاولة يائسة لتطهير أدران المدينة.

[٢]

عدن تغتسل الآن غسل الجنابة.

ها نحن نحلّق في سمائها، والمطر يتساقط من غير هوادة، وعيناي تبحثان عن ذلك الفندق الرث علّني ألمح يدين صغيرتين تلوحان مودعتين من هناك.

نحن لا نستسلم للفقد بسهولة، حينما نفقد شيئاً نلمحه يدب تحت أهدابنا، نلمحه كما كنا نختزنه في ذاكرتنا هامشياً غير ذي بال، يتحرش بأصابعنا، فنذبه في كل حين حتى إذا احتجنا تلمسه غاب من بين أحداقنا، وبقي مدلى في سقف ذاكرتنا، وكلما حاولنا استرجاعه أمعن في الغياب، فنمعن في أوهامنا بأنه ما زال يتلعثم بين أصابعنا.

إنها لعبة الفراغ، نحن كائنات انتقالية، فالفراغ يتشكل وفق الأحجام التي يلتهمها. هي لعبة مغايرة لما اعتدنا عليه...ثمة هاوية سحيقة تدعى الفراغ، هناك تستبدل الحياة أرديتها، وتشرق من جديد، فالإله رع يغيب في الفراغ ويبزغ في فراغ آخر! حتى الأسطورة غير أمينة بالبوح بهذا السر العميق!

جنحت الطائرة غرباً، وأصبح من المتعذر رؤية الفندق من الجهة التي أقتعدها، تبدو قلعة (صيرة) معلقة هناك كحلم ملائكي تجمد في السماء قبل أن يهطل على الأرض، وتظهر ممرات صهاريج (وادي الطويلة) كأخاديد اسودت ونضب ماؤها، فجلست في وحدتها تفاخر بتاريخ منقرض مسح من الذاكرة، وبقي اسم مكتشفها الإنكليزي مثبتاً على مدخلها (صهاريج كوجلان) بقي اسمه كقنبلة نسفت آلاف السنوات، وذهبت بحضارة رجل يمني جاء من أول التاريخ ليغسل مدينته بماء السماء.

المستعمرون يصنعون مجدهم على أنقاض المدن القديمة، يكتبون تاريخاً مزوّراً، كما يفعل من سبقهم تماماً.

هذه المرة لا يجاورني أحد في مقعدي البائس.

تمكن عياش من اختطاف بطاقة صعود للدرجة الأولى، ودسها في حقيبتي كهدية يمكن أن تغطي على عجزه لعدم تمكنه من إقامة وليمة تجمعنا معاً. كانت اعتذاراته تقلل من نبرة صوته العنفواني، وهو يسر بضيق الحال، استنكر فعلي حينما مددت إليه بألف ريال سعودي كمساعدة بسيطة تعينه على عبور الضائقة المالية التي يمر بها.

لم يكن أمامي سوى التحديق من تلك النافذة الضيقة التي تبين لك جزءاً من تلك الأماكن الغائرة في الأرض، تبدو بقايا شظايا قابلة للانفجار في أعماقك.

ها هو اليمن يتبعثر أسفل الغيم، وها هي المدن، والقرى التي كانت مرشحة لأن أطأها بحثا عنها تغدو فخاخاً مهيأة لالتهام فريستها بحذاقة المدربين.

شيء محروق يتساقط من داخلي كتساقط لبنات بيت خرب.

منذ أن قرأت عن الإنكليز كرهتهم، كرهتهم منذ أن عرفت مواقع المدن على الخارطة، والآن تتضاعف هذه الكراهية، لقد أسسوا منابع لتدفق الدم، وأبقوا خنجراً معلقاً في الخاصرة، ومضوا.

الهزائم متشابهة المذاق: هزيمة الحب، هزيمة الحرب، هزيمة الذات، هزيمة الوجود، كل الهزائم متشابهة، كبرت أم صغرت، فلها المذاق نفسه فهي تعبر النفق نفسه، مخلفة طعمها المر، وباذرة أساها، وحالة من الاستدراكات لا طائل منها، استدراكات تلوم النفس المنهزمة، ولا تقيها من الانغماس في حسراتها.

التنهدات الحارة نفسها التي تثقب صدري شممت رائحتها منبثقة من صدر أبي، وزاد عليها أن قضم شفته السفلى، وضرب فخذه بقوة:

- صدقت يا وردي!

أخيراً صدّق أبي على مقولات صديقه عثمان الوردي حينما كان يشاهد الصواريخ، وهي تقصف بغداد في عملية ثعلب الصحراء، تلك العملية التي

تركت أجساداً مجندلة، وبحر دماء يطفو على جنبات شاشة التلفاز، تنهد عميقاً، وزفر حممه من خلال جملته التي ظلت عالقة في مخيلتي:

- الحرب دائماً تأتي تجر الموت، والفقر، والعار.

وكأنه لم يرتو فأكمل جملته:

- من هذه العناصر تُعد عجينة الفساد، والفساد لا يحتاج إلى زمن طويل كي يتخمر.

لم أكن مدركاً أن اللذة التي كنا نمارسها في انتظار اشتعال الحرب يمكن أن نكون نحن الحطب المقدم لألسنتها مهما بعدنا عن لهيبها. حين تقوم الحرب لا تنتهي بانتهاء أصوات طلقات المدافع، احتجنا إلى سنوات طويلة لنصل إلى هذه الحقيقة.

ليلى زوجة الرقيب محسن البكر بعد موت زوجها في حرب التحرير لم تجد شيئاً تقابل به تكلفة الحياة الباهظة إلا جسدها، ترتمي أسفل تلك المجنزرات اللاهثة لتدهس عظامها مقابل مائة ريال تطبب بها وخزات ضميرها، وتشتري ما تحتاجه لأولادها الذين يتعلقون بعنقها كلما خرجت للدهس اليومي.

احتجبت مدينة عدن خلف السحب، وأمعنت الطائرة في علوها، ولم تفلح عيناي الباحثتان في نقطة ما على تلك الأرض من رؤية يدين صغيرتين تلوحان لتمحوَا ما كُتِب في زمن ما.

كما ذهبتُ عدت، عدت أتحسس تلك الوثيقة الرسمية، وأحدق في ملامح ذلك الجرو الصغير، وكلما نشرتها أمام بصري أيقنت بما حدث، أيقنت بتفاهة كل الأشياء التي تغتالنا حيناً من الدهر.

ما بالنا نضع جمرات في راحة حياتنا، ونركض على مدار الأيام لقذفها، وحين يحدث ذلك، نعود للبحث عن تلك الجمرات الحارقة. إن حياتنا لا تصلح من غير عذاب، أو لوعة تشعرنا بأننا أحياء!!

- هذا هو قانون الفراغ.

ها أنا أعود عمود دخان، بقايا لحرب كنت هشيمها، أعود كرسمة خطها جندي استدبر المعركة ومضى يخب القفار هرباً من رؤية دمه المسفوك فريسة

لرمال صحراء شرهة، عدتُ رسماً لكائن ستتنبه الريح له وتذروه في الجهات الأربع.

ما نستلذ به في حينه ربما يتحول إلى علقم يجز حناجرنا في زمن آخر.

تقافزنا لأسطح المنازل نقلب أبصارنا في السماء المحتشدة بأسراب الطائرات الحربية المتقاطرة بضجيج متعال.

- انظر هناك.

تصفو سماء جدة نابذة أي سحابة توسوس بالتواصل مع أرض سبخة، وتُبقي على فضائها صحواً طوال العام غير مكترثة بصلوات الاستسقاء المقامة في جميع أنحاء مساجدها المتناثرة في كل الأحياء.

هذا الصفاء المبالغ فيه سمح لنا برؤية كل تحركات الطائرات الحربية المحلقة في سمائها، والماخرة باتجاه الشرق.

لم يكن أي ممن تقافز لأسطح المنازل يمتلك خبرة كافية في ما يدور على حدودنا الشمالية، والشمالية الشرقية. كنا نردد كلمة الحرب غير مدركين عواقبها.

ظل تلفازنا صامتاً عن الاحتلال العراقي للكويت ثلاث ليال، وفجأة انفجرت كل الوسائل الإعلامية لتخبرنا أن أرضاً عربية أخرى ترزح تحت الاحتلال.

كان في الأمر فجيعة مخبأة بشكل سري، وكانت مشاعرنا تتشكل كعجينة صلصال رخوة أغدق عليها الماء فتمددت بغير استواء.

اتخذنا من مراقبة تلك الطائرات نوعاً من الترفيه، والتلذذ بأجواء غريبة تعبرنا لأول مرة في تاريخنا الشخصي، ولم يشأ أحد أن يهون من الأمر كي لا تموت تلك المتعة الحارثة لسنوات طويلة من الركود، فجمعينا أوصل الخطر لمنابع الأفئدة، وفتق سدود الطمأنينة، فتشعب بيننا فزع دفع بمجموعات كبيرة لتخزين المواد الغذائية والمشروبات بكميات مهولة استعداداً لحرب قادمة، ومشاهدة أيام لا نشاهدها إلا من خلال شاشات التلفاز.

كانت مشاعرنا متناقضة: خوف وتلذذ، ترقّب وتهاون، تهويل وتحقير، قلق وطمأنينة.

كنا نقف على طرفي نقيض كل شيء.

هذه المشاعر المتناقضة خلقت مواقف ساخنة وباردة، أياماً مدهشة وفاترة، وسعى الاسترخاء في مفاصل حياتنا حين استلقى الطلاب في مخادعهم لتوقف الدراسة خشية من تلك التهديدات التي انبثت من كرش صدام، وانتشرت كديدان صغيرة تنغل في ترقبنا لما يمكن أن تحدثه فينا من دمار، وكلما مضى الوقت تحولت الأيام إلى سهر، وتبادل أخبار ملفقة في معظم الأحيان.

في تلك الأيام تحول الحميلي إلى شخصية كرتونية مضحكة نتندر بها كلما رأيناه في تلك الهيئة الشاذة، كان يخرج إلى الشارع، أو البقالة مرتدياً بدلة واقية من الأبخرة الكيماوية اشتراها من توفيق عبدالله، ولم يكن يأبه بالسخرية اللاذعة التي كانت تلاحقه، فخشيته من انطلاق صواريخ صدام تفوق اهتمامه بنكاتنا الراكض خلفه في الشوارع المتلاصقة الضيقة.

انقلب المسجد إلى ضحك هستيري حينما دخل الحميلي مرتدياً بدلته الواقية، فمع تحية المسجد لم تمكنه بدلته من السجود بسبب خرطوم البدلة المعقوف، وظلت محاولاته متواصلة حتى نهره إمام المسجد، فجاء صوته مكتوما لاعناً الإمام وصدام على السواء، واستمرت لعناته متواصلة لسنوات طويلة بسبب الحساسية الشديدة التي تسببت البدلة الواقية في إحداثها، وما زال يهرش أنفه إلى الآن!

توافدُ قوات الحلفاء أشعرنا أننا مقدمون على أيام مبهرة، ففي كل يوم ينضم جيش إلى الجيش.

في تلك الفترة القلقة تطرزت السماء بطائرات حربية كانت تعبرنا بين الحين والآخر، ومع أصواتها الثاقبة تتقافز أبصارنا صوبها راصدة الجهة المولية شطرها، وفي كل مرة كانت إصبع عمر داود تتابع تحليق تلك الطائرات.

- هذا سرب أمريكي بريطاني مشترك.

عمر داود أكثرنا ادعاء بمعرفة أنواع الطائرات الحربية مستنداً إلى خبرة قديمة لطالما تباهى بها في المجالس وعلى مسامع الراغبين في الحط من شأنه، ففي كل مرة يذكرنا أنه أحد أولئك الجنود الذين حققوا انتصار أكتوبر حين

انطلق مع الجيش السعودي المحارب على الجبهة السورية، ولا يكتفي بهذه التجربة البعيدة عن أذهان جل من يستمعون إليه، فينخرط في سرد وقائع التعبئات العسكرية التي شهدها حينما كان ضمن أفراد الجيش المرابط على الحدود الشمالية إبان الحرب العراقية الإيرانية.

بهذه الادعاءات اصطفاه بعض رجال الحارة، وكسب الحظوة لديهم بما يشبع من أخبار تشبع فضولهم، وتمادى في مد خبرته بشرح إستراتيجية الحرب القادمة.

ادعاءاته فجرت مخيلته عن معلومات كانت تعبر آذان مستمعيه من غير تمحيص، ولم يكن أحد منهم قادرا على تكذيبه، فلم تكن لهم دراية مسبقة بمثل هذه الأنواع المختلفة من الطائرات، فاستقبلوا معلوماته من غير محاجة، أو تكذيب، وربما كان يشير إلى نوع منها فيمنحها النعوت المتناقضة.

تظل عيناه وسبابته تلاحقان كل طائرة على حدة ذاكراً نوعها، وجنسيتها، وحمولتها العسكرية.

صاح وسبابته تخترق الفضاء:

- هذه هي الشبح، إنها تحمل حمولة تدمر العراق كاملاً!

مقولات عمر داود تومض كأعواد الثقاب المنطفئة، والمبقية على دخان هزيل يتلاشى كما تتلاشى سحب مدينة جدة الرطبة.

[٣]

وصلتُ إلى الصالة الشمالية لمطار جدة الدولي في وقت مبكر، ربما جئت قبل موعد الرحلة بثلاث ساعات، كان وقتاً كافياً لإنهاء إجراءات السفر، والتسكع في ردهات المطار مستبطئاً الوقت، وباحثاً عما يمكن تقديمه كهدية تليق بكل هذه السنوات من الغياب. وكلما هممت بشراء شيء تناثرت هدايا متنوعة جمعتها لها عبر ذلك الترحال المضني من غير أن تصلها، فأقذف بها لأول امرأة أجدها في طريقي.

كيف لا تموت أحلامنا حين تتيبس الطرقات؟ كان بالإمكان أن يموت ذلك العشق قبل سنوات طويلة، وأن تذبل داخل صحراء روحي الواسعة، أو تغور عميقاً فلا يصلها دلو الحنين المدلى في كل حين، كان بالإمكان أن يحدث هذا لولا مشيئة عنيدة تحرضني لأن أبقي جذوتها، فكلما ذبلت في داخلي، أنعشها حلم فاتر، فأفيق متربصاً بخبر يدنيها.

لماذا نبقي في داخلنا جمرة وحيدة؟ هل نَحِنُّ للعذاب الأول؟

منذ ذلك الرحيل الجماعي لليمنيين، وأنا معذب بالبحث عنها، وفي كل مرة أحزم حقائبي أستشعر أني سأجدها، سأجدها كآخر لحظة فلقت عشق طفولتي ونبتت في أرض صلدة.

المطار يعج بالمسافرين، والمودعين، والمستقبلين، وروائح مختلطة تجوس المكان تتبدل تركيبتها قليلاً، أو كثيراً كلما عبرت جالية من الجاليات المتناثرة على امتداد صالات المطار.

حول كونترات قطع بطاقات صعود الطائرة تكتلت مجموعات المسافرين من غير انضباط، أيدٍ تمسك جوازات سفر من كل لون، وكل لون يحمل جنسية

وعرقاً ودماً وغربة، أعراق من كل بقاع الأرض، ولغات مستقيمة ومعوجة، وأشكال صفراء وبيضاء وسوداء، شيء ما يفور في داخلهم له طعم الفرح، وإن لم يفصحوا عن ذلك بعد، تشعر لبرهة بأنهم تخلّوا عن تحفظهم، وأن ملامحهم تتهيأ لنصب بيارق البهجة لتغطي على تلك الكآبة المزدهرة بين عيونهم، والتي تشي بأنهم للتو خرجوا من فرن تسهدت له أجفانهم. شيء ما تقاسموه فحفز أعماقهم لأن تفيض ببشر.

كل هذا الصخب الذي تولّد في أعماقهم، بقي ساكناً، وكأن الوقت لم يحن لإعلان انطلاق مراسم عرسه المؤجل، ذلك العرس الذي يضمرون نية الرقص فيه بوعود صادقة!!

وقفت أمام موظف الخطوط اليمنية مبتسماً وهو منهمك بتسليم بطاقات صعود الطائرة:

- نعتذر، لا توجد في هذه الرحلة درجة أولى. يمكنك استرجاع نقودك عند العودة، وسوف نؤشر لك بهذا الأمر على التذكرة.

قال جملته من غير أي ارتباك، أو توقف، ولم يفاجأ بتسامحي المفرط في استقبال ملاحظته ببرود تام، وعلى عجل مد لي ببطاقة صعود الطائرة:

- عليك إنهاء ما تبقى من إجراءات السفر، والتوجه إلى صالة المغادرة.

أمقت مثل هذه الوصايا، وأمقت كثيراً أولئك الموظفين الذين يؤدون عملهم برتابة وآلية مقيتتين.

على بوابة المغادرة اختلطت الأجساد والروائح، بعض المسافرين ارتدوا ملابس ثقيلة استعداداً للتصدي لموجات برد المدن المسافرين إليها، فوجدوا جواً هالكاً ينتظرهم في صالة الانتظار، لينتزع كل منهم ملابسه الثقيلة، ويتأبطها.

تخلت النساء عن أرديتهن الثقيلة فتكشفت صدورهن، ونحورهن، وأبان شيئاً مشتهى من فتنتهن المخبأة.

عندما تفتح المرأة ثقباً على مفاتنها يتخلى الفراغ عن مهمته القاسية، ونرى مباهج الحياة تتسع.

المرأة هي زجاجة شفافة تلون لنا صحراوية الواقع ووعورة تضاريسه الهالكة. نحن الذين أخرجناها من الجنة لتتمتع بتلونها!!

حين كانت لمياء تنادي على أختها لم تأبه بتلك العيون المتلصصة بنهديها النافرين من فستان لم يكن أميناً على كنوزه، ففرط بإظهار صفحة صدر له بريق، يكشف عن جنينين طفح شغبهما، فأبان عورتهما ليغدُوَا مهبطاً لتلك العيون المحدقة بالباب المفتوح، وقفت منحنية بجذعها الأعلى، فتنبهت للمتربصين بغنيمتها فحجبت نفسها بستارة تدلت من أعلى الباب، وإن لم تكن حريصة على ذلك تماماً.

- وفاء، عليك أن تعودي للدار، وتصلحي من شأنه.

لم تلتفت لندائها المتكرر، فقد كان عجزاها يموجان في أداء واجب إجباري لتنسيق نغمة ذلك الجسد المشوق والمتكسر في منحنيات شارع تأفف من كل شيء إلا من مشيتها المتموجة، أرخت لمياء من صوتها:

- أَوَتحسبين الأمر هيناً.

- قلت لك سأعود حالاً.

كانت رغبتي عارمة للنهوض، وملاحقتها لأستر عجزيها اللذين نفرا باشتهاء حتى أن المتربصين تخلوا - لبضع الوقت - عن ذلك الصدر المكشوف، ليستعيضوا عنه بقوامها المرتج، وكأنه يعزف سمفونية صاخبة.

يصيبني الكمد كلما رأيت عيناً تقع على عجزيها، وتجدني في كل مرة أبحث عن وسيلة لإخفاء عجزيها عمن يصوب سهامه تجاهها، وفي كل مرة أنهرها بأن لا تعمد لشد عباءتها على خصرها، فتتضاحك:

- ماذا أصنع؟ خلقني الله هكذا.

بسبب مشيتها تسمّر ثلة من الفتيان بالقرب من دارها، وكلما خرجت تنبهوا تماماً على أي وقع تسير، وبسبب هذا التربص دارت مشاجرات عنيفة بيني وبين خصومي الذين يبحثون في مشيتها عن نغمة لم تعزف بعد.

كنت قادراً على التغلّب على أقراني البائين عيونهم ووجدهم في طريقها، لكنني لم أكن قادراً على منع من يقرع بابهم خاطباً لها، ولمعرفتي بأن طالبي الاقتران بها لا يدخلون في دائرة شهية أبيها المفتوحة على اتساع دوامة استرخت في عمق محيط، بسبب هذه الشهية المفتوحة تسكنني الطمأنينة بعض الشيء.

لم يكن يعتريني الجزع الهالك من ذلك القرع المتواصل للخطاب، هو وحده - توفيق عبدالله - الذي كان يرعبني أن تمتد رغبته إليها، لو فعلها ستكون إحدى أصابعها محشورة في محبس ذهبي يبعدها عني طول العمر، فهو الوحيد القادر على شراء النفوس الجشعة، فأمواله تسير في كل البلاد، وتعود إليه محملة بالأرباح الهائلة. خسته، وقلة مروءته فتحتا له أبواباً عديدة كان آخرها متاجرته ببيع اللصق على الخائفين من أبخرة صدام، وحين أشيع رداءة اللصق في حماية الناس من الأبخرة الكيماوية، وأن الضمان الأكيد للهروب من الموت استنشاقاً ارتداء أقنعة واقية لا يتسلل منها إلا هواء نقي، ساعتها كان قد قفز من حبل لآخر، تهيأ لقفزة توصله لعنان الملايين في صفقة مشبوهة، يقولون إنه اتفق مع أحد الأمراء لتمويل صفقة شراء الأقنعة الواقية من آثار الأسلحة الكيماوية، في تلك الأيام جمع أمواله السائحة في كل مكان ليدخل شريكاً في استيراد الأقنعة الواقية.

ما زال الباب يضم جسد لمياء، وهي مستترة بستارة غامقة شهبت ألوانها، وقفت تتجاذب الأخبار مع فاطمة ابنة غالب المنشار التي تدلى رأسها من النافذة المقابلة:

- يقولون إنه قادر على إماتتنا، ونحن داخل بيوتنا من غير الحاجة إلى هدها على رؤوسنا.

- سمعت بمثل هذا.

- ويقولون، سيرسل علينا كيماوي يحرق الصغير قبل الكبير.

- لقد قام أبي بإغلاق كل المنافذ ولن يستطيع أي دخان النفاذ منها.

- كلنا فعل ذلك، لكن خوفي ما زال قائماً.

ما زالت العيون مبحلقة بالباب علّ انحناءة تبين التوأمين اللذين استترا بستارة البيت، ربما أرادت أن تنهي ترقبهم، فمالت بجذعها للخارج قبل أن تتراجع لداخل البيت لاعنة صدام والأمريكان على السواء.

فيما كانت وفاء تبتعد بعجزيها بعيداً، ورغبة ملحة تنازعني لاقتفاء أثرها.

[٤]

تحرّك الباص مقلاً الركاب تجاه الطائرة، كانت العيون تتلاقى وتهرب بعضها من بعض، ربما يوسوس فمك بابتسامة مقتضبة لمن يتطلع في ملامحك المتحفزة إلا أنك تواجه كل المحاولات بإغلاق منافذ الوجه بعناية.

كنت مرتاباً من هذا التوجس الطارئ، قبل قليل كنت ألمح وجوه المسافرين أكثر انفتاحاً ووداً، هل للزي الذي أرتديه دور في هذا العبوس الذي يقابل ابتساماتي المحلقة كطائر أخرق؟! لم أشأ تعميق هذا الظن، وهرباً من الإحراج المتكرر تمسكت بالرباط المدلى من الباص كي لا أقع أرضاً مع انحرافاته المتكررة، وتعقبت سرب الطائرات الرابضة على أرضية المطار الشاسعة.

في مرأب منزوٍ سكنت بعض الطائرات الحربية في سكون وجلال، كانت رابضة كاليبوت الفخمة المهجورة، تعبرها العيون عبور المتسائل:

– هذا مطار مدني ما الذي جلب الطائرات الحربية إلى هنا؟

وكمن يخشى انفلات هواجسه، وركضها بين مسامع الركاب، عُدت للتشبث بالرباط المدلى من سقف الباص متتبعاً تلك الوجوه الهاربة بعضها من بعض.

لا أحد يتذكر كارثة حرب الخليج الثانية، وإن ذكرت يتم استرجاعها كحلم بهت في الذاكرة، وغابت تفاصيله، عشر سنوات مضت سريعة مباغتة التهمتنا وأبقتنا خارج الوقت. كل شيء تبدل فينا، وحلقت في أرواحنا هزيمة مبطنة، نمت أشجار اللامبالاة، ووفق الفراغ المثبت في معارفنا غدونا أكواباً لا يعنيها أي سائل تحمل، وأي شكل تتبلور فيه، وأي فم يدنيها من شفتيه، غدونا أوراقاً ممزقة نحمل أجزاء كلمات، جملاً ناقصة، وعلامات ترقيم لا تدل على أماكنها، شيء ما طار من أفئدتنا وبقينا – صباح مساء – ننصب الشراك لاستعادته.

عشر سنوات مضت سريعة مباغتة.

فاحت رائحة الحرب.

كان صدام كريهاً وهو ينفث تهديداته بزهق أرواحنا كما يشتهي – لم أتصور أنني سأكون ضحيته الأولى في هذه الحرب القذرة – ريح عاصفة قَلَبت التربة، أيقظت الأيام المتقاعسة في زمننا الراكد، وغدا الانتظار فريستنا الوحيدة، نتربص بها وتتربص بنا.

ثمة خوف تسرب من القصور الفخمة، سال في كل شوارع المملكة، فامتلأت أفئدتنا خوفاً من تلك الوصايا المتناسلة من أجهزة الإعلام عن كيفية طرق السلامة الواجب اتباعها للوقاية من الحرب البيولوجية والكيميائية.

يومياً يكبر الخوف ومع الحكايات المتناثرة يزداد هلعنا لتتحول الأيام إلى مغزل تدس خيوط الرعب في حياتنا وتوثق عراها، وغدا شغلنا الشاغل كيف نقي أنفسنا من تلك الأبخرة التي يمكن لها أن تتسلل إلى مخادعنا وتحصد أرواحنا وتتركنا خشباً مسندة.

سماسرة الحروب كالخفافيش تنهض في الليل وتمتص الدماء الطرية، كان الليل صوت صدام، فتنافروا في أطرافه ليستثمروا دماءنا كما يشتهون، صفقات واتفاقات وعقود كتبت بدعوة الخوف علينا، ولم يكن خوفهم كفيلاً بجلب احتياجاتنا.

خرجنا جميعاً لشراء (اللصق) فمعظمنا لم تسعفه حالته لشراء الخوذات الواقية ولم نكن لنعرفها لولا أن توفيق عبدالله جلبها لنرى شكلها متحسرين على تخيل أجسادنا المتخشبة على أرائكها لو أن صدام نفذ تهديداته، وأرسل إلينا طيور أبابيل.

ابتعنا كميات كبيرة من اللصق، وأغلقنا جميع المنافذ المقللة لطمأنينتنا من أن تكون منفذاً لتسلل الأبخرة الكيميائية.

في تلك الأيام لم تزدهر سلعة كما ازدهر بيع (اللصق)، فقام توفيق عبدالله بإفراغ محتويات متاجره المتعددة من كل شيء، وجلب جميع أنواع (اللصق)، فتهافت عليه أهل جدة طلباً لأجود تلك الأنواع التي سوّق لها جيداً.

فاحت رائحة الحرب.

أدرك الجميع أن الأمر ليس مزاحاً سعوا لتضخيمه عبر الأيام الماضيات، والاستمتاع به للقضاء على سنوات الركود الطويلة، استيقظت مخيلتنا على الاحتمالات المدمرة التي ستصيبنا من النثرات المتطايرة للحرب القادمة، ومع الحكايات التي حملها الكويتيون اللاجئون في مدن المملكة، بدا الجميع مرهقاً من الصور التي تتشكل عبر تلك الحكايات، كان أكثرها فظاعة هتك الأعراض، واستباحة أجساد لطالما تسامت عن الدنس، كل منا تخيل إحدى محارمه وقد تعرى جسدها، وجفت استغاثتها، وهي تدفع ضبعاً نهش شرفها. هذه الصور جعلتنا نبحث عن الأسلحة الخفيفة، والثقيلة لحماية أعراضنا إن وقعت الكارثة وسقطت المملكة.

لمحت أبي يحمل رشاشاً، ويدلف على البيت مستبشراً، فتلقته أمي فزعة:

- ما الذي حدث؟

- سيكون هذا بيني وبين من يحاول تدنيس شرفي؟

- أي شرف هذا الذي سيدنس؟

- أنتن لا تعرفن سوى الاستلقاء على السرير.

- وما الذي يحملك على قبح القول؟

- ألا تسمعين ما أحدثه رجال صدام بنساء الكويت؟

تنحت به جانباً، وأسرت له بحكاية، فانفجر ضاحكا لاعناً خبث النساء.

في تلك الأيام شاعت طرفة تناقلها الناس بصور شتى:

تسامرت النساء، وأخذهن الحديث عن وحشية رجال صدام في اغتصاب النساء، وتوالدت حكاياتهن عن روايات انتشرت في البلد تروي مصائر النساء اللاتي اغتصبن بوحشية، وتفنن بعضهن في سرد تلك الوقائع مما أثار مخيلة الحاضرات، وكانت بينهن امرأة مسنة - يقال إنها كانت شبقة في شبابها - تصغي لحديثهن باهتمام ونشوة، وعقبت على حديثهن برفع يديها ضارعة:

- يا الله أسألك بكل أسمائك، لو قدرت لرجال صدام دخول هذا البلد أن تجعل أولى خطواتهم تبدأ ببيتي!!

[٥]

اقترب الباص كثيراً من المرأب الذي يضم الطائرات الحربية النائمة - على ما يبدو - في مكانها منذ أمد، حاولت معرفة نوعها فلم تسعفني خبرتي القاصرة في علم التسلح بنوعها، أو جنسيتها:

- ما سبب بقاء الطائرات الحربية في مطار مدني، كل هذا الوقت؟

تذكرت الجملة التي قالها إبراهيم المؤذن من غير أدنى التفات لرؤية المحيطين به:

- الطائرات المهيأة للإقلاع في كل حين تذكرك بالأحصنة القابلة للانطلاق في أي لحظة، وكل الأمراء تربض طائراتهم المروحية في قصورهم. فقط ينتظرون الإشارة ليحلقوا بعيداً عن دخان الحرب!

ابتلعت هذه الجملة كلقمة جافة عليّ تمريرها لأحشائي قبل أن تقف في حنجرتي، وأضطر لإخراجها بصورة غير لائقة. إلا أن هذا التصرف لم يمنع الذاكرة من الركض المحموم خلف تلك الأحداث التي نامت في دروبها ومنحنياتها، هكذا، وجدت نفسي منساقاً لتتبع مقولات إبراهيم المؤذن.

كنا نحف به، وهو ينثال بمقولاته المتلاحقة إلا أنه توقف كثيراً عند الطائرات التي تكون متهيئة لتهريب الزعماء، والتحليق في الهواء بمجرد اهتزاز الكراسي. في تلك الجلسة سمعته يستحضر كل الوقائع التي يعرفها كنموذج لهذه الحالة:

... حين استجابت طهران لأشرطة الخميني وجد الشاهن شاه - محمد رضا بهلوي - ثقباً في النافذة يوصله لتلك الطائرة المروحية الرابضة فوق

قصره، والتي استطاعت أن تحلق به في سماء إيران قبل أن يصل الإمام الخميني، ويوصد عليه باب زنزانة بلا ثقوب.

كانت عيناه المتقدتان تلمعان كفصّين خلعا من خاتم نفيس، فحافظتا على جمالهما بالرغم من جحوظهما:

- لو نشبت الحرب فستجدون أنفسكم تقاتلون بمفردكم.

حديثه ينساب في مسامع الحضور بعد أن مهد له بذكر أمثلة لهروب الزعماء الذين سقطت تيجانهم في واشنطن قبل أن يسمعوا رنتها في بلاطهم، أو يجدوا الشعب يقف بين أنوفهم والهواء العابر.

لم يكترث للاستياء الذي أبداه الحضور، وخشية بعضهم من مغبة القول الذي يمكن أن يخفيهم بقية الدهر، ويخفيه معهم، لم يكن متهيباً، يقول رأيه من غير تلجلج، أو محاباة.

الحرب الطويلة (في مرتفعات أفغانستان) أجلت جاسرته، وجعلته يقترب من التهور، كان يتزود بطاقة كلامية اكتسبها من كثرة وقوفه على المنابر، وإلقاء الخطب بين جماعات الدعوة، وحين ذهب إلى أفغانستان عاد أكثر تهوراً مما مضى، يقول قولاً غير مأمون العواقب.

أقواله وأفعاله - هو وجماعته - انتشرت في الحي مقرونة بحكايات يؤمن عليها السامعون من غير أن تُقَلَّب على نار هادئة، ومن الحكايات التي نامت في أذهاننا من غير أن يزعجها طارق ليل، أو يقلق مضجعها عابر سبيل، تلك الحكاية التي رواها أحمد الغامدي، وتناقلتها الألسن ككرامة خص بها إبراهيم المؤذن من دون سواه:

في معركة جبال بكتيا أرسل الجنود السوفييت كتيبة مكونة من ست مدرعات، فتدرعنا بالأرض والكهوف محتمين من القصف المتواصل المصبوب علينا صباً، تصرفنا تصرفاً سفيهاً حين بادلنا تلك المدرعات التصويبات العشوائية، فتناقصت ذخيرتنا في وقت قصير، وما تبقى منها لا تمكننا بأي حال من مجابهة تلك المدرعات، وأوشكنا على الهلاك، ولم يكن لدينا ماء ولا غذاء، وكان الرأي أن نبقى داخل آخر كهف انتقلنا إليه إلى أن يحين الليل،

فنتسلل الى جهة أخرى. هذه الأمنية سقطت أمام النظارات الليلية التي كان يمتلكها الروس، فمع أول تسلل حصد خمسة مجاهدين منا، واجتمع رأينا على تأمير إبراهيم المؤذن علينا بعد أن سقط أميرنا في أول تسلل لنا. في تلك الليلة قضى أبو حفص (وهذه كنية إبراهيم المؤذن) قضى ليله في ركعة واحدة، ومع تسرب أشعة النهار، أمرنا أن نخرج، ويحمل كل منا حفنة من تراب، ويلقيها على تلك المدرعات، تراجع بعضنا، وأقدم البعض الآخر، كنا نشاهد إخواننا المجاهدين يسيرون بثبات، وطلقات المدرعات تعبرهم من غير أن تصيب أحداً منهم، سمعنا أبا حفص يكبر تكبيرة عالية يتبعها انفجار مهول لتلك المدرعات التي حثّنا عليها بالتراب!!

هذا هو إبراهيم المؤذن يسير مغفوراً بالبطولات والكرامات.

رغبت في رؤيته حيث غدا حديث أهل الحي، شعرت به يقف في قلبها كفارس جاء مكللاً بالانتصارات فتعلقت عيون النساء على وقع حوافر خيله، عاد من جبال أفغانستان يحمل حكايات من كتاب ألف ليلة وليلة، ويحمل في يده كرامات الشهداء والصالحين.

كعادتي حين اعتصمت الطرقات بظلمتها جئتها متسللاً فبادرتني:

- ألا ترى الفرق بينك وبين إبراهيم المؤذن؟ أنت تتسلل لرؤيتي، وإبراهيم يتسلل لقتال أعداء الله.

تركتها في مكانها، وسعيت لرؤيته.

على أي حال كانت نهايته السجن والغربة - تماماً كتوفيق الذي حاول أن يخطفها مني، وإن كان هناك فرق بين التهمتين - ولم يفلح أحد من ذويه أن يعرف في أي زنزانة يقبع، فبعد أن تركنا مقاعدنا ملبين صيحات الصبية المتعالية:

- جاء جنود صدام.

افتقده أهل الحي في اليوم التالي مباشرة، وأخذ البعض يترقب أن يُستدعى أو يُسحب ليكون زميلاً له في إحدى الزنازين غير المعروفة.

رأيته عن قرب، كان وجهه ندياً خاشعاً تسبق خشوعه عجلة الحديث، كنت ألمح عيون كل صبايا الحي معلقة بأهداب عينيه، وكلما تحدث حديثاً تمنيت أن يزج به في غياهب السجون عندها سأستعيد عينيها من وجهه.

فسعيت لرؤيته. ربما لاقتفاء أثره علّها تفخر بي بين صويحباتها، وربما سعيت لرؤيته كي أقف على شيء يزحزحه من مخيلتها على أقل تقدير.

حين أخطئ، وتزل قدمي صوب مسجد المغاربة، أجد محسن المصلوحي يلح عليَّ بمواعظه الدافئة، ويذكرني أن شبابي زائل، وأن كل خطيئة باقية، ويرغبني بأحاديث لطالما سمعتها منه:

- سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم شاب نشأ في طاعة الله.

وبعد أن ينهي سرد الأحاديث (التي يحفظ معظمها بمعناها وليس نصها) يضع كفي بين كفيه معمقاً بصره في وجهي:

- أنا أحبك، وأخشى عليك أن تحرق شبابك في ملذات زائلة، وشباب زائل.

استبشر حين وجدني أقف أمامه، فجذبني من يدي صائحاً:

- سبحان مقلب القلوب.

كانت رغبة زائفة استعددت لها بان أطلقت لحيتي، وتصنعت التنسك، وأكثرت من ترديد الأدعية، والاستغفار، وسكن بين شفتي عود أراك غض أبان فلجة أسناني.

- هل يعقل أنك استقمت؟

- الله الهادي، ألا يفرحك هذا؟

جذبني بين ذراعيه:

- يسعدني كثيراً، ولله الحمد.

حاولت تخليص جسدي من بين ذراعيه بلطف:

- أرغب في رؤية إبراهيم.

- إبراهيم! تقصد أبا حفص؟

- أقصد إبراهيم المؤذن.

- نعم، فكنيته أبو حفص، هل عزمت على الجهاد؟

قالها مستبشراً. احترت حيال مباغتته التي لم تكن في الحسبان، فربت على كتفي بحميمية مبالغ فيها:

- الآن ستجد طعم الحياة.

جذبني من يدي، واتجهنا لأداء الصلاة.

[٦]

على بوابة المسجد نعت حسين مبارك هذه الأيام بالحارقة:

- ليلياً أبيت داعياً الله أن يسلم أمة محمد من حرب تحصد أولهم، وآخرهم.

قفز في وجهه يوسف محرق:

- الخوف ليس على أمة محمد مجتمعة، وإنما علينا نحن المساكين، فسوف نجد أنفسنا أول المحروقين بهذه الحرب.

استهجن خيري عبدالجواد مقولته:

- وهل أجلسوك على الحدود حتى تقول هذا القول؟
- ألم تسمع ما يقوله إبراهيم المؤذن؟
- وماذا يقول؟
- يقول: مع أول شرارة للحرب لن تجد أحداً بالبلد كلهم سيركبون طائراتهم، ويغادرون، ونبقى نحن صيداً سهلاً لجنود صدام.

تدخّل عليثة المحلبج ببحته المعهودة:

- سمعت منه هذا القول كثيرا، فهو يردده باستمرار، وهذا قول الجهلة، فمن يترك الحكم بهذه السهولة؟

تطلع يوسف محرق إلى وجهه محتقراً:

- أوتظن نفسك عالم فلك؟ أنسيت أنك تقف تحت الشمس تنادي طوال النهار على بطيخك علّك تغنم ببيع بطيخة واحدة.

لم ينفعل عليثة لهذا التعليق، وإمعاناً في التجاهل أطلق ضحكة شاركه

البعض في ترديد قهقهتها، ودلف إلى داخل المسجد من غير أن يقطع ضحكته المجلجلة.

تبادلت مجموعة محددة وجهتها بعد الصلاة. سمعت طارق الحكمي يميل نحو ياسر البهقي (وهو يمسك بيدي):

- سنكون في مجلس الشيخ منور فلا تفوتك هذه الجلسة. يقولون: إن بها بعض المجاهدين القادمين من أفغانستان حديثاً.

خرج سراج الينبعاوي من دورة المياه، ووضوؤه يتقطر من لحيته الكثة، ووقف متسائلا:

- كل واحد من الفريقين يدعي أن الحق معه، فصدام يرفع شعار الله أكبر، ونحن نرفع لا إله إلا الله محمد رسول الله، فأين هو الحق من الفريقين؟
- هذه فتنة من اجتنبها غنم.
- هذه فتنة أمريكا، وبعض أعوانها من العرب.
- لعنة الله على أمريكا، وعلى الصهاينة الكلاب.
- ولا تنس لعنة الله الكبرى على صدام الذي تسبب في كل هذه الكوارث.

يبدو أن أصواتهم كانت تصل لداخل المسجد مما جعل إمام المسجد يخرج عليهم صائحاً:

- أفسدتم علينا خشوعنا، الأفضل الدخول في الصلاة بدلاً من اللعن الذي لا يفيد.

تقاطروا جميعهم للداخل مستغفرين، ومؤدين تحية المسجد بجلال وخشوع.

ومع انتهاء الصلاة كانت مجموعة كبيرة تتجه لمجلس الشيخ منور وتحف بإبراهيم المؤذن وبعض المجاهدين العائدين للتو من أفغانستان.

[٧]

توقف الباص مباشرة أمام طائرة تابعة للخطوط اليمنية، كانت طائرة متواضعة، فحجمها وهيئتها لا يشيران أنها طائرة مخصصة للرحلات الدولية.

تدافع الركاب لصعود الطائرة حين فتح باب الباص إيذاناً بالصعود، وندمت لأني لم أشارك في ذلك الاندفاع حيث خسرت مقعدي عندما صعدت ووجدت مكاني محجوزاً بكتلة لحم فائضة عن الحد ولم يسعفني الرقم المسجل على بطاقة صعود الطائرة من استرجاع ذلك المقعد، ليقودني الملاح لكرسي آخر، أمسكت به كغنيمة عليَّ إثبات ملكيتي لها على عجل، فلم أهتم بوضع حقيبتي في المكان المخصص لها في أعلى الكبينة فقذفت بها أسفل قدمي، وثبتُّ جسدي برباط المقعد، وأغلقت مزلاجه بإحكام.

استقررت في مقعدي متحفزاً من أن يأتي شخص ويطالبني بالنهوض، ولكي لا أجد نفسي في حالة غير لائقة تحدثت مع الملاح الذي أوصلني لهذا المقعد، فطمأنني بأني أجلس في مكان من سطا على مقعدي المدون على بطاقة صعود الطائرة، ساعتها فقط أيقنت أني لن أتعرض لتوبيخ من عينين ستنغرسان في لحمي مستخفتين ومحتقرتين سلوكي.

بقية المسافرين يتقاطرون في الممر باحثين عن مقاعدهم محدثين ارتباكاً حاداً في مقصورة الطائرة والرجاءات الحارة المنبثقة من أفواه الملاحين بالتزام النظام تبخرت من غير أن يمسك بها أحد.

تعودت على ممارسة لعبة قراءة الوجوه من وقت مبكر، أقوم بهذه الهواية في كل مكان أتواجد فيه: في العمل، والفنادق وعلى قارعة الطريق. تبدأ هوايتي بالتطلع لحركة بؤبؤي العينين، انبساط وانقباض الحدقتين، حركة

الشفتين، وتموجات الحواجب، لكل نية تعشش في أعماقنا رقصة على وجوهنا.

في السفر أحرص أن أكون أول من يقعد في مقعده لاستقبل القادمين لمتن الطائرة، أسرق ملامح في نصف خدرها، نصف انتباه، ونصف عفوية، ونصف تحفز، وأقل عدائية أسرقها طازجة كما هي.

ثمة وجوه وعرة لا تفتح لك منافذ طرقها بيسر، والمتدربون في خوض قراءات الوجوه يسلكون طرق الشفاه واهتزازاتها، ومن هناك يتسللون إلى جوف تلك الشخصية ذات الملامح الوعرة. تتكسر رغبتي هذه مع تلك العيون الصلفة التي تبادلك التحديق متحفزة لأي شجار يمكن أن يشب من احتكاك النوايا.

من مقعدي أخذت أتربص بالمسافرين الباحثين عن مقاعدهم: وجوه متوترة، منبسطة، مستبشرة، مكفهرة، حزينة، متلهفة، ضائعة.

كل وجه له بطاقة عبور ربما يحملها في عينيه، أو في شفتيه، أو حاجبيه، أو كلماته، فالكلمات تتخمر في أرواحنا، وتخرج من أفواهنا حاملة رائحة نوايانا... تحمل رائحتها حتى لو تدثرت بكل أردية الكذب.

النساء وحدهن اللاتي يجعلنك تفيق من كهوفك المظلمة، تفيق بحثاً عن وسيلة تغرقك في قاع العيون، وحين تخلع كل مشاعرك لتلقي بنفسك في تلك البحيرات المضطربة يشحن بوجوههن لترتطم بخيبة أمل صلدة، إن عيونهن مرايا لا تحمل الأبعاد الحقيقية، هي تمنحك شيئاً تقريبياً ربما يخونك الحدس في قراءة المسافة الفاصلة ما بين النظرة والقراءة لها.

كانت تسير منقبة يتقدمها طفل صغير، تلاقت عيوننا، كانت نظراتي عارية تهتك الداخل وتجتث شيئاً خاصاً جداً، ارتبكت حين تلاقت عيوننا، فقدمت الطفل الصغير، وأفلتت من يديها حركة زهد من تحديقي.

ارتبكتُ ووجدت نفسي أعبث بجيب المقعد الأمامي وعلى عجل تناولت مجلة بلقيس وأخذت أتصفح محتوياتها، معظم المجلات التابعة لخطوط الطيران تنتهج أسلوباً دعائياً بليداً يشير إلى خواء وخلو ذهنية المشرفين عليها للأساليب

الدعائية في فن الترويج لخدمات خطوطهم، هذه المجلات تستهلك الورق الصقيل في كتابات ممجوجة ومدح مبتذل، ، تذكرت مجلة أهلاً وسهلاً وصفحات من الكلام السائل لتدشين الخدمات الراقية للخطوط السعودية.

- الإعلام المحلي تحوّل إلى بوق لم يعد أحد يسمعه.

قلت جملتي تلك حين كان الحديث جارياً بين هيئة التحرير - في لقائها الصباحي - للبحث عن الأساليب والأشكال الصحفية لتدشين حملة عن الانتماء الوطني..

استسخف رئيس التحرير بجملتي، وغمزني أمام هيئة التحرير:

- تبحث عن نضال في زمن انتهى فيه كل شيء.

مواقفي العدائية لموجات النفاق تجعلني محل تندر كثير من الزملاء، وكلما عنَّ لأحد منهم بث روح الدعابة توجه بنكاته صوبي.

يصفني الزملاء - داخل الجريدة - بأني أحمل أفكاراً لا أجيد تنفيذها، وفي كل اجتماع لهيئة التحرير أخرج بهذا النعت من غير أن أعزز مواقفي بعمل صحفي يحرر سمعتي مما يتقولون به.

في أعماقي أستخف بهم كثيراً، وأمقت تدليسهم، فهم أشبه بالآنية المثقوبة التي تحمل ماء مسكوباً، ألم يتنبهوا لهذا التضليل الذي يمارسونه كل هذا الوقت؟ بتدليسهم وضعوا تلالاً من الأكاذيب، في كل زاوية تركوا تلالا ونصبوا على كل تل صنماً من تراب.

الصحافة المغلقة كالبيارة المغلقة تماماً، سيأتي يوم ويسيل ماؤها في الطرقات عندها سيكتشف الناس مقدار العفن الذي كانت تطبق عليه تلك الأغطية الحديد.

استدعاني رئيس التحرير:

- وصلتني دعوة لحضور مؤتمر الديمقراطيات الناشئة باليمن وليست لدي النية للحضور وقد رشّحتك للذهاب فهل أنت مستعد؟

(كنت أجلس أمامه مرتبكاً، وخاطر يخترق مخيلتي: هل عرف برحلاتي المتوالية لليمن أم شاع افتناني بالترحال إلى مدن اليمن؟).

- هذه هي الدعوة وأرى أنها فرصة لأن تحضر مثل هذه المناسبات.

(هل أخبره أني تلقيت أخباراً بأنها في صنعاء، وأني كنت عازماً على السفر إلى هناك).

تطلع في وجهي مستنكراً:

- لماذا تجلس صامتاً، ترغب في الذهاب أم لا؟

- بلى أرغب.

- إذاً استعد، سيكون السفر يوم الأحد القادم.

- سأوافيك بتقارير صحفية لم يسبق أن كُتبت.

نظر في وجهي مبتسماً (لا أحب ابتسامته على أي حال، فابتسامته تفيض بالسخرية في كل حين):

- لا أريد منك فعل أي شيء، المطلوب منك الحضور فقط!

[٨]

مضى وقت غير قصير ونحن نقتعد مقاعدنا من غير أن تتحرك الطائرة من مكانها، صوت المذيع الداخلي يتردد في فضاء الكبينة:

- السادة المسافرون، سنقلع بعد دقائق، الرجاء البقاء في مقاعدكم.

تلفتُّ حولي، انتابني إحساس عكر طمأنينتي، فسارعت بالهرب منه.

- هل أستطيع رؤية الطائرات الحربية من هنا.

مددت عنقي لنافذة يفصلني عنها مقعد واحد، فلم ألمح سوى جزء من المطار اصطفت على مدارجه طائرات للخطوط التونسية، والمصرية، والهولندية.

- هل يتنازل الزعماء عن مقاعدهم بالسهولة التي تحدث عنها إبراهيم المؤذن؟!

أشك في ذلك، استلطفت مقالة للدكتور عبدالرحمن العلوني حين وصف الشباب العائدين من أفغانستان بالاندفاع والحدة أكثر مما يجب، وتسفيههم للمجتمعات، مشككين في سلامة النية لكل من أراد أن يتحرك للأمام، الكل فاسق ما لم يكن داخل الإطار الذي رسموه. كانت مقالة تحذر من انجراف هؤلاء في طريق حماسي من غير أن يتنبهوا أن للحياة طرقاً عديدة وكلها توصل للحقيقة...

هذه المقالة لم تنشر في الصحيفة بل ظلت حبيسة أدراج كاتبها، يخرجها من حبسها ويقدمها لكل من توثقت صلته به.. وكنت ممن أطلعني عليها، رفع نظارته من على وجهه:

- تصدق أن هذه المقالة كتبتها قبل تفجيرات الخبر ونيروبي، كنت أتوقع أن هؤلاء الشباب سيكونون وحوشاً تجول داخل المدن.

- لماذا لم تنشرها في حينها؟

- ألم تتعرف على هذا المتخلف الذي يدعى: سعد خلاف؟!

أحد المسافرين المتأخرين ارتطمت حقيبته بركبتي، دفعها دفعاً قوياً وأخذ يتسلل للمقعد الداخلي المجاور لمقعدي، كان فكه يطحن لباناً استعصى عليه، فأشبعه مضغاً محكماً، توقعت أن يعتذر بعد أن يستوي في جلسته، لم يفعل ذلك، انشغل بالبحث عن ربطة الحزام المقابلة لمزلاج..

- ألم تتهيأ هذه الرحلة للإقلاع؟

لمحت ثلاثة شباب ذوي لحى كثة، يسيرون نحو مؤخرة الطائرة، نظر إليهم الذي يجاورني بعدائية، وقفزت منه جملة مبتسرة:

- هؤلاء سبب تأخرنا..

لم يكن ينتظر أن أسكت على جملته، فأردف:

- عندما وقفنا في محطة متجهين لصعود الطائرة، كنت أسير في وسطهم، فجمعت جوازاتنا وتم إيقافنا وتفتيشنا تفتيشاً شخصياً.

أعدت النظر، ثلاثة شباب تجري الصحة في أوردتهم وثمة سكينة تلوح على وجوههم من غير افتعال، هل يحملون العدائية نفسها التي يروجها أولئك المارقون في الغلو..

لم أحمل ضغينة لأحد ممن ذهب لأفغانستان كما حملتها لإبراهيم المؤذن، كانت كلماتها قادرة على تقليب تربة هذا القلب، وتأجيج جمراته الخابية، أحرقتني تلك الجملة التي قذفتها على مسامعي ليلة جئتها متربصا بفتنتها، وراغباً في الاستزادة من نهل رضابها، أحرقتني وجعلتني أغرس بذرة كره لإبراهيم، سبق وأن ذكرته مرات عدة، وفي كل مرة تبخسني حقي بقصد، أو غير قصد، ترديد اسمه بين الحين والآخر جعلني أفكر جديا في الذهاب إلى أفغانستان، محسن المصلوحي أول من فتح لي الباب لهذه الفكرة، وقبل أن أوغر صدري بهذه النية تراجعت:

- كيف أذهب إلى هناك، وهي هنا؟!

حين خرجنا من المسجد، كان محسن المصلوحي يتلفت بحثاً عني:

- أنت معنا أليس كذلك؟

- نعم معكم.

تجمع عشرة رجال على مقربة من بوابة المسجد معظمهم شبان تسكن السكينة ملامحهم (كهؤلاء الشبان الذين يقتعدون المقاعد الخلفية في هذه الرحلة)، عرفني بهم محسن المصلوحي على عجل، اخترقنا أزقة الحي بعجلة، الغريب أننا كنا صامتين، كل منا يمضغ ذاته بمفرده، ونسينا جميعاً إفشاء السلام في تلك الدروب المنحنية، نتقاطر كنمل همه الأول الإمساك برائحة من يتقدمه، وتخيل ما سنجد في نهاية هذا النفق، توقف انثيال خواطرنا مع طرق باب الشيخ منور.

[٩]

ارتفع تهليل من داخل كبينة الطائرة، كان الشبان الثلاثة يمررون أصواتهم في صوت جماعي، لم أستوعب تماماً سبباً جوهرياً لمثل هذا التسبيح والاستغفار العلني، فنحن لسنا على حج أو نمرّ بميقات، نحن سنخرج الآن من فضاء الأماكن المقدسة.. لم يجرؤ أحد من الملاحين على إسكاتهم أو مطالبتهم بإخفاض أصواتهم، صاح أصغرهم:

- النصرة لله ورسوله!

إبراهيم المؤذن شاب تجاوز السادسة والعشرين من عمره بشهور، حلو التقاسيم، قيل: إنه أحد أمراء المجاهدين العرب في أفغانستان. نشأ نشأة متقلبة فيها كثير من التساهل، وشب سائحاً في عواصم كان يواري التصريح بها عندما يتحدث عن وجهته، وفي أحد الشهور القائظة، توقّع الجميع أنه في إحدى تلك العواصم لذلك كانت مفاجأة لهم وهم يرونه يقف خلف ميكروفون الجامع ناصحاً لهم من عذاب القبر، وصوته يختلط بنشيج متقطع لا يميز السامع ما يقول في أحيان كثيرة.

في ذلك اليوم ابتهج كبار رجال الحي بهداية إبراهيم، وعضد الإمام همته فأكرمه بإمامة المصلين في صلاة العشاء من كل ليلة خميس، فقلب صوته الشجي تلال الرمال الرابضة في الصدور، ولم يكن المصلون يتذمرون من إطالته للتلاوة بل تنادى كثيرون منهم لصلاة العشاء من كل خميس في هذا المسجد تحديداً، وتحوّل الجامع إلى غرفة ضيقة تغص بالمصلّين حين أوكلت إليه مهمة قيام صلاة التراويح، وكلما أمعن في الإطالة تقاربت القلوب،

وتناشجت الأصوات. كان شيء ما يسقط مع دموع المصلّين، وكأن السماء تقترب لتحملهم بعيداً عن الدنيا.

حين دلفنا لبيت الشيخ منور رأيته يتوسط المجلس، ويتلو أسماء السيدات اللاتي خرجن في مظاهرة مطالبات بالسماح لهن بقيادة السيارة، ومع ذكر كل اسم من أسمائهن تتطاير اللعنات والاتهامات من أفواه المحيطين به، بدأت تلك الاتهامات بمنح أزواجهن صفة العلمانيين، والحداثيين، والفاسقين، وانتهت بالقول: إن هؤلاء النسوة لم يخرجن إلا بأمر من جهات فاسدة الخلق والدين.

وثبت إبراهيم المؤذن مقولته الأخيرة بتكرارها بصيغ مختلفة:

– لو لم تكن الجهة فاسدة لما تركن هؤلاء النسوة يعدن لبيوتهن، لو لم تكن فاسدة لما حبس، وزج بمشايخ أجلاء داخل السجون ليس لهم من تهمة سوى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والوقوف ضد هذا الفساد.

فحولق الحضور رافعين أكفهم بالدعاء الذي قطعه تسلل أبي يوسف البكري (موظف بالخطوط السعودية) ناشراً خبراً تناقلوه همساً:

– كل الطائرات مجهزة لنقلهم لخارج البلد.

لم يجرؤ أحد على السؤال: نقل من؟

كان الحديث يدور مشفراً تهتز له الرؤوس، وتتبادل النظرات الحائرة حيرتها.

من خلف ظهر إبراهيم المؤذن بزغ وجه مألوف، أخذت أترقبه، مَنْ هذا؟ ياسين.. ايه والله إنه ياسين، متى عاد من أمريكا؟ كيف لهذا الشقي أن يتحول إلى ملتزم، ناهيك أن يكون مجاهداً؟ سبحان مقلب القلوب، لم يربكني شيء في تلك الجلسة سوى رؤية ياسين، كان معمماً، وقد ملأت وجهه لحية كثة، يجلس خاشعاً خلف إبراهيم المؤذن من غير أن يتنبه لأحد من حوله، يتمتم بأدعية خفيضة ويسمر عينيه في الأرض، بحثت عن عينيه، لكنه كان هائماً في ملكوت آخر، وكان سؤال حاد يثقب رأسي:

– متى عاد من أمريكا؟

في انشغالي بالبحث عن عينيّ ياسين لم أدرك بعض الجمل التي تلفظ بها إبراهيم المؤذن ليظهر امتعاضه، وتتعكر ملامحه الوديعة، ليرفع نبرة صوته:

– وقعنا في خطأ تكتيكي حيث كان علينا أن نجاهد هنا، وليس في أفغانستان. لو أننا بقينا هنا لما سمحنا للكفار أن تطأ أقدامهم تراب الأرض المقدسة.

أخذته الحمية فتمادى في صب اللوم على المتقاعسين عن نصرة الدين، وصاح منفعلاً:

– هل تعلمون أن النساء الأمريكيات في كل بقعة من بلاد الحرمين. هم يريدون إخراج نسائنا من بيوتهن ليتبرجن تبرج الجاهلية؟

كان الكل معلقاً بصره في وجهه، الكل يسرق شيئاً من تلك الملامح العذبة، والكل منجرفا مع كلماته الحماسية يتوقّدون شوقاً لفعل أي شيء:

– هل تعلمون أيضاً أن أمريكا تريد إخراجنا من ديننا بدعوات الفاسقين، والفاسقات من أبناء أمتنا، فمظهر دعوتهم بريء كأن يقال: الدخول في العصر، التحديث، المواكبة كل هذه المفردات ستجعل شبابنا ينسل من دينه كما تنسل الشعرة من العجين.

استدار بوجهه في المجلس مستشعراً وقع كلماته عليهم، وأخرج كلماته برقة:

– لم يعلق أحدكم على ما قاله البكري! خائفون، نعم خائفون!

مرر بصره في وجوه الحضور:

– أنا سأقول لكم: أنتم الوحيدون الذين ستكتوون بهذه الحرب.

استجاب لفورته مد ياسين عنقه من خلف إبراهيم المؤذن مؤازراً إياه وبصوت جهوري عقب:

– نعم يا أميرنا، سيكون حظنا كحظ أهل الكويت يخرج أمراؤها، ويبقى الشعب للقتال.

ما زالت جملته ترن في قاع مسامعنا تاركة صداها يتمدد، تحرج البعض من

مقولته، وهمّوا بالانسحاب. كانت عيونهم تتلفت بحثاً عن طمأنينة معرفة الوجوه الحاضرة فينقلب البصر خاشعاً من تلك الجموع الغفيرة التي تكدست داخل صالون كبير ضاق بهم، وبتزاحمهم، تبرأ البعض من مقولات ياسين ليتناهى لمسامعهم صوت الصبية الصائحين من الخارج:

- جاء جنود صدام.

فتقافز الجميع صوب الشارع فزعين من تلك الصيحات.

بينما كنت منهمكاً في الوصول إلى ياسين..

[١٠]

لأول مرة يحدث هذا التجمع على سلعة غريبة سُمح للمتجمهرين بتجريبها مقابل عشرة ريالات.

كانت التقارير التي تصل إلى مسامع الناس أن الحرب القادمة ستنفث أبخرة كيماوية، وأمراضاً جرثومية وستتسلّل الى المخادع، وتخطف الأرواح، وستبقي أجساداً كالخشب المسندة، تلك التقارير كانت كفيلة بجعل الناس يوقدون شعلة الخوف في أفئدتهم، ويتنادون بالوصايا، ويفتحون مسامعهم على مصراعيها لأي نصيحة تقلل من توهج خشيتهم.. ربما ضاعف من وطأة هذا الرعب تلك الإرشادات التي حرفتها الألسن المتناقلة لفحواها.

فاشتغل جميع أهل الحي (رجالهم ونساؤهم وصبيانهم) بتغطية شقوق نوافذهم بلصق فاخر ادعى توفيق عبدالله انه جُلب من ألمانيا لمثل هذه الأغراض.

قلة كانت تسخر من هذه الأفعال، وتزعّم هذه المجموعة عثمان الوردي، فكلما رأى منشغلاً بسد فرجات النوافذ ضحك متهكما:

- وهل تظن أن هذا اللصق سيمنع الموت لو وقف طارقاً ببابك؟

تهكمه وسخريته أفضيا به لأن يقاد لمركز الشرطة، واستفسار مدير المركز عن نواياه المثبطة لأهل الحي، وعندما خرج لم يخبر أحداً بالتفاصيل التي حدثت له، اكتفى بأن أسر لأبي بحديث ربما نسيه في حينه، وعرج مباشرة إلى سوبر ماركت التوفيق، وتبضع لصقاً يكفي لسد شقوق عشرة بيوت متباعدة، كان يحملها ضاحكاً، ومتندراً من توفيق عبدالله:

- الكلب يسوّق للصقه بكل الصور!!

ويبدو أن هذا الإقبال على شراء اللصق جعل توفيق يفكر في وسيلة أخرى تدر عليه أموالا طائلة بدلاً من الأرباح المتواضعة التي كان يحصدها من بيع اللصق الذي أصبح شغل سكان المملكة مجتمعين فكثر منافسوه.

ويقول أهل الحي بأنه فكّر في جلب سلعة جديدة بعد أن أغرق السوق بأنواع عديدة من اللصق كسدت لظهور أنواع أخرى منافسة، حيث زاحمه بعض التجار بتوفير أنواع مغايرة لبضاعته وتوزيعها في كل مكان وبأسعار منخفضة، لهذا تهكم البعض من ادعاء توفيق بأنه يمتلك أمراً يجيز له احتكار أنواع فاخرة من اللصق.

اختراق التجار لهذا الاحتكار فوّت عليه جني أرباح طائلة كانت تهل من مخيلته.

بدأ هذا الاختراق من خلال الباعة المتجولين، ولا أحد يعرف كيف استطاع هؤلاء الباعة توفير لصق يشابه إلى حد بعيد اللصق المحتكر من قبل توفيق، فباعوه بثمن بخس، ولم يكتفوا بذلك بل اقتفوا وسيلة لإغاظته حين انتشروا بين الشوارع منادين على بضاعتهم، ومبالغين في عروضهم بإضافة خدمة سد شروخ النوافذ والأبواب من غير مقابل.

لم يستسلم توفيق لهذا الاختراق المهين، فبادرهم بلعبة أخرى أكثر فاعلية في جذب المتخوفين من تلك الأبخرة الموعودة فأشاع رجاله أن اللصق وقاية احترازية لا تمنع تسلل تلك الأبخرة الكيماوية وأن الوقاية الفعلية تكمن في ارتداء خوذات صنعت لهذا الغرض، فبات الناس يترقبون ظهور تلك الخوذات.

وقبل أن تتسلل الشمس إلى مخدعها كعادتها الأبدية بزغ في الحي أربعة أشخاص يرتدون بدلات زيتية وخوذات بخراطيم معقوفة تشابه خوذات رجال الغوص، كان منظرهم مثيراً ومحفزاً للرعب، فتقافز الصبية صائحين:

- جاء جنود صدام!

انتشى مرتادو تلك البدلات بهذا النعت، وعمقوا خطواتهم داخل الحي المزدحم بالصبية اللاهين بألعابهم المختلفة، كان سيرهم بطيئاً متثاقلاً يدبون في

الأرض كرجال الفضاء، فأحاط بهم رجال الحي، وهموا بهم، وقبل أن تنهال عليهم الأيدي ظهر توفيق من أول الشارع ضاحكاً:

- اتركوهم.. اتركوهم.

تراجع الرجال مصوبين نظرهم نحو توفيق الذي أشار بإصبعه:

- هؤلاء رجالي جئت بهم ليعرضوا عليكم أحدث التقنيات لمواجهة الحرب الكيميائية القادمة.

كان الصمت يقف بينهم، ودهشة واسعة تترامى بين الوجوه، فوجد في صمتهم فرصة سانحة لعرض سلعته الجديدة، فأهاب بهم لسماع حديثه مستقطباً أكبر عدد ممكن من أهل الحي بالنداء على كل من شاهده، فأحاطوا به منتظرين ما سوف يتفوه به، فرفع صوته عالياً:

- أنتم تعلمون حرصي عليكم، وهذا الأمر لا ادعاء فيه، فأنتم أهلي وأصدقائي، كما أن الواجب الوطني يحتم عليّ حمايتكم!!

كانت كلمات كثيرة تعترك في أعماقهم إلا أنهم فضلوا الصمت على إثارة عداوته، فهو في كل حين يذكرهم بطول يده، وأن علاقاته تبدأ بالوزراء، وتنتهي بالأمراء، ولخشيتهم من الإيذاء تركوا له حرية الحديث كما يشاء:

- أنتم تعلمون أن الحرب قادمة، وأن هذا المجنون - لعنه الله في كل كتاب - سيطلق علينا صواريخ كيماوية تحصد الأرواح من غير أن تمس خشباً أو تقوض حجراً، وكنت على اتصال بقائد أمن السلامة في البلد، وعرفت منه أن اللصق ليس مضموناً لحماية الناس من الأبخرة الكيماوية، وعلمت أيضاً من أناس مقربين جداً: أن علية القوم حصلوا على مثل هذه البدلات، ولحبي فيكم توسطت لدى جهات عليا بتزويدي بعدد منها يفي بحاجة أهل الحي، يكفي لكم فقط. حين نطق بالجملة الأخيرة كان وميض الصلف يلمع من بين عينيه الدائرتين كبوصلة فقد مؤشرها تحديد الجهة الواجب الوقوف عندها.

- ..... وقد لقيت العناء لكي أوفر لكم هذه البدلات.

عادت عيناه للتحليق بين عيون المتحلقين حوله وهو يبذر قَسَماً غليظاً في مسامع الرجال:

– والله العظيم، تنقلت من وزير إلى وزير ملحّاً في طلبي، ومؤكداً لكل منهم على حدة: والله لن أكف عن مطالبتي بهذه البدل حتى لو استدعى الأمر أن أصل إلى المقام السامي.

ابتلع جملته الأخيرة على عجل، وواصل حديثه بارتباك طفيف مشيراً للرجال الثلاثة الذين بقوا داخل بدلاتهم الزيتية الثقيلة بعيون لامعة ترسل توهجها من خلف زجاج تلك الخوذات التي بدت رديئة الصنع.

– . . . جلبت هذه البدل لتختبروا جودتها، وعليكم تجريبها قبل شرائها، وأحب أن تعرفوا أنني سأبيعها لكم بربع قيمتها الحقيقية، وهذا فقط من أجلكم.

انفلت لسان جمال الغبري متسائلاً: وكيف نجربها، وليس هناك أبخرة كيماوية؟

ارتج توفيق للحظات، ولم يتعكر وجهه كالعادة بل رد مستبشراً:

– هذا سؤال ذكي أشكرك عليه!

كان يبحث عن إجابة ملائمة فتمهل مستفسراً من الرجال المحيطين به:

– من يرد على سؤال الغبري؟

قفز أبو ليمونة – من معتوهي الحي – صائحاً:

– لنحرق الحي!!

تطلع توفيق صوبه محتفلاً بإجابته:

– خذوا الحكمة من أفواه المجانين، نعم سنحرق كمية من الأوراق في برحة الحي – وليس الحي نفسه كما أراد أبو ليمونة – قال جملته ضاحكاً: ومن أراد التجريب سنعرضه لدخان تلك الأوراق فلن يشمها أبداً، والعملية كلها دخان في دخان.

صعد صوت محمود الخميري متسائلاً: وكم ثمن هذه البدلة؟

تطلع توفيق في تلك الأجساد المهلهلة التي اجتمعت حوله:

– ثمنها الحقيقي خمسة آلاف ريال، ولكني سأوفرها للراغبين بألف ريال فقط لمعرفتي بأوضاعكم المالية الصعبة.

صاح محسن أبو الخير: ألف ريال. . يعني أنا أحتاج إلى اثني عشر ألفا لي، ولأسرتي.

فلكزه المعلى: أنصحك أن تموت أنت وأسرتك فأنتم فراطة!!

تضاحك من يجاورهما، وتنبهوا لتوفيق، وهو يعرض ست بدلات هدية لموسى الفيل:

– هذه البدلات لك ولأسرتك، خذها قبل أن تنفذ الكمية.

شعر موسى الفيل بالحرج لاستثنائه من غير رجال الحارة، وسمع تهامس جاريه المخيبري والعواد:

– هذه الهدية لعيون ابنته، سمعت أنه يرغب في الكبرى.

كان صوت المخيبري عالياً ثقب أذن موسى الفيل: الكبرى آيه من الجمال، والله إنها فرس يا بخت من يمتطيها. ولكي يخرج موسى الفيل من العيون، والصدور اللتي حاصرته بظنونها افتعل الرفض:

– مثلي مثل أهل الحي يا توفيق، سأدفع لك.

كان يعلم تماماً أن هذه الجملة لن تعزز حسن الظن به، أو بتوفيق لكنه نطق بها ليسترخي قليلاً بجوار اطمئنانه المنبعث من صلابة الجملة التي تلفظ بها إلا أن توفيق هزه من كتفه:

– لن أقبل بقرش واحد، وهل يأخذ المرء ممن سيصبح صهره، وجدّ أحفاده!!

زادت هذه الجملة من ترسب قامة موسى الفيل، واستقبال سوء الظن من غير أن يجد منفذاً يهرب منه جسده المترسب، التفت توفيق إلى المتجمهرين حوله محرضاً: من يريد تجربة الخوذة أولاً.

تدافع الكثيرون لهذا الغرض، فأوقفهم وقام بصفهم صفوفاً متوازية بعد أن استعاد وجهه المعتاد فشتم كل من لم يمتثل لأوامره:

– يا همج التزموا النظام، وليخرج كل منكم عشرة ريالات مقابل تجريب البدلة.

لم يستطع أحد ممن صف في تلك الطوابير التخلي عن دوره، فدس كل

منهم يده في جيبه، وأخرج عشرة ريالات، وأخذ ينتظر دوره بينما تبرع الكثيرون بإحضار الأوراق المتناثرة في الشوارع، وإلقائها في تلك النار الخابية ليرتفع الدخان الى عنان السماء، ولتنكس تلك الأجساد رؤوسها المثقلة بالخوذات لاستنشاق الدخان من منبته، غير متحسرة على دفع عشرة ريالات مقابل الاطمئنان على حياتها!!

فيما اختصر الميسورون كل هذا العنت بدفع ألف ريال لكل فرد من أسرهم مقابل الحصول على البدلة كاملة.

وتجاسر بعضهم، وفاتحه برغبته في المشاركة بتمويل مشروعه للحصول على أكبر عدد من الخوذات، والبدلات الواقية لحماية أبناء الحي، مقابل أرباح يسيرة، فلم يرد مطلبهم بل شكرهم مرحباً بهم بصوتٍ عالٍ:

- هكذا يكون الواجب الوطني!!

هذه الصرخة تخاذلت حين سمعت أبواق سيارات الدفاع المدني تقترب من داخل الحي، مما حمل توفيق على إنهاء عملية التجريب قبل أن تمتد خراطيم مياه سيارات الإطفاء.

[١١]

مع المكوث الطويل على أرضية المطار حلّت الرطوبة داخل الطائرة التي ستقلنا لصنعاء، طائرة لا تعزز حسن الظن في تحليق آمن، يغور الخوف عميقاً في صدري، فأثبت جسدي في المقعد مبعداً وساوس كوارث الطائرات، وأتلو قصار السور بخشوع تام.

في أيامي الأولى كان الشيخ يستنكر تلاوتي للقرآن:

- عليك بحفظ قواعد التجويد فأنت تبتلع الحروف كعجوز أدرد.

ولم تفلح عصاه في ثنيي عن هذه القراءة الركيكة، ولم أستطع خلال السنوات التالية إجادة إخراج الحروف من مخارجها، فظللت ألوك الحروف كما يلاك اللبان السيئ.

كنت أبحث عن أي شيء يقربني منها، فأناولها مقرر النصوص لتستمع لحفظي، وأبدأ بترديد تلك المقطوعات اليابسة، فتضحك بملء فمها، وعندما تستشعر غضبي تلوذ بالتوبة، والتهوين من شأن كل الحروف ما دمت قادراً على نطق كلمة حبيبتي بوضوح، ونعومة.

- هل تعرف الآن أني مقبل إليها؟

خرجت للبحث عنها على امتداد خارطة اليمن، فعلى مدار عشر سنوات، وأنا ألاحق أخبارها، وكلما سمعت خبراً، جبت المدن بحثاً عنها، قصصت أثرها في معظم المدن: اللحية، الحديدة، زبيد، تعز، أب، المخا، بيت الفقيه، وفي كل مرة أعود حاملاً شوقاً ملتهباً، وأثراً غاب هناك.

في تلك المدن لم أدع جبلاً، أو وادياً، أو منحدراً، أو غوراً، أو بحراً إلا

وقفت سائلاً عنها، متخذاً في كل سؤال حكاية تربطني بصلة دم بها. أفعل ذلك خشية أن يفور غضب أولئك الرجال المتحزّمين بأسلحتهم على الدوام.

هذه المرة لن أعود بدونها سأتربص بجميع نساء القرى، والمدن، والنجوع، سأقف على عيونهن، وتباعد خطواتهن، وعلى أردافهن، وعلى أسمائهن، وسأعرفها من بين جميع النساء اللاتي يقفن خلف الأبواب، أو يتنزهن بين الحقول، أو يسدلن الحجب عليهن، سأعرفها وإن غدت شمطاء تخشبت مفاصلها، ونامت الحياة في أعطافها، سأعرفها كما كنت أفعل حينما أذهب الى مدرستها، وأخرجها من بين مئات الطالبات.

في تلك الأيام تعودت على تضييع الحصة الأخيرة من يومي الدراسي، لأتسمر أمام بوابة مدرستها من غير اكتراث بما سوف أجنيه من درجات متدنية ربما تقذف بي خارج أسوار الجامعة، لم أكن مكترثا بشيء سوى متابعة شذاها أينما حلت.

أقف مباشرة أمام بوابة مدرستها التي تفوج أفواجاً غفيرة من الفتيات، لكل منهن حلم يوسوس في مخيلتها، ويتغلغل في تلك الأعطاف اللدنة، وكل منهن تخبئ فتنتها داخل تلك العباءة المغلقة المنافذ، ثمة أرواح تسكن هذه المساكن الليلية تبث من عتمتها ضياء حائراً هنا وهناك، أعرف بعضهن من خلال الأنامل، أو تثنيات ممشاهن، أو من خلال عتمة تلك الحجب، أعرفهن من: رفة عين، أو اهتزازة قد، أو بسمة، أو تكشيرة تفضحها انفعالات اليدين والقدمين. كلهن بتن يعرفنني، يعبرنني، ويلقين على قامتي سخرياتهن اللاذعة، أو يتحرشن بإثارة شغب عابر: ها هو العاشق!

عيناي تتفحصان كل فتاة تبرز من تلك البوابة، وفي كل مرة أستلّها من بين جميع الفتيات أستلّها بعودها الناحل، واهتزازاته المرتبكة المتغنجة، تشير لصويحباتها اتجاهي، فتتراقص على شفاههن ضحكات تغيبها غطوتهن المتخاذلة (في بعض الأحيان)، فتتركهن على حالهن، وتقفز الرصيف الفاصل بين انتظاري، وبوابة مدرستها، فأتبعها ساتراً عجزيها المذهلين كي لا تحط عليها عيون العابرين، والمتنظرين، والسفلة.

وطوال ممشانا أظل أغذي فتنتها بورد الكلمات، وأسقي مسامعها بقصائد هوى حفظتها من دواوين عشاق برعوا في نسج عشقهم بكلمات يانعة، وكلما عَبَرَنا شخص، ورغب الغرق في حور عينيها أنبري لقصف رغبته بوجه كالح، وكلمات قرضتها الغيرة فغدت غباراً يسفي الوجوه، وتغري المواجهين بتغير طرق ممشاهم قبل أن أتحول إلى جرو لا يكف عن النباح، ساعتها تبدي تبرّماً مصطنعاً:

- ألا يعجبك أن يكتشف الآخرون جمال حبيبتك؟

يتعكر دمي منبهاً إياها أنني لا أحبذ مثل هذا المزاح، وكلما اقتربنا من حيّنا نهرتني:

- ابتعد الآن وإلا حدثت كارثة!

فآخذ بالابتعاد راكضاً، وسالكاً اتجاهاً مغايراً يمكنني من أن أقف لها بجوار بيتهم، وحين تصل تجدني كشجرة دنت بثمارها حد الانكسار فترمي أمامي ضحكتها، وتدس جسدها داخل منزلها بعد تلويحة من يدها تتفنن في اختلاسها.

من خلالها كانت الحياة أكثر اتساعا وبهجة، لم أتصور أن يشاركني فيها أحد، أحسست به يتسلل لقطف أحلامنا، لم يكن تسللاً حذراً، أعلن عن رغبته أمام الجميع، ومنح أباها بدلات واقية من غير مقابل، هكذا أعلن رغبته قبل أن يتسلل لجوف بيتهم طالباً يدها.. أيام قلائل وانتشر خبر خطبة توفيق عبدالله لوفاء.. لم أدرِ ماذا أصنع؟ كنت أبكي فقط!

[١٢]

توفيق عبدالله.

أجزم أن جميع أهل الحي يكرهونه، وأنا أكرهه كرها مضاعفاً.

يستغل الماضغون لسيرته تغيبه، فيصمونه بالسافل. وهذا أهون وصف يمكن أن يقال فيه.

في جلسة جمعت كبار رجال الحارة، تذكروا خراطيم سيارات الإطفاء الممتدة من كل زاوية من زوايا الحي لإطفاء تلك الأوراق التي شارك الجميع في إشعالها، كان المنظر مضحكاً، ومربكاً، وحين وقف الملازم على تلك الحرائق الصغيرة المقذوفة هنا وهناك، لم يتمالك نفسه، وشتم الجميع الذين ظلوا صامتين من غير أن يخبروه عن المتسبب في تلك الحرائق.. في تلك الجلسة قال ناصر الدربي:

- كان علينا أن نسلم ذلك الخنيث قبل أن يتلاعب بأموالنا.

ذاكرة الحارة نسقت أرشيفاً متكاملاً عنه، فبمجرد أن يذكر تنهال كل الشتائم، والأقاويل التي قيلت عنه، ولكل واحد من أبناء الحي شتيمة ألصقها به، يقولون:

جاء من نسل وضيع، حاملاً صفات حقيرة، تمخضت خلاصتها من تزاوج أعراق منبوذة، كانت مهمتها الحياتية تفريخ السقط، والسفلة، وانتهت هذه الذرية بأبيه الذي اقترن بامرأة من أصول عريقة، ولوضاعته اتهمها في شرفها حين رأى استدارة بطنها بعد أن غاب عنها لأشهر، وحين أخرجت تلك البذرة الفاسدة من بطنها، كانت تقف بتهمتها، وصك طلاق بائن، فعملت ليل نهار لتوفر لابنها حياة كريمة، وتبتعد به عن سلالته الحقيرة.

هذه البذرة لم تبتعد كثيراً عن جذورها، فمنذ طفولته قيل: إنه كان يستخدم أعضاءه التناسلية للهو، وحمل مراراً من تحت الصبيان الذين تعلموا بلوغ الحلم عن طريق إليته.

منذ تلك الطفولة كانت خطواته تشير إلى أنه سيسير في الطرق المعوجة فعُرف بالملاط والسارق، والسفيه، والمؤذي.. كان يقف في الشوارع عارياً لمن أراد تأديبه من الجيران يقف رافعاً ملابسه ويبين عضوه صائحاً:

- سيكون نصيبكم هذا.

ولم يكن أحد يستطيع اللحاق به لتأديبه على بذاءة لسانه، فقد امتاز بالرشاقة، والعدو كقط بري، يقفز على الجدران بمهارة فائقة، ويلوذ بالأماكن المرتفعة مكرراً فعلته الشنيعة تلك، وصائحاً:

- ليس لكم عندي من نصيب إلا هذا.

يئس أهل الحي من استصلاحه، ووفروا على أنفسهم جهد تأديبه، أو الرفق به، فمن وجده قريباً منه لطمه، ونهره من البقاء، أو الجلوس بجوار بيته، فتدرب على أن يكون بعيداً عن كل بيت تمكن صاحبه من لطمه، هذه العادة أبقته متنقلاً بين الأسطح، وفي الخرابات، وفي الشوارع المتفرعة والتي تمكن قدميه من العدو السريع.

أجهد أمه كثيراً، ففي الليالي المظلمة الباردة تجوب الشوارع والأزقة بحثاً عنه، فتجده مقذوفاً على أسطح المنازل، أو متورطاً في تهريب دجاجة، أو بيضة مسروقة، أو متعرشاً ظهر أحد الصبية كهر متدرب على قبض فريسته، أو نائماً تحت جسد أنهك عظامه الطرية.

في طفولته لم يتورع عن فعل أي شيء فعاش طفولة قذرة.

وقف في شبابه بلا أي شهادة، أو مهنة، أو خلق، فخرج يبحث عن جمع المال بطريقته التي تعلمها من طفولته تلك.

تغيب عن الحي لسنوات قليلة، تمرغ خلالها بتربة الطفرة الاقتصادية التي اجتاحت البلد، وعاد يحمل لساناً حريرياً، يعرف كيف يغزل الكلمات الفخمة، ويلف فريسته في كفن تشتهيه كل الجثث!!

غالبا تأتي سيرته مقرونة بأسماء الحيوانات المبتذلة حين يتمّ الحديث عنه.

- الكلب ترك كل شيء، وامتهن بيع اللصق.

- هناك من يتاجر بالأحزان.

- يقولون: إنه توجه بخطاب لوزارة الداخلية راغباً في احتكار الخوذات الواقية.

هذا ما يفعله الأوغاد حين تضيق بالناس الفرج.

أشاع في الحي اتصاله بعلية القوم، وقام بعدة أمور عمقت اليقين لدى الناس في مقدرته على فعل أي شيء، فخلق في قلوب الكثيرين مهابة، وخوفاً من بطشه لذلك كان يهادنه البعض، ويتزلف منه البعض الآخر، ويشتمه الكثيرون كلما ابتعد عنهم.

فحين يسلّمهم ظهره تستل العيون غمزها، ولمزها لتريح أعماقها من كلمات تحجرت على أفواهها، ولم تطاوعها الألسن في إخراجها على مسامعه.

كان غزير الادعاء، وآخر ادعاءاته أنه على صلة عميقة بأحد الأمراء الكبار، ولم نكن قادرين على تكذيبه، فأمواله السائبة في كل مكان تمكنه من عقد علاقات متينة بكل رجال المجتمع.

تغلغل مقت أهل الحي لتوفيق، فلم يكتف بتاريخه الحافل بالخسة والدناءة، فأضاف صفات مستحدثة اكتسبها من تلونات رجال المال، واللصوص.. كان يسير متعالياً بخصال دنيئة، ومشينة، متناسياً أن عرقه الوضيع لن يتسامق به، ولو جمع أموال الأرض (هذه جملة لسراج الينبعاوي بعد صياغتها)، ومما زاد في احتقاره اقتياده لأمه، وإيداعها إحدى دور الرعاية وأغلق على سيرتها هناك متنكراً لأم كانت في حاجة إليه ليدفع عنها تداعي سقف أيامها الأخيرة.

خسته ودناءته تدخلانه إلى الطرق القذرة من غير أن يتبلل خجلاً، ومن تلك الدروب يحصد الأموال ليغسل تلبد عرقه الوضيع ويقيم لنفسه صرحاً من المجد المصطنع.

لم يعرفه أحد حين عاد من رحلة جمع المال، اخترق الحي بسيارة فارهة لم نعتد على وجود مثلها في حيّنا، وتعمّد إيقافها في جوف الحي معترضاً الشريان

الصغير الذي لا يسمح بمرور سيارتين في آن واحد، فتكتلت السيارات الباحثة عن مخرج، وتهيّب الجميع من لعن صاحب السيارة المعترضة الشارع.

يومها تقول البعض أن أميراً دخل الحي بحثا عن الفقراء، وزادت هذه الشائعة مع تكتل الناس حول تلك السيارة انتظاراً لظهور الأمير الذي دخل إلى الحي من غير أن يصحبه الاخويا.. اختار هذه الوسيلة ليعلن عن عودته.

بهت الباحثون عن الهبات لظهوره، وصاحت أم يوسف العويني:

- هذا سارق الدجاج!

وتراجعت عن ذمه متوددة إليه حين رأته يدس المئات في أيدي من استبشر بظهوره.

غزلت حول ثرائه كثير من الحكايات، فأسندوا أسباب غناه لعمليات مشبوهة، ومع انتهاء حرب تحرير الكويت، كان شخصاً مختلفاً يصنّف من علية القوم، ففي سنوات معدودات جمع أموالاً ضخمة - ضاعت من غير أن يقدر على استردادها - تسللت حكايته عبر المجالس، ولم يكن يستطيع المتحدثون أن يذكروا اسم شريكه فقد أشيع أن مجرد ذكر اسم ذلك الشريك يكلف المرء مضغ حسراته داخل السجن لمدة خمسة عشر عاماً كحد أدنى.

هذا الرعب جعلهم يكتفون بلعنه منفرداً، واستعاضوا الله فيما ذهب من أموالهم بسبب تلك الخوذات رديئة الصنع.

في الأيام التاليات لاقتياده إلى سجن بريمان إذا ذكر قيل بصوت محموم:

- كان وضيعاً اكتسب صفات الرذيلة، ولم يبق قطرة حياء في وجهه.

حين تناهى إلى مسامعي اقتياده للسجن شعرت بفرحة غامرة، فهو الوحيد الذي جعلني ألوك حزني، وأفكر جدياً في ترك مقاعد الدراسة، والبحث عن عمل قبل أن يخطفها، وهي في اكتمال نضوجها.

في موعدنا الليلي كانت أكثر جزعاً وحرصاً على إبعادي.

تصنعت الحزن، ذلك الحزن الذي تكشفه العيون حين يكون بارداً، وفاتراً معاً، كانت عيناها تبرقان بريقاً صافياً:

- أخيراً وافق أبي على خطبة توفيق.

تركتها حيث كانت، وعدت أبحث عن أي شيء أمزقه، وأمزق معه كمدي.

هاتفتني مبدية انزعاجاً من تصرفي غير اللائق معها، فصرخت بها محتداً:

- أمن أجل خوذات لك ولإخوتك توافقي على أن تتحولي إلى سلعة، وسلعة لمن؟ لمثل هذا الخنزير.

كان صوتها غاضباً، وعنيفاً: ومن قال لك إني قبلت؟ فقط أردت أن أخبرك.

- لا أريد أن أسمع مثل هذه الأخبار.

- لا ترفع صوتك فأنا لا أحب مثل هذا التصرف.

وأغلقت سماعة الهاتف، لينتشر بعدها نبأ خطبة توفيق لها، وقبل أن تكتمل الثلاثة الأشهر كان خبر اقتياد توفيق للسجن تفوح داخل كل منازل حيّنا، قلة أظهروا أسفهم ليس لاقتياده، وإنما على تلك المبالغ التي أخذها منهم مقابل الحصول على الأقنعة الواقية من الكيماوي، تلك الأقنعة التي أشيع - فيما بعد - أنها صنعت في المدينة الصناعية بجنوب جدة، وأنها دبغت من جلد تصنع منه الأحذية الرديئة!!

ولم تكن تلك الشائعة تستفز أحداً بقدر ما كانت تستفز الجميلي الذي ظل لأيام طوال يستنشق الهواء عبر خوذة دبغت بجلد تصنع منه الأحذية الرديئة، كان أول من اشتراها من توفيق وفاخر بها أعيان الحي.

نما هذا الاستفزاز إلى صبية الحارة فتربصوا به وكلما رأوه صاحوا:

- شمام الأحذية الرديئة.

[١٣]

لا تزال الطائرة جاثمة، والضيق يتمدد برتابة، فيتلهى الركاب بالنظر بعضهم إلى بعض بوجوه محايدة، وكلما اعتلى صوت من الميكروفون الداخلي ظنوا اعتزام القبطان إنهاء مكوثهم داخل تلك الكبينة المخنوقة بأنفاسهم.

بقي الشبان الثلاثة على حالهم يرتفع صوتهم بالتكبير وينخفض، ويجابهون أي عين تحدق بهم بتحد صارم يقترب من حدود الاعتداء، ما الذي جعل الدين يتحول إلى قسوة في قلوب هؤلاء الشبان؟

كنت على وشك أن أسجل هذا السؤال في محاولة لتناوله كاستطلاع صحفي يلقي الضوء على الأسباب المؤدية إلى الغلظة، مقولات الدكتور عبدالرحمن العلوني جعلتني أتراجع:

- في هذه البلد لا تفكر أن تناقش المسائل الدينية!!

رفع يده داعياً: الله ياخذه!

أول رجل أتعرف عليه حين دخلت للجريدة كان هو، رجل مربوع حتّ الصلع فروة رأسه واقتربت سنون عمره من الارتقاء للأربعين عاماً إلا أن الهرم النفسي أوصله للدرجات الأخيرة من العمر، يسير يائساً من إصلاح أي شيء، وعرف عنه ترديد جملة:

- الله ياخذه!

جملة مواربة لا تعرف يقصد من تحديداً، فأكثر من مرة احتاج لأن يلصق دعوته بأقرب رجل يناصبه العداء.. كان أول شخص تعرفت عليه حين انضممت لهيئة التحرير، رجل جاء من القاع يحمل أسرة متفرعة من النساء الأرامل، تعلقوا جميعاً في رقبته، وكرجل يتدرب على حمل الأثقال استطاع حمل

كل أثقاله ليجد في نهاية الممر شهادة دكتوراه في الإعلام الدولي، لم يتزوج بعد، ودخله يذهب على رؤوس عائلته المتناثرة هنا وهناك، في نهاية كل شهر يخرج مظاريف ويوزع بها راتبه الشهري، ولا ينام حتى يوصل كل منها إلى صاحبه، لم يبق منه شيء إلا دعوته، بقيت جاهزة لمواجهة ما يعكر صفو مزاجه، يسير بجيب متخم بقصاصات ورقية يسجل بها كل فكرة تنير مخيلته حينما يكون منهمكاً في عمل آخر غير الكتابة، نحن زملاءه القريبين منه نلمحه يقلب جيوبه وينثر أوراقها بحثاً عن قصاصة بعينها وحين لا يجدها يشتم أخته التي تعتني بحياته:

- أكثر من مرة أخبرتها ألا تعبث بأوراقي أو تخرجها من مكانها..

ويتناول أي قصاصة أخرى ويشرع في الكتابة.. لم يكن هندامه مرتباً بما يليق بشهادته الأكاديمية ومع ذلك كان يحظى باحترام الزائرين لمقر الجريدة بما يدلقه فمه من أفكار.

تعلمت منه وضع قصاصات ورقية في جيبي، وكنت أتمنى التصاق لزمته بفمي فما إن رفعت يدي داعياً:

- الله ياخذه!

فتضاحك زملائي مطالبين أن أعيد الحركة والدعاء، وتبرع أحد الأصدقاء بإخبار الدكتور العلوني أني أسخر منه واستهزئ بحركاته، ليقف صارخاً في وجهي وإعطائي درساً في الأخلاق.

البقاء داخل كبينة طائرة كالبقاء داخل فرن تحمى ناره، بدأ الضيق يتسلل إلى صبر الركاب، وانتشرت روائح ثقيلة لبعض المسافرين فامتصت بقية الاوكسجين الهارب من أمام أنوفنا والباحث له عن ملجأ من هذا الشفط المتلهف.

تبادلت مع أحد الشبان الثلاثة النظر، ابتسمت له فبادلني الابتسام، خشيت أن تتطور تلك الابتسامة وتتحول إلى دعوة للحديث، فعدت لوضعي، وعدلت عن تسجيل فكرة غلظة الشباب، متحسساً جيبي وملامسة تلك القصاصة التي ثبت عليها رقم هاتف سجلته بعناية فائقة حتى أنني كتبته مراراً كي لا أخطئ نقله، كانت خشيتي أن أجد هذا الهاتف خارج الخدمة، أو تغير

مالكه، ولكي لا أقع في المحظور فقد رجوت عيسى شرف أن يزودني برقم إضافي فاستعصم بنفيه من أن يكون لديه رقم آخر مبدياً استياء من إلحاحي.

كانت المضيفة تبحث بعينيها عمن نسي ربط حزامه، تثبت في مقعدي مشيراً لها بيدي أنني أنهيت المهمة التي تبحث عمن أهملها، لا أدري لماذا صدرت مني جملة ركيكة - هكذا أحسست - فتوقفت أمامي مستفسرة، عيناها الزرقاوان كعيني قطة مستوحشة تحدقان، وتحددان موقع فريستها، متمهلة افتراسها لتتلذذ برؤيتها تلوذ بآخر الدنيا هرباً من مخالبها، غرست عينيها في ملامحي، وتستنطقني بتمهل، أعدت جملتي بصوت أقل مما ينبغي، فأحنت جذعها تاركة ابتسامتها تندلق على وجهي كمخاط دودة أفرزت سائلها لتشل حركة فريستها، قلّبتني بعينيها من غير أن تفكر بازدراد فريستها على عجل، تعمدت هرس ملامحي والتلذذ باستغاثاتي الواهنة، كانت لغتي متداعية تنهض فيها كلمات محدودة لا توصل إلى معنى، وكلما هربت منها تابعتني مصرة على إنهاك خجلي، نسيت كل الكلمات التي حفظتها عبر رحلاتي المتوالية للخارج، واكتفيت بالشكر، أعدت الشكر مراراً حتى ظننت أنني أخطأت نطق هذه الجملة أيضاً، وقبل أن تتركني أدب بخجلي بين الكائنات المحدقة بارتباكي، زمت شفتيها ممتعضة، وانتقلت لتلبية نداء لأحد الركاب، وأنا على يقين أنها ستهرس بعينيها الزرقاوين وجه ذلك الراكب.

شعرت بالخجل من هذا الموقف، كنت أتخيل أن جميع الركاب سيتقدمون بشهادات موثقة مقرّين بعجزي المريع من التحدث بكلمتين متسقتين بهذه اللغة التي فتت كياننا، ساعتها تعلق اللعن في سقف حنجرتي، ولعنت كل العرب الذين يضعون عمالة لا تجيد اللغة العربية في مقابل جمهور لا يجيد حتى لغته، تتفنن صحفنا في التباكي على موات لغة الضاد بين الناشئة والكبار على السواء، كيف تحيي لغة وهي ثانوية، ثانوية في الحياة العملية:... في المستشفيات، والبنوك، والفنادق، والشركات، والمطارات، وعلى ألسنة العذبات من المضيفات.

وقف مدرس اللغة العربية يتندر عليّ حينما أعربت كلمة (مسرعاً) في جملة: «أقبل الخادم مسرعاً» على أنها مفعول به، صاح مغتاظاً:

- سيأتي زمن لا نفرق بين الفاعل والفعل ولن يكون بعيدا إذا كنت تدرس في الصف الثالث ثانوي ولا تعرف إعراب (مسرعاً).

كان أستاذ اللغة الإنكليزية يوصينا بحفظ المفردات، ومقررات التعبير، ونستقبل الامتحانات بحفظ الصفحات، وأرقامها، وشكل المفردة حين يصيبنا الإعياء من نطقها جيداً، كنا نحفظ كل شيء، معادلات الرياضيات، تركيبة عنصر كيميائي، قانوناً فيزيائياً، كل مقرر هو مادة للحفظ، مادة لاستعادة البلادة الأولى، بلادة أولئك الذين يتابعون الشعراء في بلاط الحكام، والخلفاء، وحفظ قصيدة مدح كاذبة قيلت في سلطان لا يفهم من الدنيا سوى الاستمتاع بسماع التبجيل، والتأليه، نحن حفاظ نعيد سرد أبيات قصيدة واحدة مكررة عبر الزمن، نرددها، ولا نعرف من معانيها شيئاً، مهمتنا الإمساك بجرسها الموسيقي، وعندما يختل نستلهم قدرتنا البصرية، فنحفظ أشكال الكلمات، وأمام ورقة الامتحان نتخبط في كتابة ما حفظنا.

- إن الحفظ تدمير لقدرة العقل البشري.

سمعت هذه الجملة متأخراً جداً، ويبدو أن لا أحد من المدرسين العتاة قد سمع بها بعد، أجالس أبني يومياً لكي يحفظ مقطوعة أناشيد رديئة، أنصت إليه، وهو يحصي صادرات أنغولا، وأين تقع السلفادور؟ وكيف انتصر صلاح الدين في معركة حطين؟ وما هي شروط الصلاة؟ وكيفية الاستنجاء والاستجمار، وما هو قانون الطفو؟ وكلما حاولت أن أدربه على الفهم هلت دموعه سخية:

- الأساتذة يطالبونني بالحفظ، أعدك عندما أكبر سأحرص على الفهم!

كلنا أجلنا هذا الفهم، والآن لا نجد في ذاكرتنا سوى (قفا نبكي. . . . .) وما زال الفهم مؤجلاً!!

انكسر ظهري في انحناءة طويلة على المقررات المدرسية، انحناءة بدأت من المرحلة الابتدائية ولم يستو ظهري إلى الآن. . كل شيء نحفظه، نحفظه اليوم وننساه في الغد.

ناولتها مقرر النصوص لأثبت لها أني طالب مجد يحفظ كل المقررات من

غير تلكؤ، كانت ضحكتها تفر من بين شفتيها كلما استمعت لحفظي، وتلتقط شهقتها:

- أنت تزدرد الكلمات كعجوز أدرد.

فأنسى كل المقرر وأبحث عن فرصة للثم خدها، فتموج دلالاً وتعدني بأكثر من ذلك حين يغلق علينا بيتنا.

سرب من الأمنيات نجمعها في شباكنا يومياً، ونطير أحلاماً على أغصان المستقبل وكلما عجلنا بالسير اكتشفنا أننا ما زلنا نقعد في أعمارنا الصغيرة.

أصبت بالهلع مع جريان سائل مخاطي على فخذي، كنت ملتصقاً بها وشيء يفور ويفور ويتدفق حمما جارية، ارتعشت كثيراً وذويت وأنا أجذبها نحوي بقوة. . بعدها أحسست أن الحياة لها أبواب أخرى تمنحها للكبار. . لا أذكر أنني احتلمت، أذكر هذه اللحظة التي زفتني إلى هذا العالم!

لم يكن الحلم هو الدليل الوحيد لبلوغنا عتبة الرجولة، فاللغة الإنكليزية بوابة أخرى تثبت أننا شببنا عن الطوق، فكنا نلصق الجمل، ونعوج ألسنتنا برطن لكلمات نسرقها من كتاب (تعلم الإنكليزية في خمسة أيام) نحفظ الجمل الطويلة، ونرددها بتكسير واضح، هذا الرطن المعوج يؤسس في أذهان ذوينا أننا متعلمون، وأخذنا نصيباً وافراً من تلك اللغة المستعصية على ألسنتهم، دسست في أذنها أول جملة حفظتها:

- أي لاف يو.

وظللت أنتظر ردها طويلاً قبل أن أعرف أنني كنت ألقي على مسامعها بكلمات لا تعرف منها سوى أنني أتفاخر عليها بتقدمي الدراسي.

وشاءت أن ترد عليَّ بالجملة نفسها فاقتنيت لها كتاباً مماثلاً، وخططنا أن نتبادل عشقنا على مسامع ذوينا من غير أن يتنبهوا لهذا الوليد الذي شب بين قلبين جمعتهما رقصة عشق رطيب.

كنت أظن أنني سأتمكن من تعلم الإنكليزية في خمسة أيام كما نص عليه عنوان ذلك الكتاب الرديء، وها هو العمر يمضي من غير أن أجيد هذه اللغة اللعينة.

اجتزت مادة اللغة الإنكليزية في اختبار الثانوية العامة بمعجزة استجلبتها أمي بالدعوات في صلواتها التي خصصت جزءاً من دعواتها أن أوفق في الامتحانات.

خرجنا بلغة عربية متداعية، ولغة إنكليزية كسيحة تقف على أفواهنا، تطل برأسها وتعود لأعماقنا من غير أن يستبينها أحد.

لم يجدِ وقوفنا أمام السفارة الأمريكية - من الصغر - في اجتياز هذه اللغة الثقيلة المملة.

ففي العصارى نتقاطر سيراً لمنطقة الرويس حيث تقع السفارة الأمريكية، في طفولتنا الأولى كنا نقصد بوابة السفارة، وبيوت الأمريكيين المتناثرة هناك لجلب الألعاب التي تقذف خارج السور، وحين تقدم بنا العمر قليلاً ساءت نوايانا فقد أشاع أبناء الحي - الذين سبقونا عمراً - أن هناك فتيات أمريكيات يسبحن بالمايو فتظهر أردافهن، وصدورهن، ولا يحجبن أجسادهن من العيون المتلصصة على كنوزهن الأنثوية.

كانت هذه الشائعة كفيلة بجعلنا نتقاطر في مغامرات شبه يومية، نحوم حول أسوار ملاعب، ومسابح للجاليات الأمريكية، كانت الأسوار خفيضة، فنرتقي الأشجار المطلة على تلك الملاعب والمسابح، ونظل كالعصافير لا تنبس من شفاهنا أي كلمة، فقط تسيل رغباتنا، وتتوتر أعضاؤنا، ومع الغروب نهبط مسرعين لإفراغ تلك الرغبات في دورات المياه بعد استرجاع محموم لكل تفاصيل الأجساد البضة التي لم تكن تعلم أن نسوراً صغيرة جارحة خطفت شيئاً من أجسادهن، وعادت إلى أوكارها ليُسكتوا بها نهم مراهقة مغلقة.

ياسين استطاع النفاذ إلى ذلك العالم وغدا يزودنا بالمجلات والصور الفاضحة التي توقف ينابيع التخيلات وتوقفنا على وجوه وأجساد محددة.

في إحدى المرات بينما كنا نحتضن أفرع الشجر المتعالي، ونستتر بأغصانها الكثيفة، ونتبادل منظاراً - اشتركنا جميعاً في شرائه - انزلقت قدم ياسين أثناء محاولته التقاط المنظار من يدي فهوى صارخا، لنتقافز رافين بأجنحتنا بعيداً عن تلك العيون التي استفاقت لتلك الصيحة، خبأتنا الأزقة الملتوية، ومن هناك

أخذنا نتابع ياسين المتوجع من أثر سقوطه المفاجئ، حثثناه مراراً أن ينهض قبل أن تصل إليه أقدام الأمريكيين اللذين ظهرا لاستطلاع منبت تلك الصرخة، كانت كرش أحدهما لا تزال تقطر بالماء، وكان الآخر يحمل مضرب التنس، ويحدق في عيوننا المتلصصة بهما من بعد، حملاه، واختبآ داخل تلك الأسوار المنخفضة.

لم نستطع إخبار العم جابر بما حدث لابنه، فاتفقنا على الصمت، عدنا يومها مبكرين، فقد كنا نصل إلى منازلنا مع اقتراب صلاة العشاء، حيث يستغرق منا السير وقتاً نقطع فيه عدة حَوارٍ حتى نصل إلى حارتنا التي تستند على الجهة الجنوبية، انهمكنا في اللعب، وكأن شيئاً لم يكن، ومع انقضاء صلاة العشاء تنافر كثير من الصبية لداخل بيوتهم، وكعادتي دخلت إلى بيتنا متسللاً كي لا تلحظ أمي تلك القذارة التي تحملها قدماي الحافيتان، ودلفت متسللاً لدورة المياه ساكباً إبريقاً من الماء الصافي محاولا التخلص من الأتربة العالقة في كاحلي، طُرق باب بيتنا فاستجابت والدتي لطرقاته على عجل، ومع انفراج الباب سمعت صوت العم جابر سائلاً:

- ياسين عندكم؟

توارت خلف الباب، محتمية بالستارة التي تعزل البيت عن الشارع لو انفرج الباب نتيجة أي فعل:

- مرحباً أبا ياسين كيف حال سعاد؟

- بخير.. قولي لياسين أن يعود للبيت.

- ياسين ليس هنا.

- أين ذهب هذا العفريت؟ لقد بحثت عنه عند كل الجيران فلم أعثر عليه..

- حتى ابني لم يعد ربما لا يزالان يلعبان في الحواري المجاورة.

- شكراً لك، ولو جاءكم أخبريه أنني أبحث عنه.

عندما رأتني خبطت على كتفي: منذ متى وأنت هنا؟

- للتو عدت.

– وهل كان معك ياسين؟

ارتبكت قليلاً وبدا تلعثمي: أخذه الأمريكان.

– أي أمريكان؟!

– أمريكان الرويس.

ولم تنتظر تتبع تلعثمي حيث جذبتني من ذراعي، واختطفت عباءتها، وهي تحاول إصلاح غطوتها على بوابة البيت: لا يجلب المصائب للكبار سوى الصغار!

وقبل أن نصل إلى بيت ياسين – وهي تجرجرني مرة، وتدفعني أمامها مرة أخرى –، كان ذلك الرجل الأمريكي الذي تقاطر الماء من كرشه، يسند ياسين – الذي بالغ في عرجته –، وابتسامته المشتتة لا تعرف كم الشتائم التي انطلقت باتجاهه، وزع بصره بين المجتمعين حوله بارتباك، وأخذ يثرثر بكلمات صدها العم جابر وهو يهز ابنه هزاً:

– ما الذي حدث؟

توجع ياسين ولم يرد على أبيه فهمّ بخطف ترقوة الأمريكي لولا تدخل حسين داود – الذي كان يفاخر أبوه بنجابته، ويردد: ابني حسين حصل على علم لم يحصل عليه أحد في هذا الحي الكبير.

هذه المفاخرة يتذكرها أبي كلما أبديت تقاعساً في دروسي، يعضّ على شفتيه: لو أنك امتلكت ذهنية حسين يا كلب – تبرع حسين داود بالترجمة بينهما، وكانت تظهر على ملامح ذلك الرجل الأمريكي عسراً في فهم ما يقذفه لسان حسين من لغة متداعية، ويتابع صراخ العم جابر باهتمام:

– قل لهذا الأبرص: والله لو حدث شيء لابني سيكون كرشه ثمناً لعظمة صغيرة في رجل ياسين.

كانت قدم ياسين ملفوفة بضماد لأول مرة نشاهده، وبيده شتلة ورد نسقت بإتقان، سحبها العم جابر من يده، وقذفها خلف ظهر الرجل الأمريكي الذي مضى ممتعضاً من تلك المعاملة.

بينما ظل المجتمعون يصغون لزوائد حسين داود في ترجمته البائسة.

بعد تلك الحادثة، غدا ياسين لا يتسلق الأشجار المطلة على مسبح الأمريكان، فمع العصارى يتأنق، ويلبس بنطالاً وقميصاً – وكان في هذه الملابس موضع مسبة من قبلنا – ويسرح شعره، ويمضي مباشرة إلى البوابة الرئيسية، يطرقها، فتفتح له، فيدس جسده في الداخل من غير أن يحتاج إلى ذلك المنظار الذي اشتركنا جميعاً في شرائه من أجل رؤية تلك الأجساد البضة عن كثب... مشكلتنا كانت في تبادل ذلك المنظار حيث يمكث في يد كل منا وقتاً يفوت على الآخر مشاهدة حركة جسد لا تعاد.

[١٤]

- حرام عليك.. حرام.

صرخة عالية كسرت تلك الرتابة، وانطلقت المضيفة راكضة في ممر الطائرة متخلية عن لياقتها وأناقتها.. قال البعض إنها كانت تبكي!

كان صوت أحد الشبان الثلاثة عالياً متوتراً:

- لن تقلع الطائرة ما دامت هذه معنا!

ارتج الركاب وتداخلت الأصوات والتوقعات:

- الطائرة مخطوفة!!

- اكتشف الملاحون عطلاً بالطائرة!!

وتبرع أحد الركاب بتوحيد التوقعات:

- لن تقلع الطائرة سمعت أن بها عطلاً!

فتهيجت الأنفس رعباً، وهمّ الكثيرون بمغادرة الكبينة، فتسابق الملاحون لنفي هذا الخبر، والتأكيد أن التوقف ليس له علاقة بعطب، وإنما انتظاراً لاستكمال ركوب بعض المسافرين الذين حملوا عفشهم، ولم يصعدوا للطائرة.

أبواب الطائرة مغلقة، ولا شيء يشير إلى أن ثمة ركاباً قادمون، والمقاعد تضيق بالركاب، ما الذي يحدث؟ كان في حركة المضيفين شيء مرتبك، يتحركون صوب الشبان الثلاثة ويعودون، ولغط أولئك الفتية يتمدد في آذان المسافرين، وحاول الملاحون إبقاءه في حدوده الدنيا، كان صياح الشبان الثلاثة عنيفاً ومحتداً، أحدهم انفعل صائحاً:

- لن تقلع هذه الطائرة وهذه الكافرة معنا.

حاول أحد الملاحين تهدئته:

- ليست كافرة كما تعتقد فهي مسلمة!

صاح في وجهه:

- وهل تعرف الإسلام حتى تشهد لها!

انسحب الملاح من أمامه.. ونهض بعض المسافرين معلنين عن انسحابهم من الرحلة، ومبدين رغبتهم في العودة إلى منازلهم، هذه المحاولة وقف لها كابتن الطائرة بنفسه عندما وقف بين المسافرين محاولاً ألا يثبت عينيه على الشبان الثلاثة:

- عليكم العودة لمقاعدكم، فسوف نقلع بعد لحظات.

- لن نقلع وهذه السافرة المتبرجة معنا!

عمّق كابتن الطائرة النظر صوب الشبان الثلاثة محاولاً استرضاءهم بابتسامة واسعة:

- اهدأ، سننفذ رغبتك ولن تقلع معنا المضيفة، سننزلها الآن ونستبدلها بملاح!

- جزاك الله خيراً.

لم يكمل جملته إلا وأبواب الطائرة قد فتحت، وصعد رجال أمن المطار في حركة سريعة ومباغتة محيطين بالشبان الثلاثة واصطحبوهم لخارج الطائرة.. انقاد الشبان الثلاثة لهذا الأمر من غير أن تخرج من أفواههم كلمة واحدة.

فانتشر صوت المضيف في فضاء كبينة الركاب موضحاً - من غير اعتذار لكل هذا التأخر - طرق اتباع وسائل السلامة، تدلى قناع الأوكسجين بين يدي الملاح، وكمم به وجهه الضامر كحبة تين يابسة، وعيناه تتابعان انتشار الجنود داخل أرضية المطار محاولاً تزامن حركة يديه مع الصوت المنبثق من الميكروفون الداخلي المعلن عن وسائل السلامة الواجب اتباعها عند حدوث خطر طارئ.

قناع الأوكسجين وسيلة جيدة لإبقاء الحياة في أوردتنا، لو أن الحميلي استخدم مثل هذه الأقنعة لما أصيب بحساسية الأنف التي بقيت معه منذ تحرير

الكويت إلى الآن.. مجرد رؤيته تذكّرنا بخوذات توفيق عبدالله، وتراكض الصبية وهم يتربصون به صائحين:

- شمام رائحة الأحذية الرديئة.

فلا يجد سوى حجارة الشارع ليحصبهم بها، شاتماً أصلابهم، وذاك الماء الذي أخصب بذرة توفيق عبدالله.

الطفولة هي ورقة التقويم الوحيدة التي نقطعها من غير أن نقرأ ما كتب خلفها. من هناك يتشكل مستقبلنا، ومن ذلك المخزن الصغير يخرج العظماء والقواد والقوادون أيضاً.

أخذت محركات الطائرة في الدوران متدحرجة على المدرج محدثة صوتاً مدوياً يثير الفزع، ويهش الطمأنينة الرابضة في الصدور بعيداً عن موقعها.

تطلعت إلى أجزاء من بيوت جدة الهاربة عن عيني، فألمحها كعروس اختطفها البحر من بين أنياب صحراء هالكة.

هذه المدينة المسترخية على الشاطئ، وكأنها فتاة تنتظر عاشقاً ما، يخرج عليها من بين زبد الموج المتخاذل، ويقودها إلى فرحتها الأولى.

تجالس البحر من الصباح الباكر حتى إذا مد الليل خطواته بشوارعها سحبت رداءها بخفر العذارى الخجلات، وعادت تتبختر صوب مرقدها تاركة فتنتها يتطبب بها عشاق الليل.

كبرت تلك الصغيرة في وقت قصير.

يومياً تكبر على نبوءة كارثة أن تتقوض تحت أحلامها العذاب، جروحها المتسعة تؤسس توقعاً لن يخيب، ستغرق هذه المدينة ذات يوم في أوحالها لقد خطفها اللصوص والسماسرة، ودجنوها كما يشتهون، سخروها لأن تحمل ما لا تطيق، فغدت مدينة مسلوبة الإرادة، والذكريات.

في جلسة سمر وعلى مقربة من شاطئ شرم أبحر تأفف عثمان الوردي من سماعه لأنباء التحالف الدولي ضد العراق، وحين لامه أبي نفض مؤخرته، ونهض من مجلسة صائحاً:

- إن من يصنع الحياة هم أولئك الأوغاد القذرون، أوغاد يأتون من فجاج الأرض يتكاثرون كخلايا النمل، ويعكرون حياتنا.

- أنت متحامل كثيراً.

- وأنت مغفل أكثر من اللازم.

- أنا مغفل يا أبو طارق!

- نعم، حين تصدق هذه اللعبة الحقيرة التي يمارسها بوش وأعوانه.

- ولكن بلدنا...

- بلدنا لن تفلت منهم، ستجدهم يقفون في إشارات المرور، وسأذكرك.

مضى وبقية من كلام ما زال عالقاً في فمه، ترجاه أبي البقاء، فسحب نفسه، وصعد مركبته نافثاً جملته الأخيرة قبل أن يمضي:

- سيأكلون لحمنا الآن، وغداً سيسحقون عظامنا، تذكّر هذا!!

عثمان الوردي لهب يخشى عليه أبي أن يطفأ في الزنازين سيئة التهوئة، بعد أن قيد لمسألة عابرة لاستخفافه بأهل الحي، وتحرزهم من صدام، وصواريخه، لازمه أبي ليمنع تدفق سخطه، وفي كل مرة يسارع أبي بوضع يده على فم الوردي كي لا تخرج كلماته المشككة في نوايا الدولة من الاستعانة بالأمريكيين، موصياً إياه بالصمت، وفي كل مرة يفعل أبي ذلك يفور عثمان الوردي كقدرٍ لم يحكم إغلاقها، وينعت أبي بنعته الشهير:

- أنت لا تجيد شيئاً في هذه الدنيا سوى المناكحة.

يقف الوردي على النقيض تماماً من يوسف الجنيني، وإذا التقيا تحوّل أبي إلى مفصل مهمته أن يبعدهما من الالتصاق بعضهما ببعض.

الجنيني يرحب بالأمريكيين، ويتمنى لو أن بوش يضع علم أمريكا على العالم العربي، ظل لسنوات يبحث عن أي جنسية أوروبية، وعندما لاحت بوادر الحرب، وقدم الأمريكيون، كان يحضر مجلس أبي منشرحاً:

- غداً سيكون لنا شأن عندما نُمنح الجنسية الأمريكية!!

فيطفر الدم في شرايين عثمان الوردي لاعناً الدنيا التي أنجبت فسيلة الجنيني.

سمعت أبي يحدث أمي عن صديقه عثمان الوردي:

- ستكون نهايته أسفل الأرض.

كان صوتها حارقاً، وهي ترد عليه:

- لا تماشيه فهذه النوعية من البشر تحرق من يجاورها!

الوردي، يجوب شوارع جدة كأغنية قديمة لا يعرف مذهبها إلا من أجاد الغناء، وغدا صوتة نشازاً في كل مكان يذهب إليه، يعود لأبي محبطاً:

- فسدت الذمم يا صاحبي...

يقولها كلما سار في دروب مدينته التي روى شوارعها بقدميه، لا يمل من ترديد حدودها، وكيف انفجرت فجأة لتصل شظاياها إلى الجبال.

وكلما جاءت سيرة جدة ضرب على فخذه متحسراً:

- مصيبتنا أن أهل الرياض أحبوا جدة، فغيروا لهجتها، وحجبوا بحرها.

باهتزازاتها المترنحة تحلق الطائرة باتجاه شرم أبحر حيث تخاطفت البيوت الفخمة زرقة البحر وحاصرته بعيداً عن أعين الناس، غدا البحر ملكاً للأثرياء واللصوص والسماسرة، ولم يعد البحر متنفساً، أو باباً يلج منه الصيادون حاملين مواويلهم وأمانيهم في استجلاب رزق شحيح.

ها هي جدة تهرب نحو الجبال، كنت أتطلع إليها من عل أسترق النظر إلى فتنتها، وأجول بعيني عبر نافذتي الصغيرة بحثاً عن أيدٍ صغيرة تلوح من هناك.

[١٥]

لم تستو الطائرة في ارتفاعها بعد، فما زالت تطعن الفضاء، وتخترق الطبقات الدنيا مشتتة هواء ثقيلاً هبط على صدر المدينة فأرهقها، نهض راكب مبدياً رغبته للوصول إلى دورة المياه، فجذبه أحد الملاحين من كمّ ثوبه، وأعاده لمقعده زاجراً:

- أيها المتخلّف ليس الآن وقت نهوض!

خضع الراكب لجذب الملاح واقتعد مقعده، وبقيت عيناه ترجوان الملاح السماح له بزيارة دورة المياه، ويتراجع رجاؤه حيال تلك الملامح المكفهرة.

ما زالت الطائرة تهتز فتشعرك بأن كل ما فيها قابل للسقوط ليتنابني رعب ماحق:

- كيف لو سقطت هذه الطائرة الآن؟

ما زلنا على مقربة من مطار جدة، سيكون منظرنا مغرياً بالمتابعة، سنكون مادة دسمة لحديث أهل مدينة جدة.. كما حدث لطائرة الجيش النيجيري التي تحوّل سقوطها إلى حكايات ظلت غارقة في أفواهنا لزمن ليس بالقصير، فحين تهيأت الجيوش المشاركة في حرب تحرير الكويت للعودة، كان نصيب إحدى الطائرات النيجيرية الاحتراق بعد تحليقها بزمن قصير فحاولت الوصول إلى المطار بجناح واحد بعد أن أكلت النيران جزءاً كبيراً منها، وفي محاولتها تلك تساقطت أوصال جثث الجيش النيجيري كأرغفة محترقة، تساقطت: أقدام، أيدٍ، رؤوس، ضلوع، تناثرت بين أحياء جدة قبل أن تصل إلى المطار الجنوبي، يومها سقطت رجل جندي نجيري على حيّنا، وجدها المربعي على سطح منزله بعد ثلاثة أيام من تلك الحادثة، وتحيّرنا جيعاً، هل نعيدها للسفارة النيجيرية أم

نتكفل بدفنها كما يحلو لنا؟ واستقر رأي المربعي الذي وصف نفسه أنه الأحق بالتصرف بتلك القدم المتفحمة كونها سقطت على سطح منزله، استقر رأيه على دفنها بنفسه، فبالغ في غسلها، ولفها بأربطة شاش وأفتى لنفسه بوجوب الصلاة عليها وحين لم يوافقه أحد على ذلك، أقام صلاة منفردة، وحملها بين ذراعيه، وسار نحو مقبرة الأسد، وعندما منعه حارس المقبرة لم يجد غضاضة من رميها في برميل زبالة، وعاد إلى منزله قرير العين!

ما زالت الطائرة تهتز اهتزازاً قوياً، وما زال سؤالي يحوم في مخيلتي:

- كيف لو سقطت هذه الطائرة الآن؟

لن تعرف أنني أحد ركابها، ستعلن الجرائد نبأ سقوط الطائرة من غير اكتراث، وسأكون أحد الضحايا المجهولين الذين تتشابه أسماؤهم هنا وهناك، كم من شخص يحمل اسماً كاسمي في هذا الكون؟ ربما تعرف بمقتلي بعد سنة، أو سنتين، هل تراها ستبكيني؟ وترتدي فستاناً أسود اللون كشارة لحزنها، وتعكف على تقليب رسائلنا القديمة، وتسترجع حكاياتنا مع الأغنيات، والمفردات التي كنا نرددها، هل ستفعل كل هذا لو سمعت بمسقط هذه الطائرة المهترئة؟

هل ستتذكر وجهي، وتقليبها له حينما تسنح فرصة ما لأن أكون بجوارها في غرفتها الصغيرة، هل ستتذكر تلك الشامة التي عبثت بها كثيراً، وفي أوقات مختلفة؟

آه ما الذي يحملني على كل هذا التلهف على امرأة تقف بيني وبينها عشر سنين عجاف، لم تزرع أرضها بسؤال، هي تعرف كل الطرق المؤدية إلي، تعرف كل شيء فلماذا لم تحاول إيصال ما انقطع، أتراها فعلت، حملت حمام البريد لهفتها، وشوقها، فتساقط الحمام في أجواء الحرب، اختنق في أجواء ملوثة بالكراهية، رف ورف وحينما اختنق هبط بجناحيه ليلفظ أنفاسه وحيداً، ويدفن رسائل عشق في صحراء هالكة، أو على قمة جبل متعال، أو استجاب لجرف موج بحر تعوّد على ابتلاع الحياة. هل فعلت ذلك؟

في السنة الأولى من رحيلها سمعت صوتها، وانقطع الهاتف، وظللت

ملازماً للبيت لمدة شهرين علها تفعلها مرة أخرى، وكلما رن الهاتف ركضت فلا أجدها.

هل صدئ قلبها بالنسيان، فالقلوب تتحجر حين لا تجد دمها، تتحول إلى قبضة تبحث عن وجه تلكمه، أو تتشقق، تتصدع، وتنعق في خرائبها وحيدة.

كل الذين عادوا - من اليمن - بعد الرحيل الجماعي سألتهم عن أبيها فلم أجد إجابة تطري قلقي، بعضهم يقول إنهم استوطنوا الحديدة، ويقول البعض: عادوا إلى زبيد، ويقول آخرون: ذهبت للعاصمة. لا أحد يدل على طريق يؤدي إليها.

في سنوات لاحقة، وبينما كنت أجول مدن تهامة بحثاً عنها، قال أحد الذين سألتهم عن أبيها:

- كثيرون ممن عادوا ماتوا، وربما من تسأل عنه لقي حتفه!!

الخاطر الوحيد الذي أمحوه كلما عبر مخيلتي موتها.. تتشابك هواجسي لتصل إلى مرحلة الكفر حين أتخيلها امرأة لا تموت.

آخر خيط تمسكت به، جاء على لسان عيسى شرف العائد إلى جدة بعد غياب دام ست سنوات، كان ضمن أولئك الذين انجرفوا مع سيلان الخطابات الإعلامية، كوّم أولاده في سيارة متهالكة، وغادر جدة من غير أن يودع جيرانه، أو ينتظر حقوقه الموزعة على زبائن متجره الصغير.

حين وقف على رأسي هالني منظره: رجل خرج من محرقة بنصف استواء، نحل، شحب، حت الصلع فروة رأسه، وكسر نابه، واتسخت أسنانه بفعل التقوت اليومي - كما أخبرني لاحقاً - بعد لحظات من تأملي لهيئته، وجدته في حضني يجهش بالبكاء، ربتُّ على كتفه فيما كان يحاول كفكفة دموعه:

- ما الذي فعله بك الزمن يا عيسى؟

- كما ترى.

- كان حالك جيداً هنا.

- نعم كان جيداً، قدمت من شهر لاستعادة وضعي السابق.

- أشك في ذلك يا عيسى!

- أرغب في مساعدتك.

- أبشر.

- أبحث عن كفيل لتحسين وضعي، وأطمع في أن تسدي لي خدمة.

- . . . . . .

- هل تكفلني؟

اصطحبته تلك الليلة إلى مقهى الأبراج، ومضينا في حديث طويل، كنت راغباً في جذبه للحديث عنها (تربطه صلة قرابة بعيدة بأمها)، فاستعصى بأحاديث كنت أقطعها بالتأفف، طوح بي في معاناته التي وجدها تنتظره في قريته الصغيرة، كان يسرد تفاصيل صغيرة عن أعمامه، وإخوته الذين تنكروا لكل صنائعه التي قدمها لهم حين كان يمدهم بالمال، والهدايا في كل الأوقات، أقسم إنه عندما عاد لم يجد من يمد لأطفاله بكسرة خبز، تركوه في العراء يبحث في مخيم الإيواء عن خيمة له ولأبنائه، عاش في ذلك المخيم لشهور من غير أن يقدر على تدبير عمل يقي أطفاله حمى داهمتهم على حين غرة، أو أن يسكت بطون الأصحاء منهم، تنهد بعمق:

- وطن الإنسان هو المكان الذي يمدّك بالرزق الشريف.

عاد للعن أقاربه مجتمعين، متشاكياً بأن أحد أبنائه يقترب من الموت برئة معلولة أنهكها الالتهاب الرئوي ولم تعد قادرة على استجلاب الهواء، يقول إنه هرب من أنينه المتواصل..

وكلما أمعن في الشكوى تبرمت منه، ومن أحاديثه الطويلة التي لا تنقطع.

تجاسرت وقطعت شكواه:

- ما هي أخبار موسى الفيل؟

شعر بالضيق، وومضت عيناه بوميض باهت (ربما كان يحيك امتعاضاً من استهتاري بعذاباته، والقفز عليها بالسؤال عن رجل يعرف تماماً أني لا أسأل عنه مباشرة) ظل صامتاً، أعدت عليه سؤالي، فدفع إجابته بتململ:

- لا أعرف.

استدرك جوابه الجاف بافتعال الاستذكار:

- تذكرت، التقيت بالجحش، وأخبرني بأن صلته وثيقة بهم.

- الجحش!!

- نعم الجحش، حصل على الجنسية اليمنية!

وصمت للحظات، وفتر فمه عن ابتسامة تكشف عن دهشته:

- تصور، الجحش لا يعاني من أي ضائقة مالية هناك، بل على العكس يتمتع ببعض الثراء فقد التقيت به في أحد المطاعم الشعبية في صنعاء، وأعطاني رقم هاتفه، لكنني - لا أخفيك - ارتبت من تصرفاته فقد كان يتصرف كقواد محترف.

أطلق ضحكة جافة:

- يقول إنه أنشأ صندوق صداقة للمغتربين العائدين من السعودية! أليس هذا غريباً؟

وضرب فخذه متحسراً: هذا الهندي القذر أفضل منا في بلدنا!

- وما هي صلة الجحش بموسى الفيل؟

- أثناء جلوسنا تطرقنا للعائدين فذكره مع من ذكر، وقال إنه على صلة بأهله.

اتسعت حدقتاي:

- أي صلة، هل تزوج بوفاء؟

- لا أدري، هكذا قال، ومنحني رقمه، ووعدني أن يقف لمساعدتي، ولارتيابي من تصرفاته لم أتصل به.

- أما زال الرقم معك؟

- أظن ذلك.

فتح محفظته، وبعد تقليب قصير أخرج ورقة مطوية، وناولني إياها:

- هذا هو رقمه.

تناولته منه، وأعدت كتابته مراراً كي لا أخطئ نقله.

تطلعت إلى عيون الركاب، عيون منطفئة، ومتوهجة، وخابية، بينما كانت أفكار سخيفة تتزاحم في مخيلتي: هل أسأل أحدهم عن أبيها؟

امتدت يدي إلى جيبي الأسفل، وأخرجت تلك القصاصة التي دونت بها رقم الجحش مستذكراً ما قاله عيسى شرف:

– عندما تصل صنعاء أطلب هذا الرقم، وستجد الجحش في طريقك، هو يعرف طريقها.

أحس أنه ابتذل نفسه فاستدرك:

– هو يعرف طريق موسى الفيل.

[١٦]

الجحش.

أذكره تماماً حارسنا الليلي الذي أمطرنا بالتهديدات مراراً.

ذلك الدابة الذي ظننت أنه عاد لبلاده، ها هو يلاقيني في آخر الطريق كعادته سابقاً، يقف كبوابة عليّ أن أدلف منها لملاقاتها.

طَرقٌ خفيض على بابنا، ومع انفراج الباب لمحت أخاها الصغير يقف متصلباً بين فرجتي الباب المفتوح، هل جاء يحمل رسالة منها؟ فحين تتسع رقعة الخصام بيننا لا نجد سوى براءة طفولته، وتحويله إلى ساعي بريد يلحم تباعدنا، خطف وجهي بنظرة سريعة، وتلجلج بكلمات مقتضبة:

– أبي يرغب في رؤيتك لأمر ضروري!

ارتبكت، وندهت مني جملة قلقة:

– يريدني أنا؟

هز رأسه نافياً مشيراً باتجاه أبي، واختفى كما ظهر.

استنكفت أمي هذه الدعوة، وحرنت: إذا كان يريدك فلماذا لم يأت هو؟

(ما الذي يحمله على استدعاء أبي في مثل هذا المساء؟ هل افتضح أمري ولم يشأ أن يعيدها جذعة؟).

تسرب الليل في شعاب المدى منذ خمس ساعات، أو تزيد قليلاً، مخترقاً وعورة ظلمة لم تمهدها تلك الأنوار المبثوثة من أعمدة الإنارة المنتشرة على مسافات متباعدة، فتمكن الليل من الاختباء في جوف الشوارع الضيقة متخلياً عن بقع داكنة من أطرافه، لتغسلها الشوارع المنيرة كما تشتهي.

لم يكن من عادة أبيها البقاء مستيقظاً إلى مثل هذا الوقت، فغالباً يكون في هذه الساعة معلقاً شخيره على حلم ذابل، وكلما ضمر رواه بأمنيات تسكبها مخيلته في كل حين.

ذات ليلة روت لي وفاء جزءاً من حلمه، وضحكت حتى خشيت أن تنبه ضحكتها جزءاً من الليل فيستيقظ أهلها، وأنا أجلس بين عينيها.

أحلامه تبدأ من رؤيته لابنتيه وهما تجران فستاني عرسهما على أحد أمراء البلد، وحين تحقره زوجته يبلوغ حلمه عنان السماء يتراجع بسرعة مذهلة لرتبة أثرياء البلد، وأعيانها،، وفي كل يوم يقيم حفل عرس تتغير مصاهرته وفق ما يتناقله الناس من أخبار عن وجهاء البلد، وفي كل ليلة ينصّب اثنين منهم (الأغنى فالأغنى) كعريسين لابنتيه.

متعب هو بأحلام اليقظة، يثرثر بها على مسامع أسرته من غير حياء، قال لهما ذات يوم:

- ستجدان رجلين يفاخران بهذا الجمال!

ومع انفراط أحلامه يتحسر عميقاً:

لو أن لي أموالاً فلن أصاهر إلا أمراء هذه البلاد!

يقفز كالملدوغ صوب سحارة عتيقة، ويخرج منها أوراقاً مصفرة يبعثرها:

- لتأتي واحدة منكما، وتقرأ هذه الحجج.

يقلب أوراقاً مصفرة بين يديه:

- هذه ما تبقى من حجج أراضي الأجداد لقد أحرقها أعمامكم في رهنيات لا تعود، وكلما سددت رهنية أرض استعدت حجتها.

ويفلت تنهدات حارّة:

- لقد فرطوا بأكثر منها في حالة ضعفهم.

عندما روت لي وفاء أحلام أبيها، استغربتُ من مقولته التي يكررها:

الناس كلها تتآمر علينا لكننا سنجد وسيلة تحملنا لأن نكون بغية المتزلفين.

أبدت وفاء حزناً عليه، وهي تسرد بعضاً من تصرفاته التي يمارسها في

أوقات كثيرة، تمنت لو أنها تستطيع تهدئة أحزانه، وخشيت أن يكون دخل إلى مجاهل الأمراض النفسية بتلك الأفعال، وعندما حاولت تخفيف الأمر، روت أن أفعاله تتطور نحو الأسوأ:

ليلياً يبسط أحلامه، يتخيل أنه عاد بمال وفير، ودخل قريته منتشياً، وفرق الهدايا، ونثر الأموال على الرؤوس، واسترجع مزارع أجداده التي تقاسمها الأقارب، والجيران، والمرابون في قروض لا تنتهي، باع أبوه حقلين ثمناً لتجهيز سفره علّه يعود، ويمد من فرحته برؤيته يقف على مشارف القرية حاملاً المال والهدايا، وكل يوم يمضي يسحبه للقاع، غرق في الغربة، ونسي أن يشعل فرحة أبيه بالعودة، والمال الوفير.

غادر تلك القرية منذ طفولة مبكرة، ونسيها هناك، نسيها في طفولته بين ذكريات باهتة، ووجوه غائمة التضاريس، وحينما أفاق، وجد أنه يقف في الخمسين من عمره، وفتاتان تلاحقان شعره المبيض بفتنة ما زال يتخير لمن يهبهما من أصحاب تلك الطلبات المتواضعة.

كنت أظنه جاء للحج، ونسي نفسه داخل الأعمال التي امتهنها على مر السنوات الطويلة التي قضاها بين جدة، والطائف، ومكة.

كنت أظن ذلك، سمعت أبي ذات ليلة ينهش في لحمه بتأفف:

- رجل كالضبع يتبول واقفاً، ولم أره محرماً قط.

فما الذي دعاه لاستدعاء أبي في مثل هذا الوقت؟

انشغلت أمي بتجهيز أبي قبل الخروج، فلم تألف منذ أن التقت به أن تتركه يغادر باب المنزل من غير أن تطمئن على قيافته، وكلما أظهر انزعاجاً من اهتمامها المبالغ فيه التصقت بكتفه - مبدية أسناناً شذ أحدها بتلبيسة ذهب تفاخر بأنها أول هدية تلقتها من أبي - مداعبة:

- من لها مثلك عليها أن تجليه كلما عرض على عين!!

هذه الجملة استبدلتها في ما بعد حينما سخرت منها جدتي:

- أترينه إبريقاً أكله الصدأ!

انشغلت بكيّ غترته البيضاء التي ألف وضعها على رأسه من غير عقال،

تاركا طرفيها يتدليان على كتفيه العريضتين، ولا يجهد نفسه بالبحث لهما عن انحناءات تقلل من انسكابهما على وجهه المشرئب بالحمرة.

خروج أبي في مثل هذا الوقت سيعيق محاولتي لمعرفة سبب استدعائه.

في الأيام الأخيرة كانت عيناها مسهدتين، وطفحت ملامحها الصغيرة بضجر لم تشأ إدخالي في سراديبه المغلقة.

إنها المرة الأولى التي تتخلى فيها عن حرصها، وتدسني داخل البيت، وترتمي بين أحضاني، انشغلت عن بكائها، ونشيجها المكتوم بتحسس صدرها، واحتوائها بين أحضاني، لعقت دموعها، مالحة هي الدموع، مالحة في الفرح والحزن!

هل استشعر أبوها تلك اللهفة، وتلك القبل التي انداحت بين مفاتن ابنته؟ هل وقف على قبلاتي المتسربلة من جذع رقبتها الطويل إلى سفوح نهديها العصيين؟

دفعتني بيديها وهي مغمضة العينين، وكلماتها تتقطر لوعة:

– يكفي.. يكفي.

ارتعش نهداها كعصفورين خنقهما طقس قارس فأخذا يبحثان عن الدفء بين أغصان بلا أوراق، وكلما توغلا، واستشعرا بخطر ابتعادهما بين تلك الأغصان، رف جناحاهما باضطراب جارح.

دفعتني بآخر قواها:

– لا تكسر إناء الحب الذي بيننا.

ماء حميم أعاد ضياعي من بين غيوم نهديها، فاعتذرت، وقبلت رأسها، واستدبرتها هاماً بالخروج فجذبتني وتعلقت برقبتي:

– أحبك، لا تنسَ هذا أبداً.

قبّلت مفرق رأسها، كان شعرها كثيفاً يفوح برائحة عميقة هادئة، وضعت وجهها بين راحتي:

– وأنا أموت فيك.. أنت كل الحياة.

خرجت من ذلك الباب، وأريجها يعصف في كياني ويسترخي كأغنية سقطت من حنجرة مطرب في لحظة نشوة جودها كما لم يفعل طوال حياته.

مع خروجي كان الجحش ينتظرني بالقرب من الباب، كان متكلساً في جلسة أشبه بحجر ضخم ألقته الدنيا من الأزل، ليتعثر به السابلة، وعابرو السبيل، صفق بيديه:

– الله يعطينا الحظ!

منذ أن كان يراقبنا من بُعد غدوت ضحيته الليلية حيث أنقده مبلغاً مالياً كي يختفي كجرذ اصطاد حشرة غبية، ومضى إلى مخبئه هازاً ذيله بفرحة تتسع لالتهام تلك الحشرة دفعة واحدة.

تطلع الجحش إلى يده مستنكراً:

– هذه المرة لم تكتفِ بالنافذة بل دسست جسدك خلف الباب، وسعر سكوتي في هذه الحالة مضاعف!

– لا أحمل نقوداً، غداً سأكمل لك ما تريد.

تحرك كدابة تعرف المسالك التي تطرقها، وهي منكسة رأسها باستسلام.

هل فعلها الجحش وأخبر أباها بانسكابي على نحر ابنته؟ وإذا لم يفعل ذلك فما الذي يحمل أباها على استدعاء أبي في مثل هذا الوقت؟

[١٧]

بدأت حرب تحرير الكويت.

تعكرت مواعيد لقاءاتنا، كنا نجلس داخل البيت، ووالدتي تجوس باحثة عن طمأنينة تركن إليها، وتثبت يقينها من أن كل الثقوب التي يمكن لهواء عابر النفاذ منها قد سدت، وغدت كجروح غائرة لا تنتح عرقاً، فهاجس الغازات السامة التي وعد صدام بإطلاقها تغلغل في النفوس، ولم يترك لها لحظة اطمئنان، وزيادة في الحرص، وضعت أمامنا مناشف مبللة بالماء، ووفق التعليمات التي تلقيناها من مراكز التطوع كان علينا أن نضعها على أنوفنا في حال شن غارة جوية أو سقوط صاروخ داخل المدينة.

وعلى غير عادة امتلأ فم أمي بالشتائم حين سمعت أن توفيق عبدالله جلب خوذات واقية من الغازات السامة، ولم تنفع توسلاتها لأبي لاقتناء خوذات تقينا تلك الأبخرة، كانت شتائمها مواربة نصفها لتوفيق، والنصف الآخر كتمته في صدرها بغيظ أخرجت بعضه على مسامع أبي في غرفتهما الخاصة، فسمعت أبي ينهرها:

- كنت أخاف على عثمان الوردي، وأنت الآن تجعلينني أتخوف عليك.

وتسللت ضحكته عبر الممر المؤدي للمطبخ:

- تعرفين أنها فرصة سانحة لأن أتخلص منك، وأبني بامرأة أخرى.

أظنها قامت بنفس حركاتها حين تغضب منه، تضرب كتفه، وتقطب بحاجبيها:

- لا هم لك إلا البحث عن امرأة أخرى.

تمدد الوقت، ولم يكن أمامنا من فعل نؤديه سوى التطلع إلى جهاز التلفاز،

وانتظار النزر اليسير من الأخبار الدائرة على أرض الكويت، وعلى حدودنا الشمالية.

كنا حبيسي منازلنا نجلس أمام التلفاز مترقبين فجيعة ما، تأتي من العراق، كانت خشيتنا من انطلاق الصواريخ العراقية بلغ حداً يجعلنا نستجيب بالصراخ، والعويل لأي طرقعة في الخارج.

حرص التلفاز - على غير عادة - مدنا بالتعليمات الواجب اتباعها في حالة سقوط صاروخ عراقي.

في تلك الأيام نشأت عادة التفاف البعض على البعض، يتجمع الأقارب والجيران في مكان واحد لمواجهة الخطر المحتمل، وفضّل الغالبية فكرة الموت الجماعي، ففي المساء تتجمع الأسر في مكان تكون منافذه محكمة الإغلاق...

حالة الحرب تترك ثقباً مفتوحاً في الصدر لاستقبال أي مباغتة، والحلفاء يثرثرون كثيراً: صدام سيحرق المنطقة، سيجعل نفطها وبالاً عليها، وستتحول تلك الثروة إلى ديناميت ينفجر ملتهما الدنيا بأسرها.. هذه الوديعة من الخوف مكنتنا من الارتجاج بسهولة، وانسكبنا على بعضنا كأوانٍ تهشمت قبل الأوان.

اهتزت المملكة عن بكرة أبيها. اهتزت اهتزازاً عنيفاً!

حدث هذا حينما ظهر سليمان العيسى على شاشة التلفاز مرتبكاً، وعيناه الجاحظتان مغروستان في وجوهنا، وهو يتلو التعليمات، وفجأة تلعثم، وتحشرجت الكلمات بين فكيه (ربما كان يبكي)، توقف عن بث الكلمات، واعتلت وتيرة صوته:

- انطلق صاروخ.......

حاول التخلص من تلعثمه فسفك رعبه على مسامع كل البلد:

- ... الخطر يهدد كل مناطق المملكة على الجميع اتخاذ الحيطة، والحذر!!

أظن أن المملكة بكل مدنها وقراها، سهولها وجبالها، ارتبكت حينها، فلم يحدث في تاريخنا أن نهتز جميعاً (وفي اللحظة نفسها) تلك الاهتزازة العنيفة، أن نهتز جميعاً بسبب جملة يلقيها أي شخص كان، سليمان العيسى هو الوحيد الذي نال هذا الشرف! فقد كانت صرخته كفيلة بجعلنا نترامى بين جرفي

الحياة والموت، انتظاراً للحظة القصف، وحمل دمائنا، وأشلاء بعضنا، مع جملته المرتبكة، وغير المسؤولة حدث ارتباك مزري! انطلقت صفارات الإنذار نافخة أبواقها لتعجل بتسارع نبضات القلوب الهلعة من موت فجائي، خطف كل واحد منا منشفة مبللة ووضعها على أنفه، وبقيت العيون جاحظة، وكأن موتاً مباغتاً جرى في الأوردة، وسارع أبي بإغلاق الأنوار، لتحل الظلمة، والفزع، وارتفع صراخ إخوتي الصغار ليجدوا حضن أمي يتسع لاحتوائهم بين ضلوعها، وهي تردد أدعية، وتتلمس رؤوسهم ربما كانت تكفكف دمعها، وتبحث عن شيء تعتصم به غير الدعاء.

- لا أريد أن أموت هنا.

تقنعت بمنشفتي، وتسللت إلى خارج البيت.

تسللت من البيت مستغلاً تلك الظلمة التي حلّت بالكون، وخرجت.

هبط ليل خرب، وأرسل جنوده لتفتش عن نفس مطمئنة لتذيقها العذاب، شارع مقفر، وعتمة بسطت أطرافها في الطرقات، وعويل ينبثق من تلك المنازل المنكبة على بعضها، وصفارات إنذار تزأر كسباع تهم بتمزيق المدى لتنقض على المكان بضراوة الوحوش الجائعة، ثمة أقدام تتراكض باحثة عن مأوى يقيها ما يمكن أن يسقط من السماء، فيقصف روحاً تواقة للحياة.

عويل ينبثق من كل جهة، ويختلط مع ظلمة طارئة تحيل الدنيا إلى مشهد سينمائي مرعب، وقفت بجوار بيتها، أشعلت عود ثقاب لأقترب من نافذتها مباشرة (كنت أمني نفسي أن أجدها تنتظرني لنموت معاً، كنت أمني نفسي بذلك - لمحت لصقاً يغطي أطراف نافذتها بإحكام. لا شيء يسكن في هذه اللحظة سوى الظلام، والعويل، طرقت النافذة عجلاً، وانتظرت.

- لم تكن نقراتي كفيلة بجعلها تنسى رعب الموت، وتلبي دعوتي.

صوت سليمان العيسى ما زال يرن في قحف جمجمتي، وصفارات الإنذار تتعالى مخلخلة طمأنينة مستفزة، فأعاود نقر نافذتها، وأقبع أسفل منها منتظراً أن تطل عليّ بوجهها الضاحك.

مضى الوقت بطيئاً، ولا أحد يجيب، والشوارع مقفرة من تلك العيون

التي كانت تصنع من أحداقها شركاً لعاشق ارتدى ظلمة الليل، وخرج ليأنس بكلمة، أو كلمتين من ذلك الفم الذي لا يمل من السخرية.

أي جنون أحمق نرتكبه حين نكون عاشقين، كنت قابعاً في ذلك الشارع الضيق، وسؤال يعكر مخيلتي:

- هل من الممكن أن تصل صواريخ صدام إلى مدينة جدة؟

لا جدوى من مكوثي فقد يئست من استجابتها لنقراتي المتتالية، فاعتراني رعب طفيف حين تخيلت صاروخاً ينفجر في هذا الزقاق الضيق ويتناثر لحمي على جدران بيتها، راعني الهلع الذي نبت على وجه أمي، وهي تجمع أشلائي الممزقة بعويل يقطع نياط القلب، كنت أرى الصاروخ يسقط، ويختار رأسي مستقراً له، يغرسني في قاع الأرض، أرعبني التياعها، فعدت لكي أموت بين ذراعيها.

أدرت مفتاح الباب ودلفت، يبدو أن سليمان العيسى استعاد رباطة جأشه مردداً جملة رممت خوف المنصتين له:

- زال الخطر.

يبدو أن أمي كانت تتلمس رؤوس أطفالها الصغار، وتخاطب أبي:

- سمعت الباب يفتح.

قفز أبي حاملاً رشاشه ومتهيئاً لإطلاق رصاصاته في أي جهة كانت، تحركت أمي لإضاءة أنوار البيت، وحين رأتني مقبلاً رفعت صوتها صارخة:

- هل جننت لتخرج في مثل هذه الحالة؟

وعندما وجدتني أرتمي في حضنها حقرتني لرعونة تصرفاتي، وحدجت أبي بنظرتها التي تطلقها في حالة العدائية: هذا هو الذي تفاخر بأنه من صلبك.

أرخى رشاشه ضاحكاً:

- لأنه من صلبي خرج في مثل هذا الوقت.

ارتميت بجوار إخوتي سائلاً:

هل يعقل أن تصل صواريخ صدام إلى مدينة جدة؟

[١٨]

ارتفع صوت أحد الركاب منتشياً بغناء يذكر الطيور المهاجرة بالإياب، فتهيجت النفوس، وشاركه البعض ذاك الغناء الشجي، كنت أراقبهم مبتسماً، وعاصفة من الحنين تجتث أعماقي، فرفعت صوتي مغنياً معهم:

ارجع لحولك كم دعاك تسقي

ورد الربيع من له سواك يجني

قبل رحيله بأيام، كان موسى الفيل يدندن بمقاطع هذه الأغنية، سمعته مراراً، يترنّم بها، وفي كل مرة، ينضج صوته بأسى حارق، استرقت لندندته، وأنا قابع خلف النافذة الشمالية التي أطرقها ليلياً طرقاً خفيضاً لأرى وجهها، ينسكب عليّ بضحكة مرتبكة:

- ألا تتخلى عن جنونك؟

ولم تعد تكترث بترديد تلك الجملة كلما جئتها.

في تلك الظلمة الشاحبة، تمخر سفينة أحلامنا، وتشرق على منزل يطل على أمواج البحر المتكاسلة، المنزل يتسع لشغب أطفالنا العشرة، وثمة يخت يقف في منتصف البحر مهيأ للإبحار في بحور الدنيا السبعة، ليلياً نوصل حلماً بحلم، وقبل أن تنبهنا أقدام المصلين المتقاطرين للمسجد، تكون قد اختفت من خلف نافذتها، وعادت قدماي تسلكان ذلك الشارع المتعرج، وثمة ترنيمة تهيج أعماقي برقصة هائمة في مكان ما من هذه الحياة اللذيذة.

كل شيء يأتي من الفراغ، ويذهب إلى الفراغ، الفراغ مثل الماء دائماً يجد شقاً ينفذ منه، ليس هناك نهاية لأي شيء! كلنا خالدون، كلنا ميتون، خالدون في فراغ، وميتون في فراغ آخر،، نحن كنغمة موسيقية منطلقة في الفراغ،

وعندما تعتقلها عبقرية فنان فإن حضورها هو تقنين لحضور سابق، هذا ما آمنت به مؤخراً.

كان عليّ أن أؤمن بهذا من وقت مبكر، منذ تلك المراهقة التي استمرت من غير انقطاع، ربما لو أفقنا في زمننا سنشعر بكآبة الحياة، فالحياة جميلة بحماقاتنا!!

لم أكن مواظباً على الذهاب للجامعة، أغرق في بحر النوم إلى الظهيرة، وأجفل من صوت أمي الذي يصر على مقربة من أذني:

- انهض.. لقد مضى كل النهار، وأنت لا تزال تغط في نومك.

تتريث علها تلمح جذعي يستقيم في مخدعه، فلا تلمح إلا استرخاء مفاصلي كقط عثر على فيء في قيلولة قائظة، تجذب الغطاء مزمجرة:

- إلى متى ستظل على هذا الحال، سهر بالليل ونوم بالنهار؟

حمحمة صوتها تخرجني من نومي الثقيل، فأتمحك بأعذاري علها تتركني أغرق في نومي كما اشتهي:

- لقد أخبرتك مراراً أنني أصبحت طالب جامعة، وكل محاضراتي رحّلتها للمساء.

تتمادى في غيظها، فتقترب مني، وتغطيني مرة أخرى: الأفضل أن تعفن، وأنت هكذا!!

وتغلق الباب بعنف: لن يكون حالك أفضل من بقية إخوتك.

ليلياً أنتظر موعدي معها، فبعد أن تزحف عقارب الساعة متجاوزة الثانية صباحاً حتى أدب في ذلك الزقاق الملتوي، منتظراً أن تطل عليّ من نافذتها، وكلما جئتها اشتكت من صعوبة النهوض صباحاً للذهاب إلى مدرستها، فيعتلي وجهي تبرم طافح، وأهم بمغادرة مكاني، فتطلق عصافير وجهها:

- لا تغضب فقد عدلت نومي، ليكون بعد عودتي من المدرسة، مع هذا أظن أنني سأعيد التوجيهي، في النهار نوم، وفي الليل أنتظر موعدك.

تنسحب إلى خلف نافذتها كلما نبهتنا صفقة الجحش بدنو قدم عابرة لزقاقنا الضيق، وأقفز كهر مدرب للاختباء خلف برميل النفايات، حتى إذا غابت

تلك الخطوات بعيداً، أجدها رفعت هامتها، لتطل عليّ من خلف النافذة ضاحكة:

– لقد رحلت كل القطط من شارعنا، وغدوت أنت القط الوحيد الذي يختبئ خلف هذا البرميل.

تنبه الجيران لموعدنا الليلي، وتفنن الشباب في رصد لقاءاتنا، ولكي أهرب من هذا التربص تأخر موعد لقائنا للساعة الثانية صباحاً (بوصية من الجحش)، هذا التوقيت المتأخر، قلل عدد العيون المتربصة بنا لكنه لم يغمض عينا الجحش، كان يشعرني أن الشارع مقفر منه، حتى إذا طرقت نافذتها وقف في آخر الشارع متربصاً بي كبومة لم تحفل عيناها الواسعتان إلا بمشهد واحد، شجعتني على إهماله، هذا الإهمال جعله يمعن في عناده، ولا يكتفي بالوقوف في آخر الشارع معكراً لقاءنا، كان يعبرنا ذهاباً وإياباً، قاذفاً كلمات من التحقير والازدراء، في ما بعد تمكنت من استمالته بمقاسمته مكافآتي الجامعية ليتحول إلى حارس، يحرس لقاءنا الليلي بطيب خاطر.

جئت متسللاً كعادتي، ربضت أسفل نافذتها، خرج صوت أبيها ناهراً إياها:

– توجهي لفراشك. . .

أطلق آهة عميقة ورتيبة كأنه جمل أناخ بجسد مثقل بأحماله بينما كانت زوجته تهوّن عليه بكلمات تصلني متقطعة. .

في تلك الليلة كان صوت أبيها حارقاً، وهو يدندن بمقاطع تلك الأغنية الشجية، وعندما لم يطرب لصوته رفع صوت مسجله ليصدح أيوب طارش متحملاً مهمة تحريك مجادف الغربة في عتمة ذلك الزقاق الضيق.

[١٩]

اللوعة اليمنية، الغربة الموحشة، وصوت أيوب طارش مذبوح، ينزف حرقة الموانئ البعيدة، وينادي:

وأنت على الغربة تعيش هايم
سعيد وغيرك مبتلى بالأحزان
مشاش مكتوبك ولا الصدارة
قصدي تعود حتى ولو زيارة

هذه الفخاخ التي تغزل شراكها من شجن قديم توقعنا في خيوط الحرير، أجزم أن كاتب هذه الأغنية رجل يمني أضناه الترحال، وتعفنت ذاكرته في المدن المعلبة، ومل السفر من وجهه، وترك له قلباً تفتت كمداً، فقرضته رياح الصحارى، ورطوبة الموانئ.

ماء الغربة ينحدر في أعماق اليمنيين منذ انفجار السد، فحين جرى الماء صنع أخاديد من الحنين في قلوب اليمنيين، ونقش عذاب الخطوات البعيدة.

استغرب الركاب انسجامي مع تلك الأغنية، فقد كف الجميع عن الغناء إلا أنا، فقد واصلت غنائي، حتى غدا صوتي نشازاً، ولم أكن آبه بتحديق عيونهم، وربما سخرياتهم.

في موعدنا يكون ذووها كعصافير تنتظر الصباح، لتشقشق من أوكارها، في تلك الليلة، وقبل أن أطرق نافذتها، سمعت أباها يدندن ملتاعاً:

ارجع لحولك كم دعاك تسقي
ورد الربيع من له سواك يجني

كمنت في مكاني، بينما كان الجحش يجلس في نهاية الشارع ملوحاً بيده مطمئناً بخلو الشارع من المارة، في البدء جاء صوت أمها المخنف الذي أعرفه جيداً حين تنده عليها في الليالي الماضيات:

– ما الذي يبقيك في هذه الغرفة كل هذا الوقت؟ هيا تهيئي للنوم، ففي كل صباح تنهضين جثة لا تقوى على الحراك.

فتهبط من مكانها متصنعة ترديد أي درس من دروسها، وبعدها تلبي استفسارها:

– أفضل أن أبقى هنا للاستذكار.

بتلك الخنفة – نفسها – قاطعت غناء أيوب طارش لمواساة زوجها فاختلط صوتاهما في أذني:

– هون عليك، فالأمر لا يستوجب كل هذا الضيق.

– بعد أربعين عاماً أكتشف أني غريب، تصوري بعد كل هذا العمر عليّ أن أجمع كل تلك الأيام، وأعود إلى وطن لا أعرفه إلا من خلال الذكريات، أو رسائل الأهل، وزياراتهم.

– وما الذي يحملك على الرحيل؟

– لقد تغيرت الدنيا.

– سحابة وتعبر.

– هذه المرة ليست سحابة، أتريدينني في آخر عمري أن أبحث عن كفيل؟ بعد أن كنت أسير مرفوع الهامة تريدينني أن أخضع للسعوديين لكي يكفلوني!!

– أناس كثر فعلوا ذلك.

– ألم تسمعي ماذا قال الرئيس علي عبدالله صالح؟

– ماذا قال؟

– من يبقى في السعودية فهو عميل، وعلى الأحرار أن يعودوا إلى بلادهم.

– ماذا يعني عميل؟

– يعني ضد بلده، وضد صدام.

– الله يلعن صدام، هو السبب في كل ما نحن فيه.

ارتفع صوته عالياً:

– لو سمعتك مرة أخرى تشتمين صدام تحرمين علي!!

وسكن بينهما صمت ثقيل، وبقي أيوب طارش يكمل مهمة التجديف في مياه الغربة:

وأنت على الغربة تعيش هايم
سعيد وغيرك مبتلي بالاحزان
. . . .
عيني على عمري. . عمري جرى سنينه
أما الفؤاد قد زاد به حنينه
رف القلب بحرقة مضاعفة. . .هل ترحل؟

عدت إلى بيتنا لاعناً صدام في كل كتاب بينما كان رفيف القلب يضطرب جزعاً، ويذوي، يذوي كطائر عليه أن يخفق بجناحيه وحيداً في كل هذا الفضاء.

[٢٠]

نسي الملاحون أصوات الشبان الثلاثة، وتسامحوا مع غنائنا وكأننا نحتفل بمغادرة كابوس علق في وسادتنا.. وإمعاناً في إغاظة وإهمال ملاحظات أولئك الشبان تزينت المضيفة بأنوثة مضاعفة!!

انحت من موقعها صوب نافذة تطل للفضاء الخارجي وتتبع بخيالها أولئك الشبان الذين مضوا للغرف المغلقة وتشفٍّ غامض جرى بين عينيها بهدوء.

جنحت الطائرة محلقة بموازاة مدينة الحجاج ليلمحها الركاب مقبقبة كمدينة الفسطاط، وتغدو جدة مدينة بعيدة تركت بها جزءاً منك... تلمحها تصغر، وتصغر، وهناك في نقطة ضئيلة تلوح لك أيادٍ صغيرة بمواء يقترب من الرجاء:

- بابا لا تتأخر.

أين هم الآن؟ هل ينبحون من غرفتهم الضيقة: اشتقنا لك يا أبي، هل يرددونها الآن؟

هذه الأوتاد هي التي تربطنا وتجذبنا إليها، كالطائرات الورقية كلما ابتعدنا جذبتنا تلك الأيدي الصغيرة بخيط رفيع، تجذبنا من أماكننا الشاهقة لنذعن لجذبها ونأتيها من آخر سماواتنا، ونتراقص أمامها، ونسقط منتظرين أن ترفعنا أياديهم من على الأرض، تلك الأيدي الصغيرة قادرة على جعل التحليق بعيداً عنها عذاباً آخر.

يضيق صدرك، وتغدو كل التصرفات قريبة من العته، تجاورك زوجتك في المساء تتمطى حولك، وتمد ذراعيها لتحتويك محاولة غزل حلم صغير، تنفر كلماتها بصوت متضجر:

- لو أننا في مكان آخر سيكون الوقت أكثر اتساعاً ومتعة.

بيت واسع كجحر فأر، نعود إليه في كل حين، ولا شيء يحدث.. الكلام مكررٌ، والحكايات معادة، والأماني ترحل كل يوم لمستودع المستقبل، وأطفال يقبعون في منازلهم كالمساجين، يمسكون بحديد النوافذ، ويجأرون: نريد أن نخرج!

تغدو رؤوسهم المطلة للشارع كثمرات نيئة، تنتظر موسم الاستواء، لتتخلص من تعلقها كل هذا الزمن، تلك الرؤوس الصغيرة المطلة للشوارع المقفرة، والبلكونات المغلقة، والحياة الميتة، تغريك لأن تشقق صوتك في الفراغ: يا أولاد الكلب، ماذا يقول عنا الجيران؟

أصغرهم حفظ هذه الشتيمة عن ظهر قلب (يطلقها للجمع والمفرد من غير تمييز)، وأضاف لها كلمة واحدة فكلما أرهقه أحد إخوته صاح به: يا أولاد الكلب!

وإذا هبوا به اعتذر سريعاً: أولاد كلب عجوز!

هذه الإضافة جعلتنا نستلقي ضاحكين، فأصبح يتفنن في إضافة أي كلمة أخرى بجوار (يا أولاد الكلب) ليستجلب ضحكاتنا، يبحث دائماً عن نعت يجاور لفظة الكلب، أبدت أمه امتعاضاً من هذا التسيب الذي أبديه معهم، وزمجرت كنمرة:

- أنت تهيئهم لأن يكونوا شتامين، عليك أن تبدي الحزم، وإلا لن تستطيع تقديم جيل صالح!

شعرت أنها تصمني وصماً يقلل من مهابتي أمام أطفالي، فقفزت ممسكاً بأذنه، وصائحاً:

- أنت قليل الأدب.... سيقولون لم أعرف كيف أربيك!

تعلق بيدي صائحا: أتوب يا أولاد الكلب.. والله أتوب...!!

تركت أذنه، وأنا أغالب ضحكة جارفة كي لا يسقط عبوسي من ملامحي المنفرجة.

أطفالنا سجناء الشقق لا يعرفون إلا ما يبثه هذا الفضاء، وغدا الكلب

أنموذجاً، يكبر في مخيلتهم، والخنزير أنموذجاً، وكل أنواع الطيور القميئة نماذج مباركة، لا يوجد لديهم نموذج ينير أعماقهم المعتمة. غدا الفضاء يقذفنا بخردوات الكون عبر تلك القنوات العاجزة عن خلق نموذج لأطفالنا.

دفع صديقي طارق باب المكتب، وجلس في مواجهتي فاتحاً عينيه على اتساعهما، ومحاولاً تهريب فجيعته، وصدمته من خلالهما، وعندما لم أكترث بملامحه المعكرة ضرب كفاً بكف:

- نحن في آخر الزمان!

وردد استغفاره مراراً، كان ينتظر أن أتسق مع حالته، وأسأله:

- خير..

- من أين يأتي الخير، وأبناؤنا ينحرفون أمام عيوننا؟

- صلِّ على النبي...

- تصور ما هي أمنية ابنتي؟

- .....

- أن تصبح راقصة مشهورة.

- راقصة!!

- نعم راقصة.. طفلة من مواليد مكة، ومن نسل مبارك أمنيتها أن تتعرى أمام الجميع.. بالله تصور.

- .....

- كدت أجن، علمت من أمها أنها كانت تشاهد الراقصة دينا، والتي قدمتها المذيعة أنها مفخرة عربية.. دينا مفخرة عربية، تصور مفخرة عربية دفعة واحدة!

صمت للحظات، وصاح:

- ماذا أفعل؟

قفز كلابي في مخيلتي، هؤلاء الكلاب يواجهونني بكلمات شاذة، ولا يغضون طرفهم حيال أي ممارسة أقوم بها، هذه الفئران ماذا تحيك في صدورها؟ لم يعد هناك أنموذج، الكل تلوث، وفسد، فهل فعلاً سأضيف ذرية

غير صالحة في مجتمع يتحللّ داخل شقق مغلقة؟ يمارس كل أنواع الرذيلة، حتى إذا خرج حمل معه أقنعة يتزين بها في كل حالة، رائحة التفسخ تشم من سلوكياتنا!

أخشى من كلبي الصغير فله فلتات قاتلة... يتربص بي، ولا يتورع عن اتهامي بكل نقيصة كلما رأى سلوكا يتناقض مع توجيهاتي لإخوته، يجلس مصوباً كلماته، كقناص محترف مهمته اغتيال توجيهاتي، وقبرها أسفل قدمه الصغيرة.

أرغمت نفسي على الجلوس معهم لمشاهدة أحد أفلامهم الأثيرة (مائة مرقش ومرقش) هذه المائة، والواحد كلهم كلاب، وكلما ظهر أحدهم على الشاشة تخاصموا في أي من أفراد العائلة يحظى بشرف أن يكون ذاك الكلب.

أبي حظي بلقب: الكلب الأصغر لاكي، وعمهم الأصغر بلقب شقيعوه، وعمهم الأكبر بلقب دبسة حتى أمي لم ينسوها فقد اختاروا لها اسم كلبة وديعة دورها التمحك بالأرائك، وإظهار سعادة مفرطة، كنت أسمع أسماء تلصق بكل أفراد أسرتي من غير أن أستبين وجه الشبه، وبعد أن الصقونا جميعاً بأسماء تلك الكلاب، ندهت حسرات متضخمة من ابني الأصغر:

- أه يا خسارة!!

تبادر لذهني ندمه على إنزالنا منزلة الكلاب، وقبل أن أطمئن لهذا الخاطر، كان يسكب حسرته:

- أسرتنا الصغيرة لا يمكن أن تصل إلى هذا العدد!!

وبعجلة، واصل حديثه معي: أبي ألا يوجد لدينا أقارب يصل عددهم إلى المائة والواحد؟

قال الأوسط: لو كان عدد أسرتنا كذلك سنكون عائلة محترمة مثل هذه الكلاب!

ورجاني أن أحصي عدد أفراد أسرتي شرطه الوحيد أن أصل في عدّي إلى مائة وواحد وأن أجمعهم في وليمة ليتسنى لهم تسمية كل واحد منهم بما يوافق هواهم!

[٢١]

تحوَّل بيتنا إلى ملصقات لتلك الكلاب المرقشة، أبدت أمهم غضباً زائداً لهذا التشويه الذي طال غرفة استقبال السيدات، كنت أجلس في مكتبي، ويصلني صراخ زوجتي كآلة ثاقبة تنخر جمجمتي، تقافزوا جميعاً في اتجاهي، ولاذوا خلف الباب مقلدين حركات كلاب جسورة، كان أصغرهم يحذرهم مرعوباً: جاءت بهيرة!

فينكمشون خلف باب غرفتي، متمحكين، وهازين رؤوسهم، ويتبادلون لعق بعضهم بعضاً، صُدموا حينما وجدوني أهب باتجاههم: من هي بهيرة؟

تلعثم الكبير كثيراً، ولم يجب، وانفلت لسان أصغرهم: بهيرة أمي!

- ومن قال لك إن اسمها بهيرة؟

اكتفى بأن تبادل الضحك مع إخوته، فبادلتهم الضحك لأجد زوجتي تقف صارخة:

- ليس من أحد يقوي شوكتهم سواك.

جذبتها ضاحكاً:

- يسمونك بهيرة، فمن هي هذه البهيرة؟

- لا أعلم، كل أسمائنا تبدلت فهم يتبادلون أسماء تلك الكلاب حتى أنت يسمونك بنقر!

- أنا بنقر!!

جذبت الأصغر من أذنه:

- من هو بنقر؟

تصنَّع الألم متلوياً:

- أنت بنقر..

كان عليَّ أن أجلس طويلاً أمام التلفاز لمتابعة كيف وُلِدَ اسمي الثاني.

* * *

بنقر كلب لطيف يجالس صديقه راجي مؤلف الموسيقى الموهوب، والمفتونة به كلبات الحي، يجالسه بنقر لاختيار شريكة حياته من خلال تلك المعجبات اللاتي يعبرن راجي ليحظين بوده، ووجد بنقر في مجالسة راجي فرصة لمشاهدة الكلبات الجميلات العابرات عله يجد واحدة منهن تعجبه، ومع ظهور بهيرة قفز بنقر نابحاً بوداعة: هذه هي.

وتزوج بنقر ببهيرة فولدت له خمسة عشر كلباً ذوي جلود مرقشة جميلة وكلما كبروا تجلى جمال جلودهم وروعتها، هذه الروعة أغرت رولا درفيل لشراء تلك الكلاب بنية سلخ جلودها ودباغتها وصناعة الحقائب والأحزمة الفخمة، وتقدمت رولا درفيل بعرضها لأنيسة صاحبة هذه الكلاب التي رفضت بدورها عرض رولا درفيل، ولشدة إغراء وجمال جلود تلك الكلاب عمدت رولا درافيل لانتداب شخصين (هراش وكسير) لسرقة الخمسة عشر كلباً واستغل هذان الشخصان غياب أنيسة عن الدار مع كلبيها (بنقر وبهيرة) وسرقا الكلاب وانطلقا بها إلى مخزن كانت رولا تجمع فيه كل الكلاب المسروقة ذات الجلود الفاخرة، تنبَّهت كلاب الحي لسرقة أبناء بنقر فتنابحت معلنة عن السرقة، وصل نباحها إلى كل مكان فعلمت المدينة بسرقة أبناء بنقر ليتعاطف الجميع مع بنقر وبهيرة، وتبرع الكثيرون لإعادة الكلاب المسروقة، وانبرى لهذه المهمة الزعيم وهو كلب ذو سمع ثقيل يعاونه في هذه المهمة قط يدعى المساعد ويفلح الاثنان في الوصول إلى موقع الكلاب المسروقة ويكشفان للناس أن رولا درافيل قامت بسرقة وتخبئة مائة كلب وكلب مرقَّش لتقوم بسلخها واستخدام جلودها المرقشة في إتمام مشروعها وتصنيع الحقائب والأحزمة الفاخرة، ومع خروج تلك الكلاب مجتمعة ساروا خلف أبناء بنقر الذي استقبل أبناءه بفرحة غامرة ولأن بقية الكلاب بلا أباء قام بتبنيها جميعاً.

احتجت إلى أيام طويلة لمعرفة هذه القصة، كنت أجلس معهم وهم يتقافزون حولي: هذا الكلب جدي، وهذا الكلب عمي، وهذا خالي، وهذا. . .

تمحك الصغير بصدري ككلب مدرب، وعبث بشنبي قليلاً:

- ما رأيك يا بنقر؟

- في ماذا؟

- ما رأيك أن تتبنى إخوة لنا ليصل عددنا إلى مائة مرقّش، ومرقّش!

تفاجأ حين خطفت أذنه، وعلقته في الهواء بينما كان يصيح صارخاً:

- أتوب يا أولاد الكلب!!

كم اشتقت له ولإخوته. . . أين هم الآن؟

[٢٢]

تحرك الملاحون لتوزيع الجرائد، عبرتني المضيفة باسمة - وكأنها تتذكر جملي المتكسرة أو أنها تعقد هدنة صلح بعد أن رأتني أتضاحك على بكائها حين أعلن الشبان الثلاثة كفرها - عبرتني تدفع عربة صغيرة وضعت على سطحها عدة جرائد، امتدت يدي وتناولت صحيفة ٢٦ سبتمبر متصفحاً محتوياتها باهتمام. . تمدد خبر على صفحتها الأولى:

الرئيس اليمني يفتتح منتدى الديمقراطيات الناشئة غداً:

17 دولة تبحث عن الوسائل الناجحة لتحقيق الديمقراطية على أرض الواقع

٢٦ سبتمبر - صنعاء

برعاية فخامة الأخ العقيد علي عبدالله صالح يفتتح غداً منتدى الديمقراطيات الناشئة، ويشارك في هذا المنتدى زعماء وأقطاب على مستوى رفيع في السياسة والاقتصاد والمجتمع المدني يمثلون (بحسب الترتيب الأبجدي بالإنكليزية) دول: بنين وبوليفيا والسلفادور وجورجيا وغانا وغواتيمالا وغويانا والأردن ومقدونيا ومالاوي ومالي ومنغوليا والمغرب وموزمبيق وناميبيا ونيبال واليمن.

وجميع هذه الدول تسلك مساراً هادئاً في سجل إرساء التقدم الديمقراطي، رغم التحديات الاقتصادية والسياسية الكبيرة.

ويستهدف المنتدى بحث التوترات المصاحبة لتنفيذ عمليتي الإصلاح السياسي والاقتصادي في وقت واحد، وأن يكون فرصة للممارسين للعمل السياسي أن يناقشوا ويحللوا تجارب كل بلد، من حيث أفضل الممارسات وأوجه النجاح والفشل في عملية التحول الديمقراطي.

اكتفيت بقراءة هذا الجزء من الخبر المطول، ولم أرغب في قراءة ما تحمله التفاصيل الداخلية، كنت أحمل في حقيبتي اليدوية جريدتين محليتين، شرعت بقراءة عناوين الصفحة الأولى من إحداهما، وجوه صحفنا تتشابه لم يكن بها شيء لافت. .

غضب الدكتور العلوني يلتصق في أذني:

– ألم يفقه الصحافيون أن صحفنا كاذبة، وأنها تقدم هدياً ميتاً في كل يوم، فكل ما يمور في المجتمع تسفحه هذه الصحف على صفحاتها ماء عذباً، إنها تحور الشوك، تنسق كذبتها يومياً من آهات الناس هذه الآهة تغدو امتناناً بجريان الحياة في أوردتهم، وهبة يحنون رقابهم بترديدها كنغمة شجية.

الدكتور العلوني لا يكره أحداً كما يكره سعد خلاف.

سعد خلاف شغل منصب الرقيب الداخلي منذ حرب تحرير الكويت، يسمونه داخل الجريدة صمام الأمان، منحه رئيس التحرير سلطة تفوق سلطته (ويقولون بل امتلك هذه السلطة من جهات أعلى).

اتسعت طموحاته وترسخ وجوده حين ألغى مقالاً لرئيس التحرير، يمارس ألعاباً قذرة على مستويات عدة، جاء إلى الجريدة بجلد محمر وزغب تناثر هنا وهناك، أيام قلائل وكان الريح يتعب من تحريك ريش جسده. .

الدكتور العلوني يعمم تهمه:

– صحافيونا أشبه بذلك الغبي الذي يكنس بيته يوميا ويضع نفاياته تحت سجادة صالون الاستقبال، كل شيء نظيف لا يحتاج إلا لرفع السجاد ومواراته.

حملت كثيراً من آرائه، هذه التلمذة لم ترق لرئيس التحرير:

– هل فعلاً أحمل أفكاراً نضالية في زمن انتهى فيه النضال؟

صدمت بالدكتور العلوني فلم تتوافق تنظيراته في المجالس الخاصة بما ينقاد له داخل الجريدة، ووقفت عند أول درس تعلمته. . النزاهة.

في كل مرة أيقن أن مثل هذا التدليس الذي يمارس في صحفنا لا يصلح لإخراج الأفكار القيمة. . هم يريدون بوقاً يكمل معزوفة متناغمة كاذبة الادعاء.

وكلما جئت للكذب أحسست بالعري، أحسست أن طوفاناً من عيون البشر تهتك جلدي وتتوعدني بيوم لفصل عنقي عن جسدي ومواراتها تحت سجاد سميك.

أشارك القراء سخريتهم حين يدور الحديث عن مغالطات صحافتنا، لم ينسوا ذلك التناقض، يصمونا: بالحواة غير المدربين!

تلك الواقعة كانت مهزلة تعمينا جميعاً عنها: ارتفع سعر البنزين فرتج الناس لهذا القرار، فخرجت صحيفتي بمانشيت عريض توسد الصفحة الأولى: ارتفاع أسعار البنزين قرار حكيم!

وعندما تنبهت الدولة لهذا الخطأ وأعلنت عودة الأسعار على ما كانت عليه في اليوم التالي مباشرة خرجت الصحيفة بنفس المانشت: تخفيض أسعار البنزين قرار حكيم!

في أحيان كثيرة تقرأ صحفنا للضحك والتنكيت على السياسة الإعلامية التي ينتجها الصحافيون، كلنا يعرف أننا نكذب: الصحافيون يعرفون أنهم يكذبون، والقراء يعرفون أن ما ينشر كذب، والمسؤولون يعرفون أن ما يكتب كذب، ومع ذلك لا تزال الصحف تصدر!!

هذا الاستغراب يبديه الدكتور العلوني ولا يقف عند هذا الحد بل يجرّم فعل الكذب، يفعل ذلك في الجلسات الخاصة وحين يطلب منه غير قناعاته يوافق مباشرة للقيام بالمهمة ولا يرى في فعله أي تناقض!

كلنا مشطور، كلنا يسير بوجوه رثة نزينها لبعضنا ولا نبدي ملاحظة على هذه الأقنعة السيئة التي نتخاطفها جميعاً لحضور حفلات الكذب الموزعة في كل مكان. .

أوشكت على قذف الجريدة جانباً، وتراجعت حين لمحت استطلاعاً نشر على صفحتين عن بيوت آيلة للسقوط في حي العشيما بمدينة جازان، كان لوم الصحيفة والمسؤول منصباً على الساكنين لعدم مغادرتهم بيوتاً ستتقوض على هاماتهم، فليس مهماً إلى أي بقعة يتجهون، فقط عليهم مغادرة هذه البيوت واستقبال أشعة الشمس بهاماتهم الحاسرة لم يرد ذكر ما يستوجب أن تقوم به

الإمارة أو البلدية أو وزارة الإسكان أو الدولة أو فاعلو الخير من توفير بدائل لهؤلاء الذين ينتظرون السقوط ولا يستطيعون النهوض!!

في عدم الاكتراث هذا تراخى كل شيء، حتى البيوت تراخت مفاصلها وحنت للاستسلام.

بيت موسى الفيل لم يعد كما كان، قام مالكه الجديد بتقسيمه إلى غرف ضيقة تستأجره جاليات تشادية لا عمل لها سوى العبث بمحتويات القمامة وتفريخ أبناء لإتمام هذه المهمة المضنية.

الابتعاد عن ذكرياتك يبقيها ناصعة نابضة في داخلك، وكلما عايشتها تصفعك بتيبسها وضمورها، تقشط يومياً جلدك حيث لا يبقى إلا واقع صلف مستبد.

تلك النافذة التي طالما وقفت أمامها ليالي طويلة منتظراً بزوغ وجهها ها هي تغدو فجوة كبيرة تكشف بيتاً بائساً تجمعت فيها مجموعة من النساء التشاديات انبطح بعضهن في أرضية غرفتها وانشغلت المسنات منهن بإحصاء العلب الفارغة مذكرات بعضهن بالنفايات المتبقية!

أشعر بالحسرة كلما وقفت أمام بيتها، كم تمنيت لو أن أبي اشتراه قبل أن يتحول إلى تجمعات لبائعات الهوى والعلب الفارغة.

عاد أبي في تلك الليلة التي استدعاه فيها موسى الفيل، فاستقبلته أمي متسائلة:

- ما الذي كان يريده منك في مثل هذه الساعة؟

كانت تسأله وهي تتناول منه غترته الناصعة البياض:

- لماذا استدعاك موسى الفيل؟

- يريد أن يبيع بيته.

- وما دخلك أنت؟

- قال إنه حريص على العِشرة ومن الواجب إخباري بنيّته قبل أن يعرضه للبيع.

- ولماذا يبيعه أصلاً؟

- قرر العودة لليمن.

- بعد كل هذه السنوات؟

- ألا ترين الجميع يرحل؟ حاولت أن أثنيه عما عزم عليه، قائلاً له: لا عليك سأقوم بكفالتك أنت وأسرتك لكنه استنكف من هذا، وصاح في وجهي: وهل تظنني هندياً أو تايلاندياً، أبعد هذا العمر أصبح عبداً لا أتحرك إلا بأمر كفيلي.

لم يقتنع بأن الأمر مجرد تنظيم لا يستهدف اليمنيين بتاتاً، لم يقتنع بأي كلمة قلتها له وأصر على العودة صارخاً في وجهي: بلدي تنتظر كل الشرفاء وسوف أعود كما عادت قوافل الشرفاء.

وكالعادة شب بيننا شجار تدخّل الجيران لفضه بعد أن ارتفع كثيراً.

كنت أصغي لحوارهما وخيالها يبرق في مخيلتي ونصلٌ حاد يخترق أعماقي:

- هل سترحل وتتركني هنا؟

تعمدت قراءة تصريح رئيس بلدية جازان المنشور أسفل الصفحة ولم أصعق تماماً من حكمه القاطع:

- بيوت العشيما منزوعة الملكية، صحيح أنهم لم يعوضوا إلى الآن لكن يجب على قاطني هذه البيوت المغادرة!

هكذا أنهى رئيس البلدية القضية، فهو غير معني إلى أين يذهب أهل تلك البيوت، تنتهي مشكلته برحيلهم وليكن لارتشاف ماء البحر أو للموت إن شاءوا. نعم ليذهبوا للجحيم، فنحن أصفار لا أرقام لها!

لفلفت الجريدة وحشرت بها جيب المقعد الأمامي وأعدت التطلع لجريدة ٢٦ سبتمبر راغباً قراءة تفاصيل منتدى الديمقراطيات الناشئة علّني أخرج بأفكار تكون مادة دسمة لصحيفتي.

وكلما حاولت التركيز ارتبكت الطائرة في مسيرتها فيتسع غثياني بالتمدد، وألمح النساء التشاديات وهن يبزغن من نافذتها موصيات بعضهن بتلك الحاويات التي لم تخضع للتفتيش الدقيق بحثاً عن العلب الفارغة وبعضهن يرسلن عيونهن لاصطياد الباحثين عن لحظة لهاث بثمن زهيد.

[٢٣]

الطائرة تشق عباب السماء بترنحات متواصلة، فأهرب عينيَّ من نافذة الطائرة المهتزة كاهتزاز مقطورة أصاب إحدى عجلاتها العطب فلم تترك الطمأنينة تسترخي في أفئدة راكبيها.

استشعرت بخوفي الدائم من مثل هذه الحالات، فكثرت التفاتاتي، وتمنيت أن تستقر قبل أن يتمدد غثياني ويجذبني لرحلة تقيؤ سخيفة، ولكي لا تتفاعل هذه الحالة توقفت عن القراءة مسنداً رأسي ومشتتاً رغبة التقيؤ بإغماضة استجلب بها نوماً استعصى مجيئه بسبب تلك الاهتزازات المتواصلة.

المسافر الذي يجاورني وجد سلوته في دندنتي السابقة، فحاول استنهاض نشوة الغناء في داخلي – مرة أخرى – بترديد مقاطع تلك الأغنية التي كنت أقف في أجزاء من مقاطعها ولا أكملها، لتعسر مفرداتها على الفهم.

أعلن المذيع الداخلي عن وجهتنا والزمن الذي سنقضيه في رحلتنا سامحاً للركاب بحرية الحركة، ليطفر ذلك الراكب من مقعده دافعاً بوابة دورة المياه بعجلة خشية من أن تسيل قطرات بوله على فخذيه.

مع إعلان المذيع لوجهتنا رنت كلمة صنعاء في داخلي، هي أول مرة أصل إليها فلماذا ينبعث من داخلنا كل هذا الشوق، ما الذي يربطنا بالمدن.. هل توصلنا الأسماء إلى جوف التاريخ؟ تعيد تجهيز طعم الحياة، الأسماء هي الوجود الأول، فالتاريخ ليس أحداثاً متراكمة تفرز حالة تاريخية، التاريخ أسماء تخلق أحداثاً تلون الحياة ولا نعرفها إلا بالتاريخ، هي أشبه بأسمال ارتداها قائد وخلعها فبقيت رائحته تجوب الزمن.

وتاريخنا أردية لقادة تركوا بزاتهم معلقة في غرفة صخرية حافظت على روائحهم كما تحافظ البيضة على محها، تاريخنا العربي هرب هذا السر، فقست بيضته كاشفة عن خيط دم، خيط كان مشروعاً لجنين فسد في الظلمة والهواء الرث، فليس هناك حدث ينهض بتفاعلاته الاجتماعية مفرزاً واقعة تاريخية، نحن تفاعلات لأمزجة أشخاص ولدت كل هذا الركام مما يطلق عليه مصطلح تاريخ.. تأسست هذه القاعدة من كتب الطبري وابن الاثير.. والمدن هي بناء شخص يحولها من أرض منسية إلى تاريخ، وصنعاء جاءت على يد صنعاء بن ازال بن عنير بن عابر بن شالح المنتهي عند سام بن نوح.

آه صنعاء.. لا بدّ من صنعاء وإن طال السفر (من شذب هذا المثل حتى يغدو مسافراً على كل لسان، وتغدو صنعاء آخر المرافئ لرحالة يجد في حصونها مستقراً أو عاشقاً خرج يبحث بين جبالها عن فتنة خبأتها بين جبالها الخضراء.. من قال: لا بدّ من صنعاء وإن طال السفر؟ الأمثال تنفر من الشفاه وتنسى أن تعود لصاحبها، يغدو المثل ملكاً مشاعاً للناس، كل الناس، وصنعاء كتاب نثر حروفه على الألسن فلم يعد أحد إلا وجعل صنعاء بغية لشيء ما حاك في صدره).

لا بدّ من صنعاء وإن طال السفر.. يسند بعض المؤرخين هذا المثل للإمام الشافعي حينما كان في رحلاته المضنية وغدت صنعاء شغله الشاغل فقال تلك الجملة ليغدو مثلاً يلهب خواصر الإبل والبغال والحمير والخيل المقلة للعشاق والرحالة والقواد، فما الذي جمع الإمام الشافعي بحب هذه البقعة، هل كانت له حبيبة هناك.. أم أن علماً اختبأ في جبالها الشاهقة فحمل الشيخ على تمشيط هذه القمم لقطف كلمة من صدر جلته فضة هذه الوجوه.

بعض الكتب الميتة تقول إن قصياً بن كلاب جاء من اليمن وإن كل الأشياء جاءت مقتفية أثره من هناك، وأخال أن إصرار الإمام الشافعي على بلوغ صنعاء لم يكن إلا بحثاً عن سر المكان المخبأ في اللوح!

تموّج شعرها على جبينها وهي تطل من نافذتها:

- هل سمعت بمثَل: لا بد من صنعاء وإن طال السفر.

لم تدعني أجيب وأكملت تدفقها:

- لم أكن أتوقع أني سأكون هناك في يوم من الأيام.

الآن أسترجع هذه الجملة وكأنها ترن في أذني لأول مرة، كيف لم أتنبه لها طوال بحثي عنها.. جلت مدناً كثيرة بحثاً عنها ولم يخطر ببالي ان أقف بباب اليمن أو أصعد جبالها أسأل عن امرأة تحرق الكون إذا نظرت..

ها أنا أبيع الدنيا كلها يا وفاء لأقف أمام عينيك لتحرقيني كيفما تشائين..

ها أنا جئت.

[٢٤]

تسببت عيناها في تورطي بعشق اليمن في وقت مبكر..

وجدتها أمامي منذ الطفولة الأولى، منذ تلك الطفولة كانت تحمل مقاطع أغنية جديدة، وفي تلك الشوارع الخلفية المقذوفة في حيّنا لعبنا لعبتنا الأزلية (عريس وعروسة)، اقتطفت أكاليل من زهر الياسمين من أحد جدران حيّنا ووضعته على هامتها، وخطونا لمنزل الزوجية، كان دائرة وهمية وزعنا بها غرفنا، والتصقنا في زاوية منها، كان ليل عجوز يعبرنا في التصاقنا الخدر، شممت رائحة جسدها يتوغل في دمي، حوطتها بذراعي، فجاء صوت أبيها باحثاً عنها فنفرت من ذراعي كعصفورة جريحة تخبئ جرحها في عتمة تلك الشوارع الضيقة، يوماً كانت تودع شيئاً من جمالها في داخلي حتى إذا كبرت كانت منبسطة على كل تضاريس حياتي.

- مفتون بهاتين العينين..

- عيناي فقط..

وأشاحت بجبينها تداري غضباً صغيراً افتعلته عنوة، فامتد جيدها فضياً تسيل منه حلاوة الجبال الشاهقة فتروي خدوداً فتنت بمنحدراتها الثلجية، امتدت يدي إلى وجنتها:

- كيف تستقر الغيوم على هذه المنحدرات.

يقفز طائر الشوق من قفص الأغنيات

يا نسيم الصباح سلم على باهي الخد ونبهه من منامه

قله إني على وعده أسير مقيد حتى يوم القيامة

الأغاني اليمنية سحقت قلوب العشاق، أغانٍ تذكّرك بذلك الاحتراق الذي تركه الشعراء مبذوراً بين اللحن والكلمة، فتنز رذاذ عشقهم نفطاً يحرق كل المراكب المبحرة للغد.

الطائرة تلوب في الفضاء، ودوامة من الغثيان تتعارك مع وجهها ينضج حيناً ويغرق أحياناً..

والذي يجاورني انتدب فكيه للإجهاز على تلك اللبانة المستعصية على الانقراض... وعيناها تبزغان من تلك الدوامة لتقرضاني كيف تشاء.

[٢٥]

ها هي تقف في البال كحورية شف عنها الزمن ووقفت حارقة ظالمة حانية تتمطى في مرقدها كشمس صغيرة بزغت في عتمة الروح:

ناشني ناشني يا ابو الشماغ الملثم والحلى في كلامه

من رأى غرته هلل وشهد وكبر بدر ليل في تمامه

رجوتها أن أراها حالما تستيقظ من رقدتها، ضحكت من هذا الطلب ووصفته بالعته.

هناك على هضاب خديها تجلس الحياة متفتحة بشتلات ورد دائمة الحمرة تطل على سهول ثلجية، كم تمنيت التنزه بين ملامحها حين تفيق ملامحها لاستقبال أشعة الشمس.

في كل صباح مدرسي تجدني أقف أمام بابها، أنتظرها حتى تعبرني وتُلقي عليّ تحية الصباح، أشاغلها بطلب وحيد:

- أريد أن أرى وجهك في هذا الصباح؟

ألمح لمعان عينيها يومض من خلف غطاء وجهها كاشفاً عن فرحة بكر خنقتها على شفتيها فأبقت ابتسامة غائمة:

- فقط أرى ندى الصباح على وجنتيك..

تتلعثم خطواتها في الطريق مقتربة من صويحباتها قبل أن تفعل.. نهرتني مراراً عن هذا الطلب الصبياني.

- أراك لم تعد تحفل بالناس فأنت لا تكترث بالشارع المزدحم وتتبعني كظلي.

- كلُّ مَنْ في الحي غدا عارفاً بافتتاني بك.

- ولهذا عليك أن تتعقل.

في إحدى زياراتي الليلية ناولتها شريطاً لمحمد عبده:

- أريدك ان تسمعي أغنية يا نسيم الصباح كأنه يغني لك.

- لن تراني وأنا مستيقظة من النوم أبداً.

جهدت كثيراً لرؤية وجهها وهو يجفف الليل من أطرافه، عمدت مراراً للوقوف لها في شارعها الذي تطرقه ذاهبة لمدرستها وكلما طالبتها بهذا الطلب خنقت ابتسامتها على عتبة شفتيها وقفزت متوسطة صويحباتها قبل أن تريني عيناً نفضت غبار نوم قلق..

في أحيان نكتب مستقبلنا من غير أن نعلم، حدثت هذه الكتابة مرارا، لم أتخيلها زوجة لي أبداً، كلما تعكرت أمزجتنا كتبت لها:

- لو فرقتنا الأيام أريدك أن تذكري أنك الوحيدة التي أعيش من أجلها..

أهديتها أغنية (حاول تفتكرني) مراراً، في كل خصام أقذف في طريقها بشريط تلك الأغنية، فتلتقطه من الأرض وفي موعدنا الليلي يكون عبدالحليم حافظ يراقص الشارع بأغنيته تلك بينما أذرع الشارع ذهاباً وإياباً علني ألمحها فلا أسمع سوى صوت يبكي عشق ذبل في أوردة الزمن..

لو مريت في طريق مشينا مرة فيه

أو عديت بمكان كان لنا ذكرى فيه

ابقى افتكرني.. حاول حاول تفتكرني

في أحيان كثيرة تتحقق أمانينا لكن على غير ما كنا نشتهي.

من نافذتها الصغيرة سال كمد من بين شفتيها:

- غداً سنسافر لليمن.

وقفت كلوح مهتز كلماتها كماشات تخلع مفاصلي، تزيل تماسكي فارتج بين يديها:

- غداً سأكون هناك. .غريبة في بلدي، وأنتم هنا تصفقون لرحيلنا،

تصفقون فرحين لأننا سنغادر ونترك لكم خبزنا.. الآن تتذكرون أننا غرباء وتنسون أننا بنينا هذه البلد حجراً حجراً.

كان دمعها يذرف كحلاً غامقاً جرى في تلك السهول الثلجية، وشواكيشها تخلع مساميري، فأترنح بالقرب منها كبوابة قرضها الزمن وعليها أن تقع كيفما تشاء..

- مساء غد سيكون هذا البيت مظلماً ربما تأتي كعادتك ساعتها فقط تذكر أن هذه النافذة كنت أجلس بها لأنتظرك.

كنت صامتاً وهي تدق مسامير كلماتها بإتقان، فأبدت ضجراً من صمتي:

- أود أن أغلق النافذة فلن تكون بعد هذه الليلة مفتوحة كهذا.

- لا تذهبي.

- أسمع حركة داخل البيت.

- لن أذهب سأنتظرك هنا.

انسحبت على عجل، وأوصدت النافذة بقوة، ليلتها نمت بجوار نافذتها كنت أغفو وأفيق وكلما غالبني النعاس عمدت لشيء ينفر سكونه من أهدابي، فتعمدت الاتكاء على حجر صلد وكلما ملت انغرس رأس الحجر المدبب في جسدي فأفيق، أتطلع لتلك الانحناءة الممتدة في حلق هذا الشارع كغصة لم تكتمل، من هناك تظهر أقدام الساهرين: أقدام متزنة وأقدام ثابتة، وأقدام عجلة، وأقدام متصلبة في وقفتها، وبيوت أوت على نفسها وهربت سرها من نوافذها: نوافذ مطفأة، ونوافذ تنير الجهة المطلة عليها، ونوافذ غدت منظاراً يكشف ما يجول في الليل المتباطئ، بقيت نافذة سلمى مغلقة بعد أن دست حبيبها داخل البيت ليسكت أنوثة فارت ولم تجد من يطفئ لهيبها، وهناك قطط تعبث بتكدس القمائم المتفرقة وتعبث بذاتها في تزاوج مسترخ سيخفف من موائها ويثبت سكون الليل لبعض الوقت، وهناك جرو يتبع أمه السارحة في لهاثها المستمر، أصوات خافتة تأتي من الشارع الخلفي لمجموعة مخمورة كسر الخمر نفوسهم فتشاحنوا بألسن ثقيلة، في الجهة الأخرى من الشارع توقفت شاحنة بوسط برحة تستقبل أفراح وأحزان الحي..

في عصر هذا اليوم هضمت هذه الشاحنة معظم محتويات بيت موسى الفيل، رأيت عاملاً يحمل دولاباً أذكره تماماً، سجنت داخله لعدة ساعات، فعندما تسللت في إحدى الليالي لداخل بيتهم داهمتنا أمها على حين غرة، وقبل أن تفتح لها الباب كنت أحل ضيفاً داخل ذلك الدولاب تركتني هناك لثلاث ساعات كانت كافية لأنخر بطن الدولاب بحرفينا مستخدماً قصاصة كنت أحملها معي، بعد هذه الواقعة بعدة أيام مدت يدها من النافذة وجذبت أذني:

– لماذا لم تخبرني بما فعلت داخل الدولاب كدت توقعني في حرج لولا أني تنبهت لفعلتك بالصدفة.

المصلون يعبرون مسبّحين مستغفرين، بعضهم اعتقل وقفتي هذه مراراً، في كل مرة أحاول الابتعاد عن بيتهم قبل أن يحين خروج المصلين يحدث هذا في الإجازات غالباً. . لم يكن أحد منهم يخرج لومه يتركون تقريعهم معلقاً على عيونهم أو على حواف شفاههم وأيديهم التي تتلاقى ضرب كف بكف.

يوم رحيلها لم أعد مكترثاً بأحد، مكثت أسفل نافذتها علّني أراها ثانية، طوال الليل كنت ألوم نفسي:

– لماذا لم أتقدم لخطبتها؟

قبل عام رق مزاج أمي كثيراً وهي تتطلع إلى جسدي بفرح:

– لقد غدوت رجلاً!

فاغتنمت انبساطها: ما رأيك أن تزوجيني؟

فارت ملامحها الحقيقية، وتناولت كأسا يجاورها مهددة:

– استحي على وجهك ما زلت تأكل وتشرب من جيب أبيك!

في الليل تسر لأبي بظهور فحولتي على ملابسي الداخلية فينتشي أبي كثيراً، ويسرد بطولاته حينما كان غلاماً يافعاً يجرب ذكوريته في كل ما تصل إليه يده، فتخبطه على ظهره مستقبحة حديثه، فيتضاحك باسترخاء ويحتويها بين ذراعيه:

– إذا استوت همة الرجل فلا يكسرها شيء.

وقبل أن ترد عليه يكون منشغلاً بتهدئتها كما تعوّد دائماً.

ألصق أذني بنافذتها، أتجاسر وأهمس باسمها. .

– وفاء. . وفاااااااء.

يغالبني النعاس فألوذ بالسير، ألمح بعض الفتية الساهرين وهم يجوبون جهات من فرجات هذا الشارع الممتد بانحناءته إلى الشارع العام.

فأعود كجرذ خشي من عبث صبي يتبعه بحذاء قديم، صوت أذان الفجر الأول يشق الصمت، فعدت النداء بصوت منخفض، سمعت صوت المزلاج يتحرك ببطء فتنبهت تماماً، أطلت – وجهها يشي أنها لم تنم جيداً – بقي تورد وجنتيها منتشياً، كانت تغالب دمعة وهي تتحدث:

– ها أنت تراني وأنا مستيقظة من النوم.

أشارت للشاحنة التي تقف بعيداً.

– بعد قليل ستحمل هذه الشاحنة ما تبقى لنا داخل البيت.

– هل انتهى كل شيء؟

مصت شفتيها وزادت أناملها من فوضوية شعرها:

– تصور أني لا أعرف بلدي، كنت طوال الوقت الذي يستعد فيه أبي للعودة أشعر أنه سيقتلعني من بلادي، لا أعرف بلداً غير هذه البلاد.

تجمعت دموع كثيرة في محاجرها:

– أنتم حجارة لا قلب لكم. . هكذا فجأة نغدو غرباء وعلينا الرحيل.

– لو رحلتِ سأتبعك إلى آخر الدنيا.

استقبلت جملتي بإطباق عينيها زافرة هواء ثقيلاً ران بصدرها:

– هل ترى سيارة النقل من عندك، إنها تحمل كل ما تبقى لنا في هذا البلد وحينما كان أثاثنا يرحل لجوف سيارة الشحن كنت أظن أنك تفكر في بقائي معك، أن تفعل شيئاً من أجلي. . .

صمتت للحظات، عابثة بخصلات من شعرها المنسكب على خديها:

– ماذا فعلت من أجلي؟ تقف ليلياً أمام نافذتي تسمعني الكلام، الكلام فقط.

طفرت دموعها وأغلقت النافذة مرة أخرى، وغابت.

عدت للبيت متسللاً، كانت أمي تقف على بوابة دورة المياه تغالب نعاساً ثقيلاً:

- أين كنت؟

- ذهبت لصلاة الفجر.

زفرت بجملة مقتضبة ساخرة:

- أعرف تماماً أين هي قبلتك.

- . . . . . .

- ليس لنساء الحي من حديث سوى سيرتك أنت وهذه الملعونة!!

ودخلت لتتوضأ بينما كان الباب الخارجي يعالجه أبي بمفتاحه، فدسست جسدي بين إخوتي كجثة تحن لقبر مغلق تماماً.

ربما مضت ساعتان أو ثلاث، نهضت فزعاً، قبلت يد أبي:

- أستأذنك في السفر إلى جازان؟

- ما الخبر؟

- دُعِيتُ لحضور زواج شقيق محمود.

جذبتني أمي هامسة:

- أعرف سبب سفرك، هل أخبره؟

تخلصت منها على عجل ومضيت أهيئ نفسي للسفر.

[٢٦]

سيارة النقل متخمة بعفش جُمع خلال أربعين عاماً، تم إيصاله إلى شركة النقل الجماعي ولم يعد متبقياً منهم سوى لحظات وداع تتمزق فيها الروح.

الجيران يحوطون مدخل بيتهم من كل جانب ودموع منسكبة يتبادلونها لترميم غناء انكسر ولم يعد بالإمكان إعادته لحالته الطبيعية.

في لحظات الوداع النهائية يجز شيئاً من أعماقنا فنبكيه في حينه، نعلم أن آلة حادة اجتثت شجرة قديمة علينا أن نبكي ارتطامها العنيف في داخلنا.

صعدت لمياء وأخوها في البدء، وانشغلت وفاء مع أمها في تقبيل المودعات، كانت الحارة بأجمعها تقف على تلك الدموع المتبادلة، رأيت أمي تقبّل وفاء وتنسحب للبيت، كنت أقف كعمود نور خرب تطل عليه بين الحين والآخر علها تعيد ضوءاً خفت في محاجره، وتحاول اختلاس تحية من يديها الصغيرتين كما كانت تفعل كل حين.

استبطأ أبوها صعودها لداخل السيارة المنتظرة لنقلهم فاستحثها مع أمها للصعود:

- سنتأخر على رحلة النقل الجماعي. . هيا عجلا.

تعقبتهم، في محطة النقل الجماعي انشغل أبوها بإنهاء إجراءات السفر، فأسرعت لداخل البوفيه متبضعاً ما أحتاج إليه في سفري الطويل، قذفت بمعلبات الأكلات الخفيفة إلى مؤخرة السيارة وأخذت أترقب خروج حافلتهم.

لمحتني أقف كعمود نور خرب، فتعمدت الجلوس في مؤخرة الحافلة وعلى مسيرة سبع ساعات كانت تغافلهم وتلوح بيدها من الزجاج الخلفي. . وفي كل استراحة تقف فيها الحافلة نظل نتبادل القبلات الهوائية والتلويح بالأيدي.

كان منفذ الطوال المؤدي إلى اليمن مزدحماً ونشوة اليمنيين تزداد تصاعداً، وتغدو الأصوات أكثر حدة وعدوانية، من هناك صدمتني هيئته، كان يسير بعجلة متجهاً إلى إنهاء أوراق الخروج، يسير كمن يحاول الاختباء من العيون، تبعته بعيني كان ثمة شيء مريب يتحرك مع تلك القدمين المستعجلتين في كل شيء ووجهه الغارق في نصف اختباء بترك عمامته تحجب جزءاً من ملامحه، هل أتوهم رؤية توفيق في هذا الشخص؟

أصوات متداخلة، وإنزال عفش وصعود عفش، ومساعدو السائقين يقضمون لهجتين متباينتين، وباعة وعسكر ومفتشون ومسافرون، جو غوغائي يترك في أذنيك مفردات السفر العشوائي المرتبك، تنبهت لأبيها يقف أمامي مباشرة ولهجته تقترب من الازدراء:

– ألا تستحي من وجهك؟ كل هذه المسافة وأنت تتبعنا، أعلم لو قدر لي تزويجها بحمار لما ترددت على أن أهبها لأي سعودي!!

وغيّبها بأن أجلسها في وسط المسافرين، فبعد جملته الطويلة المريرة اعتراني الحنق، وقفت أنظر إلى وجهه الدائري الضخم وكلماته تنغرس في داخلي كرصاص مركز التهديف تمزق موقعها ولا تبقي إلا لحظة صمت تحاول استيعاب موقع الجرح.

لم أجدها في مكانها، رأيت لمياء تنظر إلي صافقة بيديها ومبدية عجز حيلتها.

درت حول الحافلة، كانت عيناه تقفان لي في كل جزء منها، متوعداً أن يشق بطني قبل أن يصل إلى بلاده، انهوا إجراءات الجوازات، وتحركت الحافلة، رفعت خشبة الحدود وعبروا بوجوههم للبعيد، وعندما حاولت اختراق تلك الخشبة مقتفياً أثرها استوقفني العسكري:

– جوازك لو سمحت.

بقيت أنظر إلى تلك الحافلة وهي تمضي بعيداً، ربما تخيلت يديها الصغيرتين تلوحان بتحية الوداع الأخير.

[٢٧]

الطائرة التي تقلنا صغيرة من طراز ٧٢٧ تتجاذبها المنخفضات الجوية فتنوشها كقطعة بلاستك بين فكين شك الطبيب في مقدرتهما على القضم.. تهتز كأرجوحة تراخت حبالها وتتطوح مهتزة اهتزازاً متتالياً يثير القلق، إحدى العجائز تضع يدها على عينيها ولسانها يصرف دعوة واحدة:

– يا رب سلّم.

اعتراني خوف مفاجيء، التفت إلى مَنْ يجاورني:

– هل الوضع مطمئن؟

الوجوه اليمنية تنتح غربتها في كل الأزمان، وجهه غارق في استحلاب ذكريات قديمة، يتلبن لباناً شامياً عروق صدغيه تبدو نافرة وفكه الأسفل كمطحنة تلفت قبل الأوان، تبادلنا حديثاً مفككاً حتى غدت الكلمات تقاس بالأبعاد وخشية انزلاق اللسان بما يكدر الثقة لوصل بين راكبين جمعهما مقعدان متجاوران، اهتزاز الطائرة يربكني فأعيد السؤال على مسامعه:

– هل الوضع مطمئن؟

كان سؤالي مربكاً له على ما يبدو:

– ماذا تقصد؟

ربما ظن أنني أسخر، حاولت أن أعزز حسن ظنه:

– المطبات الجوية تجعل الطائرة لا تستقر على حال.

نتبادل سوء الظن في أحيان كثيرة، وفي الأسفار يغدو الضيف على بلد متودداً لأهلها ومادحاً لتلك البلاد حتى وإن لم يكن على وئام معها.

الذي يجاورني ينظر يتلهى بمنظري المرعوب فاتراً فمه عن نصف ابتسامة، كان تشبثي بمقعد الطائرة يغريه بمواصلة التربص بنصف عين ونصف ابتسامة:

- هل هذه أول رحلة لك إلى صنعاء؟

لم أكن قادراً على هز رأسي، فقد بدأ غثيان ثقيل يتمدد على وسادة صدري ومحاولة مستميتة لأن أبعد هاجس الاستفراغ (سيكون منظري رثاً ومدعاة للسخرية) كنت أحاول تبديد غثياني بالتصبر على انقضاء دقائق الاهتزاز بسرعة وأن تعود الطائرة لاستقرارها، اقترب التقيؤ من نفق فمي كثيراً، فامتدت يد مجاوري لجيب المقعد المقابل وأخرج كيس بلاستيك ناعماً وزودني بحبة ليمون: مصها ستذهب بغثيانك.

مددت يدي بتثاقل محاولاً ألا أحرك رأسي باتجاهه مباشرة:

- جلبتها معي خوفاً من الدوار.

تلمضتها على عجل، حموضتها تدفع غثياني لأسفل الحنجرة، أخيلة قبيحة تعترك في ذلك الرأس غير الثابت وتحوم محرضة على استرجاع حالة من اللاتزان تتساقط هنا وهناك فتبرق بها الذاكرة وتستعجل سقوطها فأشتتها بعيداً.. يغدو صوته مزعجاً:

- هل تعرف أحداً في صنعاء؟

كففت سؤاله بيد متوترة:

- أنا أحدثك حتى تنسى ما بك.

- حسناً، امنحني بعض الوقت.

- لا تقلق فالطائرة عادت لاستقرارها.

أحسست برغبة إخراج ما علق بفمي من مرارة نزت من عنق المعدة، تناولت منديلاً وألصقته بفمي فتداعت كل تلك الأخيلة لتجيش مرارة زائدة، فخطفت الكيس وتوالت هوعات متتالية سكبتها على دفعات فناولني جاري كأس ماء بارد محرضاً: اغسل وجهك ستشعر بتحسن.

تنبهت أن المجاورين لنا كانوا يرمقونني بوجوه متباينة الملامح، خجلت كثيراً حينما تلاقت عيناي بفتاة فاتنة تجلس في المقعد الموازي لمقعدي لعينيها

جاذبية تخطفك باتجاهها وشفة سفلى مرتوية وثقيلة كانت تعلق ابتسامتها وتمازح طفلاً صغيراً بجوارها ربما سمعت همسها: لا تفعل مثلما فعل هذا.

عيناها تذكرانني بتلك العينين اللتين أحرقتا كل هذا العمر، ما بال النساء اليمنيات جارحات هكذا.. استويت في مقعدي مصلحاً تلك الأضرار التي أحدثها استفراغي وحاولت أن أبرر فعلتي برفع صوتي: دائماً أسافر لكن هذه الحالة لأول مرة تحدث لي.

وألقيت نظرة على تلك الفاتنة، أعادت نقابها على وجهها وتركت عينيها تواصلان سخريتها بفتنة طاغية، قمت من فوري لدورة المياه فوجدت أن بزتي لم تعد تليق برجل تنتظره مهمة رسمية، حاولت إزالة تلك البقع الصغيرة التي استقرت على القميص، بللت مناديل عدة وفركت كل المواقع بتأنٍّ تام وقبل أن أغلق بوابة دورة المياه اتضح أن البنطال لم يعد صالحاً لأن أسير به فقد افترشت بقعة مقرشفة حوض البنطال منتهية بزوائد ممتدة من تقيؤ مر، أخرجت عنقي من باب دورة المياه راجياً الملاح إحضار حقيبتي المستقرة فوق مقعدي مباشرة، أصلحت من وضعي وعدت لكرسي وأنا أغالب خجلاً مضاعفاً ممن يجاورني من الركاب وتحديداً من تلك العينين الساخرتين، وآليت على نفسي ألا أسترق النظر إلى عينيها الحارقتين.. كان الذي يجاورني قد تبرع بإزالة بعض الرذاذ من على مقعدي مبدياً تعاطفاً ودوداً، تلعثمت باعتذاري:

- أعتذر بشدة عما سببته لك من ضيق.

- لا تقل هذا أنت ضيفنا والضيف أخ.

استرددت نشاطي ساحباً من حقيبتي رواية (أطراف الغابة) لصنين عثمان علني أنهي تفاصيلها المحتشدة بأحداثها وشخوصها، احترم مجاوري انهماكي في القراءة وحاكاني بتقليب جريدة ٢٦ سبتمبر وافتعال القراءة العميقة، لكزني بلطف فالتفت إليه لأجده يشير إلى أحد المشاريع الاستثمارية المزمع إقامتها في مدينة أب:

- لو لدينا قليل من الحظ لاستطعنا أن نستخرج البترول بكميات كبيرة ونهضنا ببلدنا.

برعونة (هذه الرعونة أحد عيوبي التي اكتشفها بعد فوات الأوان) بتلك الرعونة وتقرباً منه ادعيت قراءتي لتقرير يشير إلى أن اليمن تجلس على بحيرة من النفط مردفاً:

– الأمريكان هم السبب.

كنت أنتظر استفساره فلم تهرب من فمه كلمة بل ظلت عيناه تحدقان في وجهي باحثتين عن علاقة بين كلماتي وإرهاقي:

– نعم، قرأت بحثاً فحواه أن اليمن تجلس على بحار نفطية، واستخراجها يعني أن تتحول اليمن إلى دولة غنية والأمريكان لا يريدون يمناً غنياً.

– وماذا يعني الأمريكان من أن تتحول اليمن إلى دولة غنية؟

– عندما تصبح اليمن دولة غنية يصبح ميزان القوى في المنطقة غير متوازن.

– يا أخي ميزان قوى آيه، هل تظننا نجلس في السوق لوزن كل شيء؟

– لاحظ لو أن اليمن دولة غنية تجاورها دول متقاربة تماثلها في الغنى كالسعودية والعراق وإيران ودول الخليج، هذه الدول بغنائها ستتحول إلى كتلة اقتصادية وعسكرية وسياسية تهدد المصالح الأمريكية وسياسة الأمريكان تقتضي أن تكون بين كل دولة ودولة مجاورة لها فقر وكثافة سكانية.. تخيل معي الآن وضع دولنا العربية لتتحقق من صدق مقولتي: مصر كثافة سكانية مهولة ولا بدّ أن تظل فقيرة تليها السعودية غنية وكثافة سكانية ضئيلة تليها العراق دولة غنية وعدد سكان مرتفع.. هذا يخل بميزان المصالح ولذلك ضربت العراق لتجاورها مع دولتين غنيتين ولوجود دِين يمكن أن يجمعهم ويتغلب على المصالح السياسية لا بد وأن تُضرَب العراق أو توجد قوة موالية للأمريكان، وإيران لا بدّ أن تضرب لأنها غنية وذات كثافة سكانية، هل عرفت لماذا على اليمن أن تظل دولة فقيرة، فلو غدت اليمن دولة غنية فسوف تكون كل الكتل السياسية المتجاورة غنية وبأعداد سكانية مرتفعة ستتحول إلى غول يلتهم أمريكا.

في تنظيري السياسي السابق كنت أتعمد رفع صوتي لعلها تسمعني وتثق بأن خلف هذا المتقيئ ثقافة عميقة ومع آخر جملة تفوهت بها استرقت نظرة في

اتجاهها فلمحت أهدابها مطبقة على نوم ثقيل، شعرت بالمهانة وندمت على دلق كل تلك الكلمات المنمقة على مسامع رجل ينتهي به الأمر على مراهنة فكيه في طحن لبان انحشر بين أوداجه المتصلبة..

– لم أفهم.

– لا عليك فالمستقبل القادم سيكون لليمن.

– يا ليت.. لو جاء النفط لمنع تسرب هذه الأعداد المهولة إلى بلاد الغربة.

– اليمني تاريخه طويل فأنتم أول من رحل ومنكم خرجت العرب لكل بقاع الدنيا.

– يبدو أنها دعوة ولن يبطلها أي شيء.

أهملته وعدت لاختراق أحراش أطراف غابة صنبين عثمان، كانت الأوراق اليابسة تتقصف تحت قدمي وتلك الجلود السمراء تمتص عن جبيني أشعة الشمس الحارقة، أو تضع يدها المتشققة ساتراً من وابل انتشى على رؤوس أشجار الكاكاو وجوز الهند....قامة ما طعنت ذلك الفراغ الذي يعتلي عيني، كانت قامتها تتمايل كغصن مل الانحناء فتمدد باخضرار، ألقت علي ضوء عينيها ومخرت كسفينة أطلقت لبوقها العنان ليبشر المسافرين بقرب دخول الموانئ الحالمة، تتبعت مشيتها وهي تعبر لدورة المياه لمحت عجزيها ضامرين، بقيت مؤخرة وفاء الأكثر تمرداً وحضوراً، فحين تمشي يرتج الكون لمشيتها، وتمرر قسوتها للخلف من غير أن تقدر عباءتها على ترويض تمردها الدائم تتكور كهضاب الصحارى المستوية..

حين كنت أقف أمام بوابة مدرستها منتظراً قدومها ترميني صويحباتها بكلمات تقترب من الغزل، لتتحول هذه الكلمات الى مناوشات حين أقف أمام نافذتها:

– أخبرتني زميلتي أنك تلتهم وجهها..

– لست أحمق فأنت جامعة لكل النساء.. وإذا تطلعت في فتاة فأنا أبحث فيها عنك.

أرضاها هذا التعليل وإن أبدت غضباً حفزها لإغلاق النافذة في وجهي. .

لم يكن هذا تعليلاً، كنت - وما زلت - ألمحها موزعة على كل النساء لهذا شغفت بكل النساء، فكل امرأة تحمل شيئاً منها، ويبدو أنها عمدت إلى توزيع خصالها على كل امرأة عبرت هذا الكون، ويبدو أني في حاجة لأن أجمع نساء المعمورة لتكون هي بين يدي!!

- آه يا وفاء أكان لا بدّ من أن تحرقي كل أيامي وتتركيني أبحث عنك في كل نساء الأرض؟

[٢٨]

استغل جاري في المقعد التفاتاتي وصوّب سؤاله:

- هل تعرف أحداً في صنعاء؟

(لو يؤجل هذا السؤال قليلاً حتى تأتي. . كلنا نحاول أن نصنع من أنفسنا مادة للدهشة والإبهار، ونخلق من رفات سِيَرنا المحطمة أصناماً نسندها بادعاءات كاذبة وإن لم تكن كاذبة نضخمها حتى نصل إلى درجة الانتفاخ. .).

كان لجوجاً بسؤاله:

- هل تعرف أحداً في صنعاء؟

(لو يعلم أن الدنيا عندي غدت كلها صنعاء، وأن بهجتي كلها هنا).

- أنا لا أسمعك فأزيز الطائرة يثقل أذني. . انتظر لحظة سوف أمضغ شيئاً يذهب هذا الثقل.

التقطت حبة حلوى ومصصتها وعندما لمحتها قادمة علقت بصري بها، كنت راغباً في رؤية شفتها السفلى الحبلى بالرغبات، أحسست بعيني تخترقان حجابها فأثقلت غطاءها بإسدال طبقة ثانية على وجهها، أحسست بضراوة وفاء وعنفوانها. . يبدو أن النساء الصنعانيات متشابهات.

في حيّنا تحلّق الشباب في برحة اتسعت لكل شيء وحين تعبرهم تفز قلوبهم وعيونهم في رصد ممشاها، كانت طاغية الفتنة لا تشتري أحداً بعينيها، تمخر عباب القلوب ولا تحط بعينيها بين تلك الأهداب المتربصة بطيرانها، قاسية هي تدك الحصون وتقف كامرأة تاريخية تبحث عن كرسي يليق بعظمة تلك الفتنة.

- رفعت صوتي للذي يجاورني: عم كنت تسال؟

قلت لك: هل لك معارف في صنعاء؟

- أعرف الكثيرين هناك.

شعر بعينيّ تلاحقان جلسة تلك الفتاة فسخن دمه ولم يتحمل سخونته فصك جملة صارمة على عجل:

- اليمن ليست كما هي عليه بقية المدن الأخرى.. نحن قبليون.

وكأني لم أتنبه لمقصده رددت:

- أعلم ذلك فلي جذور يمنية ضامرة وجئت لإنعاش تلك الجذور.

- ماذا يعني انعاش؟

- لا، لا، أقصد أنني جئت مدعواً... مدعواً من الحكومة اليمنية!!

هكذا.. قطعت كلمات الحكومة تقطيعاً ثقيلاً (الحو كو مة) شعرت وأنا أقولها بزهو مبالغ فيه، تمنيت أن تسمع تلك التي صكت على وجهها قبل قليل هذا التقطيع الثقيل..ونفضت بطرف أصابعي رذاذاً تبقّى من ذلك الاستفراغ اللعين بقي عالقاً بسنادة المقعد، وأسندت ظهري بزهو سخيف نافخاً صدري في محاولة لأبدو طبيعياً ربما قفزت بمخيلتي عظمة مفتعلة، ما علق في إصبعي من نفض رذاذ التقيؤ أعاد وشوشة سيرته لمعدتي ليتحرك موج طفيف من كبرياء اعتراني إزاء تلك الليمونة التي مد بها لي الذي يجاورني:

- ضع هذه في فمك.

- لا، لا، أنا في حالة جيدة.

كنت أنتظر أن يفغر فمه وتتسع حدقتا عينيه لكونه يجالس رجلاً مهماً مدعواً من الحكومة، هذا الانتظار ضمر حين كان ردّ فعله بارداً ولم يثره البتة ذلك التقطيع المحكم لكلمة حكومة:

- أين ستنزل؟

- لا أعرف فهم ينتظروني بسيارة داخل المطار.

شعرت أن جملتي ناقصة فأكملت: ...ينتظروني بسيارة داخل أرض المطار

- من هم الذين ينتظرونك؟

- ألم أقل لك إنني مدعو من الحكومة!

حدق في ملامحي ملياً وانبثت شفته عن جملة أخذت أستفسر عنها في ما بعد: أقلك: أنت زلاخ؟

- ماذا تعني بزلاخ؟

- لا شيء..

صمت ونقل وجهه للنافذة فتعبرنا سحب كثيفة ندلف عليها فتتقطع أسفل جناح الطائرة كالعهن المنفوش..

وصلت الرسالة لتلك الفتاة كما يبدو، كانت قد أزاحت غطوتها وتنقبت والقت نظرها باتجاهي باستنكار يبدو أن لا شيء بهيأتي يمنح الناظر ظناً معززاً بأهمية القابع في مقعد خلفي يكفكف حالة تقيؤ تداهمه بين الحين والآخر.

[٢٩]

مدعو من الحكومة.

ذواتنا الخامدة ننعشها بأوصاف ومناصب تصنعها أوهامنا، بينما حقيقتنا تتكشف في أعماقنا (أعماقنا فقط)، نعرف تماماً أننا بالونات مفرغة الهواء ولا نجد متبرعاً ينفث زفيره في رؤوسنا المغلقة لنحلّق قليلاً ونهبط أسفل الأقدام بحركة دراما تكية.

نعرف هذا ومع ذلك نمعن في البحث عن سقوط تحت أي قدم مقابل أن نحلق للحظات!

في سيارتي المتهالكة أقف متلجلجاً أمام شرطي المرور ويهمد صوتي وربما ترتجف يداي ويتيبس لساني في مكانه.. هل هذه الشخصية يمكن لدعوة رسمية أن تقيم رعبها من شرطي منسي ألقي في أحد شوارع جدة المهملة..

جئت فلم أجد الغداء جاهزاً، قفزت كديك مدرب شاتماً اللحظة التي جمعتني بها، كانت منكسة رأسها وألم يتمدد بين ملامحها فيبطل ابتسامتها وصوتي يكز كأداة طبيب الأسنان جاء صوتها مجهداً:

- أنا متعبة اليوم.
- كل يوم أنت متعبة.

تذرف جملة واحدة وتصمت كعادتها تترك عينيها تسيحان في الفراغ ويدها تعبث بأقرب شيء يلامس أناملها، اقترب منها طفلها الصغير ودس فمه بأذنها فانفجرت ضاحكة:

- ما الذي تقول يا ابن الكلب؟

ذوى خلف أمه وبقيت عيناها الجميلتان تتربصان بيدي المرفوعة في الهواء:

- ماذا يقول لك هذا الجرو؟
- لا شيء.
- أنتِ وأبناؤك تتآمرون على إتلاف أعصابي... ألا يكفي ما أجده في العمل.. ماذا قال لك؟
- قلت لك لا شيء..

كان يشدها من الخلف وكلما أراد البوح قبض على فستانها:

- إذا لم تخبريني سأجعله يصرصر بالبكاء؟
- يقول إذا أردته أن يسكت فاحضري له العسكري!

كان يجاورني عندما كنت أستعطف عسكريا، وأنا أتلجلج بالكلمات، وعندما عبرنا نقطة التفتيش كان سؤاله عميقاً وبريئاً:

- لماذا تخاف من العسكري؟
- من قال لك إني أخاف منه.
- عندما تقف أمام العسكر يصبح صوتك منخفضاً وتتحدث بهدوء.
- اسكت يا ابن الكلب!
- أرأيت كيف تغير صوتك؟

أبناؤنا هم الوحيدون القادرون على اكتشاف الأقنعة التي نرتديها خارج منازلنا...

[٣٠]

- مدعو من الحكومة.

الذي يجاورني في المقعد ارتدى بدلة تخاصمت ألوانها وإن بدا في وضع متأنق إلا أن حركاته تنبئ أنه حل ضيفاً طارئاً على هذه الأناقة، يسحب ربطة عنقه بين الحين والآخر ويسدلها على صدره فلا تروق له، فيحشرها بين فتحة كوته الكاكي ذي اللون الأحمر والأرضية الصفراء تاركاً أنامله تطمئن لاستوائها، عروق صدغيه النافرة والتي لم تحتجب كما يجب أنهكها بمضغ لبان استعصى على الطحن المستمر الذي بدأه منذ إقلاع الرحلة، وكمن أراد أن يتوثق من معلومة مشوشة مال نحوي:

- قلت إنك مدعو من الحكومة!

- نعم من الحكومة. . .

- من دعاك من الحكومة؟

- من رئيس الدولة.

ترك لبانته تلوب بين فكيه واتسعت دهشته المستنكرة:

- من رئيس الدولة!!

بخبث أو بسذاجة مال إلي: لماذا لا تجلس بالدرجة الأولى ما دمت ضيفاً على الحكومة؟

- وصلتني تذكرة درجة أولى لكن الخطوط اليمنية اعتذرت لعدم وجود إمكانية إركاب في الدرجة الأولى لهذه الرحلة.

هز رأسه وصمت وربما همز بجملته التي لم أستبن معناها:

- ألم أقل لك إنك زلاخ؟

كانت جبال صنعاء (من تحتنا) تنغز خاصرة الفضاء وتتباهى بمدرجاتها الزراعية التي تتحدر من قمم تلك الجبال الأبية وعلى السفوح تلمح الرعيان وقطعان الماشية يهيمون في خضرة فاقعة، بينما دنا السحاب ليلثم قمماً تعالت في ارتفاعها.

- جدة جميلة.

قالها وهو ينظر إلى بهاء صنعاء من النافذة القريبة منه بينما كان المذيع الداخلي للرحلة يوصي بربط الأحزمة، خرط همومه فجأة: قضيت بجدة عشرين سنة، وفي كل سنة أقول: سوف أغادرها، وأعود لوطني، ولزوجتي، وفي كل مرة أعود فيها لبلدي أمكث خمسة أيام، وأغيب هائماً في شوارع جدة خمس سنوات أخرى. . . ابني الأكبر عمره الآن ستة عشر عاماً، أذاكر وجهه في تلك الأيام الخمسة التي أقضيها معهم حتى إذا عدت لجدة أجهدت مخيلتي لتذكر تفاصيل وجهه.

تنبه أنه كان في حالة هذيان مباغتة فالتفت إلي:

- نسيت أن أسألك، ماذا تعمل؟

- صحافياً.

- أنا أبيع فول بالشرفية لا أعرف القراءة جئت لجدة وعمري خمسة عشر عاماً، بقيت فيها أول مرة خمس سنوات متواصلة، وبعدها لم أستطع مغادرتها، أشعر بالغربة عندما أغادرها، وحينما حلت حرب الخليج أحسست بأني غريب على جدة، وغريب على بلدي، في تلك الأيام أخذتني النخوة، ونزحت مع النازحين، عدت لوطني الذي لم أعد أعرفه، آتي إليه بعد كل خمسة أعوام فأمكث فيه غريباً سرعان ما أحن لجدة، عندما عدت إليه بعد الحرب، كنت مقرراً البقاء معفراً بتراب بلدي، هي خمسة أيام انقضت لأكتشف أنني لن أستطيع التأقلم مع صنعاء، كنت أحس باشتياق كبير لجدة، لم أحمل معي شيئاً، قبلت مفرق رأس زوجتي وهي نائمة، وعدت لأقف خلف الفرن أقلب أقراص التميس وأدفع حنيناً آخر يجذبني لزوجتي وأولادي. . ضاع عمري بين

اشتياقين! قررت الآن أن أحمل زوجتي وأولادي ليكونوا بالقرب مني.. وأنا الآن عائد لحملهم معي.

احترمت تدفق كلماته كنت أنظر إلى وجهه الموغل في الغربة بابتسامة مرتبكة وأصغي لكلماته الحارة وشيء يعترك في داخلي على هيئة حمم. مد يده لسترة جيبه الداخلي وأخرج صورة مكرمشة تماماً:

- هذه صورة ولدي خالد.

قرّبها من بصري وشاركني التطلع إليها بهيام:

- أوصيت جده بأن لا يتركه يجول الشوارع، أوصيته أن يدخله أحسن المدارس، هو يدرس الآن وإن شاء الله يصبح طبيباً.

- إن شاء الله.

أصابني الامتعاض، واعترك داخلي بشتائم حارة لرعونتي التي تصاحبني في كل حين، لمت نفسي كثيراً أظن أن هذا اللوم ظل حبيساً في صدري، كنت أستخف بكل المقولات التي قلتها، بقيت جملة واحدة تتكرر على هيئة شتيمة أحاول إيصالها لداخلي:

- فوال تحدثه عن الإستراتيجية الأمريكية... أي غباء هذا؟

آوه لو علم الأصدقاء بهذه الحذلقة حتماً سيقرضون جلدي بنكاتهم المتطايرة.

[٣١]

التلويح شارة مخزية، فعل يصدع بناء علاقة إنسانية عمرت خلال وقت وتشابكت فيه العواطف والحكايات والذكريات.. كل هذه الأفعال تشققها تلويحة يد مباغتة بحركة آلية تشتت أزماناً وأحلاماً وأمكنة وحوادث وحكايات.. تلويحة تقول باختصار شديد: انتهى كل شيء!

فيما كانت الحافلة تعبر الحدود تبقت يدها - لست واثقاً ربما تكون يد لمياء - تلوح وتمسح كل العمر الذي جرى بيننا تمسحه بتلويحة قصيرة..

كم أكره هذه التلويحات القصيرة المباغتة..

بقيت المضيفة الأنثى الوحيدة المتبرجة تلتقطها عيون المسافرين وتدس جسدها في مخيلتها في علاقة محمومة، لم تكترث كثيراً بنهب عيوننا لمفاتنها التي تتكشف في حركاتها العجلة، تركت ابتسامتها الساخرة وعيناها الزرقاوين الشبيهتين بعيني قطة رومية تجولان بوميض باهت مخففة من بث ضوئها على تلك الوجوه الكالحة وزاهدة من فئران تحرشوا بوبرها فأشاحت عنهم بأنفة وكبرياء مقيتين، يبدو أن وجوهنا جميعاً لم تثر شهيتها بالتحديق أو الملاطفة هذا إذا لم نكن باعثين لتقززها واشمئزازها من لحظات غزل عابرة.. أو أنها كانت تخشى أن يكون الشبان الثلاثة قد عادوا إلى داخل الطائرة متربصين بحركاتها ليؤكدوا كفرها من خلال حركاتها!!

جسدها الوحيد الذي تبرأ من الأغلال السوداء التي اتشحت بها كل النساء اللاتي يقتعدن مقاعدهن داخل كبينة الطائرة، جسد بض وافر الطلاوة واللمعان، بياض زنديها يذكرك بأن جلدك اتسخ بقاذورات الأرحام قبل أن يعرض لنسمة الحياة وعبرها بلون تفتضح أصباغه حين يقارن بمثل هذا الزند

المعشش به زغب اشتكى من وهن عتيد، بياض لامع تحط عليه رغبات لزجة فتنفضه بتعال سافر، بقي جسدها مستباحاً للجميع تنهبه عيوننا من غير أن تكترث للسعات جمراتها أو تحتاط من سرقة ماء نهر نهديها، حين كانت تنثني لتقديم وجبتنا أو تلبي طلباً لأحدنا لم تكن لتستر شرخاً فلق جبلين عصيين وبقي لامعاً كبرق تحجر في محاجر تبحث عن غيثه ليطفئ لظى عطش علق في أسقف حناجرنا.

كان مقعدي يطل على مجرى الطريق الذي تقطعه في ذهابها وإيابها، وكلما عبرتني احتكت مؤخرتها بمرفقي فأشعر بالحرج.. اقتربت مني وهي تبث ابتسامتها حاولت أن تطلق جملتها بالعربية لتتلافى تعطيلاً يمكن أن أحدثه بلغتي المتداعية:

– لو سمحت اربط الحزام.

تدحرجت الطائرة على المدرج بصوت ثاقب يصم الآذان وظلت تتدحرج لبعض الوقت بينما كانت عيناي مثبتتين على تلك الفتاة وهي تصلح زينتها وقد بدأت أكثر جمالاً وقد تحلقت على خديها خصلات شعر فاحم السواد منحتني نظرة خاطفة وأمعنت في غوايتها بتمرير الروج (أحمر الشفاه) على شفتيها مهملة نظراتي المركزة، تخلصت تلك القامات المربوطة من أحزمتها ونهضت لحمل حقائبها المستقرة فوق هاماتها بينما كانت المضيفة تعلق بصرها من خلال النافذة مترقبة وصول السلم، ارتفع صوت المضيف الداخلي عبر الميكروفون مردداً اسمي ومطالباً بتعريف نفسي لملاحي الطائرة.

في تلك الهوجة صرخت بصورة غير لائقة:

– ها أنا هنا.

رافعاً يدي، وناهضاً من مقعدي بصورة غير لائقة بتاتاً.

التقت عيني بعين تلك الفتاة الحارقة، هذه المرة كانت عيناها أكثر اتساعاً ولمعاناً، سار شاب في ممر الطائرة حاملاً يافطة متوسطة الحجم كتب عليها اسمي، وفي زاوية من تلك اللوحة كتبت التشريفات الجمهورية..

توالت تصرفاتي غير اللائقة بإظهار التأفف من بعض الركاب المتسابقين

على مخرج الطائرة، تقدم الشاب معتذراً عن اللبس الذي حدث بالنسبة لأمر الاركاب، غمغمت بكلمات عجلة وغير منسقة، فاصطحبني لمقدمة الكبينة فمنحني الملاحون أولوية النزول، عندما هبطت كانت ثمة سيارة تقف عند مقدمة الطائرة لأجد باب السيارة يفتح فدسست جسدي قابعاً خلف مقعد السائق مباشرة، فألقيت بصري نحو الركاب المتجهين للباص الذي سيقلهم إلى الصالات الداخلية لمحت عينيها معلقة بي وقد ازداد اتساعهما، وكانت يد من يجاورني تلوح لي مودعة وابتسامته تنطلق كعصفور حائر بين التحليق والهبوط.

[٣٢]

يلفحني هواء صنعاء، فانتشيت كطائر وليد اكتشف فجأة أنه يبسط جناحيه ويرفرف معتلياً الأماكن ومتملكاً كل ذلك الفضاء.

صنعاء هذه التفاحة التي تتدلى في أعماقي وتخفق في كل حين.

كيف تتحول الأماكن إلى لوعة وحنين تنخس أيامك وتستفزها لأن تبحر الى الشوارع والمتاجر والمطارات، والمراقص والمسارح ودور السينما وتستعذب اللهجة وتعشق الوجوه القادمة من هناك وتصفف وتفرش الخارطة لتتعرف الى ما يجاور ذلك المكان.

(ما الذي يحملنا على كل هذا؟ هل الحب يثبت جذورنا في الأمكنة؟).

قبل رحيلها بأيام كانت على غير عادتها قالت كلاماً مالحاً:

– أنتم شعب مغرور أشبه بشعب اليهود، فهم يرون أن لا أحد يمتلك الحقيقة سواهم وأنتم كذلك.

وعندما رأتني صامتاً: ألا توافقني؟

وعلى عجل هززت رأسي مؤمناً على مقولتها: نعم نحن يهود!

ما بالنا نستسلم لأحبائنا ونذعن لكل مقولاتهم ولا نحاول أن نقف في مجرى كلماتهم؟

تنحدر أصول أمي من مرتفعات جبال السروات، وفي أحيان كثيرة كنت أسمع أبي يقلل من أصولها حين يشب بينهما التفاخر بعروقهما وقبل أن يمتد غضبها بعيدا يكون قد حط من شأن كل المخلوقات ولم يعد في البشرية من أنقياء سوى دم أسلافها فتضحك حتى تدمع عيناها وتنهض لتسوية غرفة النوم كما فعلت في أول ليلة من عرسها.

[٣٣]

ليل بارد.

الليل في صنعاء فارس جاثم كرطوبة جدة.. آه جدة، هناك الوجوه الأليفة وصوصوة أطفال ظنوا أنهم كلاب مرقشة، فهزوا رؤوسهم على أنها ذيل غليظ ضمر في سجن رولا درافيل!!

في جدة تمضغ الضجر والأماني تتثال بين شقوق أيامك في كل حين تتمنى أن تحلق بعيداً عن بحرها الذي لا يرى، أن تتخلص من شوارعها الخلفية الضيقة المنسية والتي تنفث ذكرياتك العذبة، تحلم بأن ترى مدناً أخرى تحس برغبة جامحة لأن تجلس في الحسين وترى القاهرة وكأنها خرجت للتو من البلاط الفاطمي، في جدة ترغب في أن تهجر ماءها المالح وتقف على منحدرات الجبل لترى دمشق تنبسط تحت ضوء عينيك وترى الخلفاء الأمويين يتخطفهم الموت وأنت سادر في غيك ومتلذذاً بالجواري اللاتي جلبن من فارس وبيزنطة، ترغب في ترك شوارعها الخلفية وتقف على نهر بردى ذلك النهر الذي حمله العشاق والشعراء وشربوا ماءه حتى نضب ولم يعد باقياً منه إلا اسم يثير لواعج الهوى الدفين أو تتمحك برغبة رؤية الجمال الفاتن على الروشة حيث النساء الفاتنات متناسياً دمار الحرب الأهلية والأيدي التي أشعلت الحرب الهوجاء، هناك النساء كالفضة التي جمعت من كل بقاع الأرض واحتكرتها بيروت، نساء في بيروت تتذكر نعيم الجنة، والحوريات اللاتي سيأتينك راغبات خاضعات متهيئات لتحويلك إلى كائن ممتع، وفي تلك الفنادق المطلة على بحرها الذي هرب من حرب أهلية ضروس يحق لك أن تمتشق غريزتك وتودعها مستودعاً مستأجراً لساعات كسلى بالخدر والنشوة..

هذه المدن تذكرك دائماً بالحلم الذي كان عليك أن تنجزه من وقت مبكر،

هذا الحلم الذي استبقيته رهين أعماقك الآسنة والتي تلوثت بالعمل والزوجة والأبناء وواجبات اجتماعية سخيفة، كل هذه الأغلال تحولك إلى كلب وديع مستأنس تربض تحت تلك الأقدام لاهثاً منتظراً أدنى إشارة تبدر من أي إصبع لكي تنبح أو تهرول هنا وهناك، هذه العبودية التي اشتريت طوقها بمالك الخاص وباختيار تام تغدو حبيسها، أسيرها الأوحد في معركة قمت بتحديد ساعة الصفر بها ومع انطلاقتها كنت تقاد بسلسلة طويلة من الواجب.

ويغدو الخروج من جدة عذاباً والبقاء فيها عذاباً، وحين يزورك حلم الخروج، تخرج فيداهمك الليل في المدن الأخرى وتأتيك تلك الغصة تنحر حنجرتك وتستقر قريباً من القلب.. تذكرك أنك تلهث بعيداً عن تلك الأقدام التي اخترتها!!

أوصاني المندوب الإعلامي قبل أن أصعد لغرفتي بجملة لم أكن أنتظرها:

- عليك أن تنام فغداً صباحاً يبدأ المؤتمر.

يجافيني النوم في كل مكان أصل إليه، كغريب عليه أن يتدبر أين يضع رحاله وأمانيه، لم أتعود النوم مبكراً، فأنا حارس الفجر لا أنام حتى أسلمه لنهاره وأتوثق أنه استلمه كاملاً بقمره ونجومه وغبشه وحين تشعل الشمس شرارتها في المدى أغمض أجفاني غير مكترث بالتضجرات التي تمتلئ بها أشداق أمي، وعندما تفيض حسراتها تنثرها على رأسي على شكل دعوات محمومة أن يرحمني الله من مغبة السهر، فقد كانت تبطن الشك لسيرة فتى غدا ممهوراً بالليل وأغاني العشاق وتعرف من جاراتها أن مثل هؤلاء الملتاعين طريقهم الغواية والوقوف في الشوارع الضيقة وهم يغالبون سكراً أكل ألبابهم أو مخدراً عطل قدراتهم وقادهم لإدمان السير في الطرق المؤدية للسجون القريبة والبعيدة.

وعندما اقترنت بامرأة أخرى أصيبت بالفجعية من زوج لا يرغب في المكوث معها ويظل طوال الليل يعبث بجهاز التسجيل ويطلق تأوهاته مع تلك الأغاني التي تقف في طرق الشباب وتضرم لهيب الشوق في جوانحهم، وظلت لزمن تتسل منه الكلمات علها تكتشف من أحرق قلبه وتركه نهباً لليل والأغاني الحارقة وعندما ملت ألفت النوم على أغانيه المهيجة لذكريات دفينة يعبّر عنها بآهات مديدة.

[٣٤]

- عليك أن تنام فغداً صباحاً يبدأ المؤتمر.

وددت لو أن أُخرس وصيته بصوت حانق:

- كيف أنام في صنعاء التي انتظرتها طويلاً.

بدأ المساء رتيباً، عندما عبرت بي السيارة ممر المطار لتنعطف وتقف أمام صالة كبار الزوار، الأماكن الرسمية تجلب الملل وتستنهض خصلة النفاق، تخشبت في كرسي فخم رشت مسانده وخلفيته بقشرة ذات لون ذهبي، هذا الكرسي يحمل طبيعة السياسة، طبيعة المواقف السياسية، طبيعة الأماكن التي تفرز الأحداث، كراسٍ ترش بماء ذهب زائف، كالسياسة تماماً كلها كلام زائف، احتسيت كأس البرتقال، وجوه كثيرة تشابهني سمرت في كراسيها وأبقت عيوناً تجول كمؤشر بوصلة أصابه العطب، وجوه علقت ابتسامة رشت بماء زائف.. تمنيت لو أنني أستطيع اللحاق بعين تلك الفاتنة التي كانت تجاورني في مقصورة الركاب، هذا الخاطر الأرعن كاد يوقعني في حرج لا يليق بمدعو أن يرتكبه فقد أصررت على الذهاب إلى صالة المسافرين القادمين من غير أن أبدي سبباً واضحاً، وقد ارتبك المندوب الإعلامي إزاء هذا الطلب مظهراً استعداده لتلبية أي أمر أحتاج إليه، وبنفس ثورة الحماسة التي اعترتني تراجعت مبدياً سوء تقدير لِما أنا عليه.

في بهو الفندق كانت جموع غفيرة متواجدة في حركة دائمة، أنجز المندوب أوراقي الخاصة ومنحني مفتاح غرفتي واتجه إلى اللجنة الإعلامية. في الجزء الأيمن من بهو الفندق انكبت مجموعة فتيات منقبات على كتابة أوراق وتجهيز ملفات متعددة الألوان تخص ضيوف المؤتمر، حملت حقيبتي واتجهت إلى المصعد

وقبل أن أصل إلى البوابة رأيت فتاة تسير كحمامة.. آه هذه مشيتها حتى اهتزاز وركيها واحتضانها لجذعها الأعلى بيدها اليمني التفت متابعاً مشيتها اندست بين الفتيات المنقبات وغابت في ذلك السواد، هل يعقل أن أجدها بهذه السرعة، (أعلم بأني مصاب بمس يحيل كل النساء لصورة جانبية لوفاء، فكل امرأة أجد فيها شيئاً منها، ربما توهمت أن مشية هذه الفتاة تتطابق مع مشية وفاء)

تحركت متوجهاً إلى حيث كانت ولكنني تراجعت بعد أن تذكرت ما أحدثه التقيؤ من تعكير هيئتي ولم أكن مطمئناً للآثار التي تركها في جهات متفرقة من أطرافي، كنت أشك في صلاح هذه الهيئة لاستقبال أي فتاة، فكيف لو كانت هي بعينها.

صعدت على عجل، وتحسست جيبي أخرجت تلك القصاصة التي دونت بها رقم هاتف الجحش وجرت يدي على الأرقام المثبتة في قاعدة الهاتف، جرس يرن في مكان ما من صنعاء، يرن كجرس كنيسة مهجورة، يبقى رنين لا يستجيب له أي عابد، تواصل الرنين حتى مل واستبدل رنينه بنغمات متقطعة وسريعة. أعدت المحاولة رنين الهاتف يتمدد في مكان ما من صنعاء ينادي عليها فلا تجيب، تذكرت تلك المشية الشبيهة بمشيتها، فاغتسلت، وارتديت بدلة جديدة على عجل ونزلت.

كانت الفتيات ما زلن مواظبات على عملهن من غير أن يلتفتن للقادمين، وقفت على رؤوسهن، ماذا عساني أن أقول: هل أسألهن عنها؟.. ها أنا ادخل في التصرفات الرعناء، في كل خطواتي ثمة رعونة تتوالد وتتكاثر مخلفة أفعالاً تقلل من المهابة والاحترام، وطدت نفسي علي أن أبدو متزناً فأنا هنا أحمل اسم بلادي وبجانبها وعي حضاري كصحافي يجب أن يكون مقنعاً في كثير من تصرفاته وأحاديثه حتى وإن كان تصرفاً زائفاً، كلنا نحتاج إلى ماء الذهب الزائف لنصنع بريقاً لحضورنا، تراجعت بينما كانت إحداهن تعتقل قامتي الواقفة على رؤوسهن ببلادة فوجهت سؤالها بلهجة يمنية صرفة:

- هل أستطيع أن أقدم لك خدمة؟
- كنت أحتاج إلى مفردات الحفل.

- سنوصل كل ما تحتاج إليه إلى غرفتك.

وأعادت غرس رأسها بين تلك الأوراق الكثيفة، توجهت إلى أحد النادلين متودداً فأبدى استعدادا لخدمتي قلت على حياء:

- ثمة فتاة هنا أظن أني أعرفها هل يمكن لك أن تساعدني في معرفة عنوانها.

انتفض فجأة وقرض على أسنانه مغتاظاً:

- لو أنا قواد لما رأيتني على هذا الحال.

عدت أجر قدميّ للجلوس على أحد الكراسي المطلة على الخارج ومن خلف زجاج البهو تبدو صنعاء شاحبة، لا يوجد هنا سوى الضيوف والعاملين بالفندق ومجموعة من رجال القصر الرئاسي والإعلاميين بينما أهل اليمن يظهرون من خلف ذلك الزجاج السميك كهياكل تمعن في البعد..

[٣٥]

جذبني أحد المندوبين الإعلاميين في تعارف سريع ببعض ضيوف المهرجان من الإعلاميين العرب، كل الأسماء لا تمسك بها، ويصبح من الإحراج أن تطالب أحدهم بأن يعيد ترديد اسمه فتجد في كلمة يا أستاذ مخرجاً لطيفاً لضيق أفق ذاكرتك فالألقاب لها فوائد في مثل هذه الحالات.

هذا اللقب ليس منجاة على أية حال، فهناك أكاديميون يرون أن مناداتهم بلقب أستاذ يعد نقيصة لمكانتهم العلمية، وحين يصبحون بروفيسورات يطالبون بمناداتهم: الأستاذ الدكتور. . ومثل هؤلاء ليسوا ذوي جدوى.

من ذلك التعارف السريع استطاعت ذاكرتي أن تقبض على ثلاثة أسماء: اسمي أول شخص وآخر شخص: أنور وعمر، وسلوى هو الاسم الثالث للأنثى الوحيدة في هذا الوفد.

تتدلى كاميرا متطورة من عنق عمر فتستوي كقلادة توسطت صدره العريض، قامته الفارعة ونظراته الفاحصة تشعرك بأن الحياة تجري في جميع عروقه، وأن هذا السكون يتكوم على وجهه كالنفايات المكدسة فتجرفها ضحكاته ككاسحة مهمتها إبقاء الحياة منتشية راقصة بين شفتيه، وجّه حديثه إلينا من غير تحديد شخص بعينه:

- أليس هناك ما نعمله سوى الانتظار؟

كانت مجموعة الوفود لا تزال منغلقة فقوبلت جملته بالتحديق في وجهه من غير أن يجد رداً، فأردف:

- نريد أن نخرج.

رد مندوب الإعلام ضاحكاً: إلى أين يا أستاذ عمر. .

- إلى أي مكان فهنا الهواء معلب. .

حاول المندوب الإعلامي أن يوازن بين كلماته:

- صنعاء ليست كالقاهرة أو بيروت، فصنعاء تنام مبكراً.

كل تلك الفتنة تنام مبكراً، هل يعقل أن ينام قصر غمدان والقليص، وعرش بلقيس والبردوني والمقالح وشجر القات وأن تأوي أسوار وقلاع الإمام للنوم بعد ثورة فتحت كل الأبواب؟ هل يعقل أن تنام صنعاء في هذه الساعة من غير أن تستذكر آلاف السنوات. .؟ ألم تشبع من النوم الطويل في حضن الإمامية؟

الغياب لا يعني الإلغاء، نحن الذين نغيب الأشياء ونستحضرها، نحن أقلام تكتب ما تشاء وتمحي ما تشاء، ثلاث نساء استحضرهن دفعة واحدة: زوجتي ووفاء وسلوى. . تحضر اثنتان منهن، وتغيب سلوى مع أنها حاضرة أمامي لكنها غائبة في حضورها. .

كانت تتمحك بي: لو كنا خارج هذا المكان سيكون الوقت أجمل.

نتبادل المماحكة، أعمق الكلمات الجارحة في أعماقها، وأثور حين يمسني لسانها، كانت تبحث في كل سنوات زواجنا عن تلك المرأة التي أحرقت مستقبلها برجل شاركها حياتها بنصف قلب محروق، كانت تبحث عن وسيلة تبقي هذا النصف حياً معها على أقل تقدير، وفي كل مرة تكتشف أنها استلمته كائناً منتهي الصلاحية:

- لماذا لا أكون معك في سفراتك المتلاحقة؟

في كل سفرة أحمل فيها حقائبي هرباً من هذه الأوتاد وبحثاً عن سفينتها التي شقت البحار وتركتني كراكب أخرق نسيته على إحدى الموانئ من غير أن تفطن أنها نسيت قبطانها، أسعى في كل سفرة أن أكون وحيداً علني أجدها راسية في ميناء من الموانئ التي أجوبها بحثاً عنها. .

- لماذا لا أكون معك في سفراتك المتلاحقة؟

أثور عليها فتعتصم بصمتها منكسة رأسها عابثة بأناملها أي شيء يجاورها.

قبل عام تماماً انفجرت براكينها، قذفت بحممها في كل مكان، لم تعد

تلك الساكنة التي تعبث بأناملها بأي شيء يجاورها غدت صورة لأمها، صورة مستفزة تألب داخلي لأن يحرق كل الحطب الذي هيأه لإشعال جسد جعدة - كما كنت أشتهي دائماً - حملت سكيناً صغيراً في يدها، وأمسكت بثيابي مهددة:

- سأقتلك إن خرجت!

- دعيني أمضي فوقت الرحلة أزف.

لن تمضي قبل أن أقتلك، أو تطلقني.

طلقة الرصاص تحتاج إلى الضغط على الزناد فقط لتمضي مخترقة الأجساد والكون معاً.. شددت شعرها بعنف:

- أنت طالق.. طالق!!

كان هواء ثقيل يعبر المكان، فيعبث بكل شيء، ويتساقط كل شيء..

الآن وكلما حزمت حقائب السفر أغلق باب شقتي بهدوء بعد أن أودع أطفالي عند جدتهم، وأمضي نحو أمل يغور في تضاريس اليمن.

ها أنا في ميناء صنعاء، أتلفت في كل الوجوه علني أصطادها، وجبروتها ينز من كلماتها القديمة:

أنا ابنة حضارة موغلة في الزمن أما أنت فجذورك رخوة.

لماذا نرتد لمئات السنين فجأة.. نرتد للعروق بينما الأوراق متيبسة جافة..

ها أنا في عمق الحضارة التي تحدثت عنها ألاحق حنيناً قديماً وأهرب منه فيه..

وها هي سلوى الحاضرة الغائبة تبحث عن مكان تنحر فيه مللها، اسمها الشاعري يعوضها عن تلك الدمامة التي أشعرتنا أننا ما زلنا نبحث عن أنثى تطري هذا الجفاف الذي يغتالنا في مدينة الجمال، أجمل شيء أن تشاهدها من الخلف فمؤخرتها المتوترة وشعرها المظفر على هيئة حية يجلد فحولتك ويدفعك لأن تحسن هندامك وتختار الكلمات التي لم تأت على لسان لتتحدث مع هذه المهرة المدبرة وستترجل - في الحال - عن صهوة الكلمات بمجرد رؤيتها وستشعر معها بألفة الرجال ولن تخشى على نفسك لو تركت أنت وهي في

مكان موحش فربما استطاعت أن تتحمل عنك مشقة الخروج من كل الكوارث بذلك الوجه الفظ وكأنها استعارته لمثل هذه المهمات..

تنحى بعض المندوبين الإعلاميين للتشاور في خروجنا، كان يتنابهم إحراج من عدم تلبية طلبنا الأول، ولم نخفف من هذا الحرج بل صعدنا طلبنا بتصميم تردد على مسامع الكثير منهم، وبسبب ذلك التصميم اجتمعوا وتناقشوا وقرروا تلبية رغباتنا الأولى...

وتوقفوا لاسترضاء فاروق ليصاحبنا في نزهتنا الليلية، جلس على مقعده في بهو الفندق كتمساح هرم يتشمس من ماء آسن بلل حراشفه وترك له جلداً رطباً، بدت ملامحه ناضجة لم يصبها التأكسد رغم أنه غمر بستين عاماً أو أكثر، تمنع في مقعده متحدثاً عن خشيته من فورة الاختطافات التي يشهدها اليمن وحمل الأفغان العرب مسؤولية تلك الاختطافات لفرض وجودهم كقوة مؤثرة من خلال اختطاف الأوروبيين ليخلق لهم ثقلاً سياسياً.. هذا التعليل كان مقدمة، اعتذاراً من فاروق بانعدام الرغبة بالخروج مع المجموعة، لزوجة سلوى وحرصها على مرافقته ضخمت نفوري منها حيث دلقت جملة إطراء طويلة له كأستاذ تعلمت على يديه فنون الصحافة، لزوجتها اتضحت من ترديد سؤالها الذي لم يتنبه لاعتذاره وحذره من مغامرة تعيده للماء الآسن:

- أستاذ فاروق ستكون نزهتنا لا قيمة لها لو لم تكن معنا.

- يا ماما لدي حفيدة جميلة أريد أن أشاهد عرسها.

تدخل عادل (صحافي أردني أنهى مهمته الصحفية مع أول يوم للمهرجان وعاد لعمان تلبية لمهاتفة تخبره بضرورة اللحاق بروح أمه قبل أن تصعد إلى السماء) تدخل عادل في الحديث:

- وما علاقة عرس حفيدتك والخروج؟

مسح على ذراعه اليمنى وعلق ابتسامته في وجوه المحيطين به:

- ألم تسمع بالاختطافات الحادثة؟

عقب عمر:

- هي فرصة للخروج بضربة صحفية.

ساعتها لن تفكر في صحيفتك ستفكر في أطفالك وأحبائك الذين يذوبون أمام شاشات التلفاز لرؤيتك سليماً.

تحولت مرافقة فاروق في نزهتنا إلى مهمة تبرع الجميع لثنيه عن تمنعه الثقيل. . . .

- أستاذ فاروق لا تضخم الأمور.

- أنا هكذا.

- الخاطفون لا يستهدفون العرب بأي حال من الأحوال.

- ربما سحنتي تخبرهم بأني أرمني. . أو ألماني ساعتها لن تجدي لغتي في إثبات هويتي!

قفزت سلوى من مكانها: أستاذ فاروق أخفتني على نفسي فسحنتي تدل على أني أوروبية.

تطلع إليها عمر بنصف ابتسامة، شعرت بعدوانية مبكرة معها، خذلني لساني بإخراج ما يموج في داخلي:

- سحنتك لا تدل على أنك من أي مدينة على الأرض!!

- ماذا تقصد؟

كدت أفجر خصاماً لا داعي له، فاستدركت على الفور:

- أنت خليط من أجناس متعددة، ولن يلمح أحد أنك من هنا أو هنا ربما شعرك فقط يدل على أنك امرأة!

- هل هذه شتيمة؟

- لا، أبداً.

تدخّل عمر ليدفعنا جميعاً: السيارة تنتظرنا.

تحركنا ويد فاروق ما زالت تمسح جلده الرطب، وقد استقر على طاولته فنجان قهوة تركية من دون سكّر، وبقيت عين سلوى تنتزعه من مقعده برجاء أخير.

[٣٦]

صعدنا إلى الحافلة واستقر كل منا في مكانه وحرص بعضنا أن يكون مقعده مطلاً على الشارع، وقف مندوب الإعلام حائراً: أين تودون الذهاب؟

- إلى أي مكان نشاهد فيه صنعاء.

ربما اشتركنا جميعاً في التلفظ بالجملة السابقة، تشاور مندوب الإعلام مع سائق الحافلة واتفقا على الذهاب إلى جبل عصرية.

أحاديث متداخلة بين الوفود وحكايات تعارف تكشف حجم البالونات التي نحملها في داخلنا عن هذه الذات.

كان يجاورني أنور، صحافي يعمل بجريدة إماراتية غادر سوريا منذ خمسة عشر عاماً أو أكثر. انثالت الحكايات بيننا وتوثقت معرفة الأسماء وتفاصيل مبعثرة من حياة كل منا.

من خلال منعطفات عديدة وقفنا فوق جبل عصرية وصنعاء من تحتنا تغطي بردائها نصف جذعها وتتهيأ للنوم. . ها هي صنعاء التي انتظرتها زمناً طويلاً كي أركض في أوردتها ها هي تنام مبكراً غير مكترثة بهذا العاشق الذي جاء ينقب في فساتينها عن عبق العشاق ويرتق في ذاكرته كل حكايات التاريخ التي ازدحمت في مخيلته، وها هي بلقيس تغادر عرشها من غير أن تلتفت لمن انحنى أمام عرشها. . ها هي تتصرف كالملوك تمضي دون اعتذار وتتركك في بلاطها كل العشاق يتلون قصائد هوى أحرقت الحشايا، تتركهم متناثرين كالمستجدين يمدون أيديهم وألسنتهم من غير أن يجدوا عطاء لكل تسولهم.

لا بدّ من صنعاء وإن طال السفر

ها هي قريبة بعيدة، باردة نائمة. .

عياش يحب عدن أكثر من صنعاء، يرى صنعاء مدينة صخرية ولدت قلوباً جافة كصخورها التي تطاولت بسيقانها وفروعها حتى غدت ثمرة ناضجة تمتع الإمام بلذتها الطازجة وأبقاها سنوات طويلة بين نواجذه وعندما أسقطه السلال من هذه المتعة كانت تلك الثمرة نصف ثمرة تخشى من أن تصل الفطريات لقضم ما تبقى منها.

السائق يبدو حذراً فقد تركنا نقف على جبل عصرية بينما أخذ يمرر عباراته المتخوفة:

- نحن في مكان يمكن الخاطفين من جرّنا كالأغنام..

مغامرة شيقة.. كنت أمنّي النفس بحدوث مثل هذا، ماذا لو خطفنا سوف تتناقل وسائل الإعلام خبر اختطافنا وستعرف أنني جئت أبحث عنها فوقعت في شرك الخاطفين، هذا الشعور اللذيذ استشوك فالإعلام العربي لا يذكر أسماء الخاطفين وليس هناك إعلامي ميداني يجرؤ على الذهاب إلى معسكر الخاطفين وأخذ صور حية للمختطفين وبهذا تكون مغامرة حمقاء لو حدثت..

مقولة السائق حركت الرعب في قلوب بعض الإعلاميين ونشطت فكرة العودة سالمين قبل حدوث ما لا يمكن تداركه..

إبراهيم المؤذن هل أجده هنا، هل سيكون برفقته ياسين، خلال السنوات الماضيات كانت تأتي سيرتهما عبر تناقل أخبارهم من بعض العائدين من أفغانستان، أخبار عديدة آخرها أن إبراهيم المؤذن توجه لليمن بعد أن حاولت باكستان تسليمه للسعودية، فهرب متخفياً لليمن وأهله يجزمون أنه في السودان، فهل تحول إلى خاطف؟

وياسين هل انقلب على الأمريكان الذين حملوه من حي بائس ليكون ربيباً لهم فإذا به ينكص من هناك بحثاً عن شعر أشقر ليشبعه طعناً.. اختلف زمن الطعن فحين كنا نتعلق بفروع الشجر مطلين على السفارة الأمريكية، كان ياسين يبحث عن جسد لدن يطعنه للمتعة أما الآن فهو زمن الطعن المستوحش!

لا، لا، المسألة ليست كما أفكر فيها مستسلماً لتلوث الإعلامي الذي نقرأه كل يوم...

ربما يكونان هنا، يبحثان عن حياة تبعدهما عن الزنازين.. ياسين تزوج بامرأة أفغانية وخلف ابناً يبحث عن جنسية أي دولة يمكن أن تقبل بضم نسل الأفغان العرب لمواطنيها..

عادت سيرة إبراهيم المؤذن وياسين على ألسن أهل الحي مع تفجرات الخبر، قيل إنهما ضالعان في العملية، وان أجهزة الأمن تترصدهما بعد أن فرا إلى اليمن أو السودان، وحين كان العم جابر يقتاد حفيده بحثاً عن منزل ينزل به حفيده وزوجة ابنه كانت خشية أهل الحي أكبر من مجاملته، فعرج على عثمان الوردي الذي منحهما نزلاً بسيطاً في عمارته الآيلة للسقوط.

أعاد السائق جملته لتعميق الخشية في قلوبنا:

- بصدق أخبركم أننا في منطقة تسهل مهمة الخاطفين من جرنا كالأغنام.

صرخت سلوى بصوت ثاقب:

- عودوا بنا للفندق فأنا أخشى على نفسي.

قلل أنور من جزعها مفترضاً أننا في مهمة صحفية في أرض معركة بلا جنود..

فصرت كآلة حديد صدئة: عودوا بنا للفندق.

وجد المندوب الإعلامي في صراخها فرصة سانحة لثني رغباتنا من أن تمتد لأطراف أخرى من صنعاء:

- السيدة سلوى على حق علينا أن نعود للفندق.

أعطى إشارة للسائق بالتحرك، فعادت السيارة تتمايل هابطة من ذلك المرتفع بينما ظل الحديث فتياً عن جمال هذه المدينة النائمة التي تتقلب متبرجة من غير أن يمسسها بشر.

كانت الحافلة تتهادى في نزولها ومع عتمة المكان ألمح أشباح الأفغان العرب مزروعين في أماكن متفرقة من ذلك الجبل، ألمحهم يهلون كأسراب الجراد، يعترضون سياراتنا.. وقف ياسين بين أهدابي معتمراً بعصابة حمراء حاملاً رشاشاً متمتماً بأدعية لا تسمع.. لمحته يسوقنا أمامه كالأغنام السائبة.

[٣٧]

وصلنا إلى ردهة فندق تاج سبأ وانسلّ الكثيرون إلى غرفهم، بقيت مع عمر أنور ومحمود فاقتعدنا مقاعد مجاورة لرجل الاستقبال (رجل هندي في كامل قيافته يبدو أن مهمته الأساسية أن تظل شفتاه منفرجتين مبيّنتين وداً زائفاً يرسله في اتجاهنا كلما تلاقت عيوننا) تلفّت عمر كثيراً في زوايا اللوبي مبدياً ضجراً زائداً:

– لم أكن أتوقع أن تستقبل صنعاء ليلها بهذا البرود..

محمود كائن حكائي يعشق الحديث لينثر عليه ملح روحه الحلوة:

لنجلس نتحدث قليلاً ويصعد كل منا إلى غرفته متى ما مل من الحديث أو نازعته رغبة النوم.

صحت بضيق يقترب من ضيق عمر:

– حديث.. كل حياتنا أحاديث فماذا حصدنا منها إلى الآن؟

هدأ عمر صلصلة ضيقي محدثاً المجموعة: سأتيكم بخبر فانتظروا.

تحرك عمر باتجاه رجل الاستقبال متودداً، فتلقاه بابتسامته الزائفة مرحباً ومبدياً استعداده لخدمته:

– أنا وزملائي يجافينا النوم.. ألا يوجد مكان نقضي فيه هذا الليل؟

– هناك صالة في الدور الأرضي توجد فيها فرقة فيليبينية تؤدي وصلات غنائية.

– وصلات غنائية ولماذا لم يخبرنا أحد بهذه النعمة!!

أطلق عامل الاستقبال ابتسامته هازاً رأسه ومبدياً احتراماً فائقاً لتلك الجملة التي أطلقها عمر بلهجته السودانية من غير أن يفهم معناها، تمايل عمر أمامنا كسفينة مثقلة الحمولة:

– لا شك أنكم سمعتم.. تصوروا توجد فرقة غنائية.

بدا على أنور ومحمود أنهما ليسا مغرمين بالبحث عن مكان لقضاء الليل فيه، ويبرهن مصطفى على عدم رغبته بالنهوض معتذراً وهاماً بالمغادرة لغرفته مظهراً عدم رغبة في المكوث داخل الملاهي الليلية فانطلقت كمية كلمات غبية من فمي:

– نحن نعرف أن المغرب نساء وخمر.

جملتي استثارت ملامحه الوقورة ليستخدم الطلقات نفسها:

– أنتم الخليجيون الباحثون عن المتعة الساقطة لا تعرفون من المغرب إلا هذا الوجه بينما الآخرون يعرفون حضارة المغرب، يعرفونها جيداً.

– أعتذر، يبدو أني أغضبتك.

– لا عليك.

تقبّل اعتذاري بطيبة متناهية ومضى هازاً رأسه وملوحاً بيده:

– أتمنى لكم سهرة جميلة.

عرفت فيما بعد سبب زهده في النساء والمراقص، وربطت بيننا حكايات مسائية في بقية الليالي، علمت اتساع البهجة لديه حينما يكون بجوار أسرته الصغيرة، غدت أسرته الصغيرة الدنيا مجتمعة كتكفير عن أيام الشباب التي قضاها حاملاً حقيبة سفره بسيارته قانصاً المتعة في الملاهي والأسواق والفنادق وأينما وجد فريسته نام بجوارها ينهش جسدها وعينه تتربص بفريسة أخرى، ووصل به الأمر أن أباه قضى نحبه وهو في مطاردة لفتاة من طنجة أضرمت فحولته وأنسته تلبية نداءات أبيه ورجاء أمه، وبعد أن مل من رؤية نهديها الجبليين، وقف على عزاء متأخر لرحيل أبيه بسبب لِتَرَي دم كان من الممكن أن يقدمهما له ويؤخر رحيله بعض الشيء.

عيناي تحاولان إغراء أنور بالمكوث وقضاء ليلة عابثة، استقبلني وجهه من غير أن يبين مخزونه، تحملك تضاريس وجهه الجبلية إلى أيام البواسل الذين رحلوا مع سيرة الزير سالم وعنترة بن شداد ما زال يمسك دروع النخوة والفروسية مجتمعة ويخرج الكلمات الحجرية كما هي من غير أن يجلو له

تشذيبها كما يليق برجل وصل إلى القرن العشرين متأخراً، خرج من العصور الجاهلية يمسك بنسب عربي صرف لم يقحم فيه أعراقاً أعجمية وظل يفاخر بهذا النسب حيال كل دعوة للمهادنة ويستنكف أن يتحول إلى باحث عن المتع من أجساد مضغتها العيون وتريقت عليها أفواه في لحظة شبق مدفوع الثمن..

وربما كانت تقف في مخيلته مدينة حماه سابحة في دمها ولاعنة نظاماً استباح عورتها وترك أجساد أبنائها مجندلين في شوارعها يبحثون عن قليل من الثرى يوقف بشاعة اللحم المفروم والدم الجاري، حين روى لي كيف حمل إخوته هارباً من تلك المجزرة فاضت دموعه فتحجر كتمثال لم يشأ أن تتشوه ملامحه بهذا الماء المنسكب من صنم قد من حجارة صلدة، توقف عن رواية مجزرة حماه مراراً، وفي كل جلسة أستعيد سرده فيمنحني قليلاً منها ويتوقف كي لا تشوه الدموع قامته الصخرية.. ربما ما زال يحمل جثمان أبيه ليسرقه من دمائه المسفوحه في شارع لم يعد يعرف ساكنيه، سرقه قبل أن يدهك بالمجنزرات ولم يقدر على مواراته فقذف به في إحدى البيارات وتسلل بأسرته الصغيرة ليستقر بالإمارات، بقيت جثة أبيه تطفو من مخيلته تنز بروائح البيارات القذرة فلا يجد من فعل يفعله سوى إطلاق شتائم تصل إلى أشرف وأرذل الزعماء العرب، وما زال يحلم بخيل أصيل يحوم به في أرضية المعركة التي لم تحدد بعد..

أنا وعمر جئنا عطشى نحنّ لرؤية امرأة لا تشبه النساء، مغرمين بسفك مشاعرنا في الطرقات بابتذال مسلطين ضوء عيوننا على كل خطوة لأنثى تعبر محاجرنا.. لم يستقبل فرحة عمر بالملهى الليلي إلا أنا، ومع عزوف محمود وتضجر أنور لغياب الناس صائحاً في كل حين:

– جئت لألتقي باليمن ورجاله وليس الجلوس وسماع الغناء.

– هل يعلم بأني بعت كل شيء من أجل امرأة؟

لولا أن علاقتنا لا تزال طرية لربما سألته: أنور ألم تحب؟

تحرك عمر غير مكترث بما سال من فمي الاثنين فصحت به:

– خذني معك.

[٣٨]

كان الملهى – هذا التعبير ليس دقيقاً لسببين أولهما أن لفظة ملهى كلمة مشبوهة ويزدريها اليمنيون كراهية لمضمونها، وثانيهما أن المكان لا تنطبق عليه موصفات الملهى الليلي كما يعرفه رواد الملاهي الليلية ويمكن توسيط المسألة والقول إن المكان عبارة عن صالة أراد لها القائمون على الخدمات أن تكون متنفساً لنزلاء الفندق – كان الملهى عبارة عن صالة صغيرة استقر العازفون في مواجهة الجمهور الضئيل بترديد أغنيات غربية وعربية وفق مزاجية المستقبلين لهذه الأغنيات، تكونت الفرقة من ثلاثة عازفين أحدهما على الأورغ وآخر على الدرامز وثالث على آلة لا أعرفها بينما ترك لفتاتين حق الغناء وبقي العازفون من الخلف ككورال مهمته ترديد أجزاء من المقاطع التي تنطلق من حنجرتي تلك الفتاتين وفي أحيان مشاركتهما في أداء الأغنية بتقاطع يحدث جماليات للأداء..

فتاتان فيليبينيتان صوتهما ناعم ووجهاهما مألوفان يذكرانك بالمستخدمات أو الممرضات اللاتي تضج بهما مستشفيات القطاع الخاص والحكومي بمدينة جدة، الفرق أن هاتين المغنيتين تخليا عن كثير من ملبوساتهما وتركتا نهديهما نهباً للعيون المحلقة عن شيء يتم مضغه قبل أن يفقد المرء حبوره، تتقافزان يميناً وشمالاً كدمى سيئة الصنع في رقص عشوائي زاد من عشوائيته التهام الموسيقى الصاخبة لصوتيهما وتغيبه في معظم الأحيان، الأضواء البراقة الخافتة تبعد الصورة الحقيقية للمغنيتين، تشعر بتكسر غنائهما للغتهما الرثة، ليس هناك من نساء لتلبية شبق الحضور سواهما ويبدو أن عليهما إمتاع ذلك الحضور المتواضع من خلال الغناء وفي أحيان الاقتراب من الاستعراض بالجسد الكاشف عن

أنوثة متواضعة، فملبوساتهما ارتديت بنية تحريك المياه الراكدة في قلوب الحاضرين، ومثل هذه الملابس يمكن للعارضات ارتداؤها غير محتسبات لظهور المفاتن العميقة.

شعرت بالملل وتمطيت على كرسي دائرياً مكّن رقبتي من التجول بين الحضور علني أقتنص فتاة تليق بصرف ضوء العين بإسراف، لم يكن هناك سوى عيون تقترب من حالة الشبق وتمارس هتك الملابس القليلة المعلقة على الجسدين الناحلين لتتمتع بالعرى الكامل وتطبق مخيلتها على ذلك العري من غير أن تنهض كلمة لوم عابرة.

أحصيت من هم داخل الملهى: ست نساء، وثلاثون رجلا وخمسة يمثلون الفرقة الغنائية، وأربعة عمال مهمتهم تلبية وإرضاء هذا العدد من الباحثين عن متعة ليلية حتى لو كانت بهذا البؤس.

سحنات الحضور تحمل تضاريس متباينة، كل الأعراق تواجدوا من خلال ذلك العدد الضئيل: الأصفر والأسود والأبيض، كل هذه الأعراق تجمعهم مهمة الجنس المقدس..

نحن كائنات أمينة مع فطرتها، نسعى لأداء هذه المهمة بغريزة طبيعية إلا أننا نتبادل الخجل كلما وقف أحدنا على هذه النية النبيلة، نية مواصلة زرع أجنة في رحم الأرض لكي نفتخر أننا كنا هنا.. صببنا ماءنا وأنجزنا مهماتنا على أكمل وجه.

استقرت عيناي على فتاة منقبة تجلس مع رجلين في زاوية الملهى - من الجهة الخلفية لمقعدي -، ها هي وفاء تقف من خلال عيني هذه المرأة المستترة بنقابها والضوء الشاحب المنعكس على وجهي مرفقيها، لم تكن تلتفت صوب أحد تحتسي البيرا بعد أن تدس الزجاجة أسفل نقابها وترشف منها ما استطاعت وتعيدها لموقعها منصتة لهمس طويل سكبه أحدهما في أذنيها، كنت أحتاج إلى الالتفات الكامل لرؤيتها، هل هي الفتاة نفسها التي رأيتها البارحة ودست جسدها الخيزراني بين المنقبات الإعلاميات، لو كانت هي لما تمكنت من السهر في هذا المكان المشبوه ربما تكون امرأة أخرى فأنا مسكون بوفاء، مسكون بها

كاللعنة، بحثي عنها في كل النساء جعلني رث العواطف أسكب لوعتي على وجه كل أنثى.

انتصبت أذناي عالياً متلصصتين بما يمكن أن يصدر من فمها، وكلما أصغيت نهضت الموسيقى الصاخبة لتعكر ذلك الإصغاء.

بين الحين والآخر ألتفت في محاولة للتدقيق في وجهها فأصدم بوجه أحد مرافقيها، كانت نظراته وقحة ممزوجة بتهكم طاعن، فأتراجع عن مهمتي وأتشاغل بالنظر للراقصتين الفيليبينيتين.

عمر غارق في احتساء مشروبه ومبادلة المغنيتين الغناء والغمز المكشوف، تركني أقلب بصري وارتشف من زجاجة البيرة ما يجعلني أخسر نصف تركيزي.

ألتفت كان مقعدها فارغاً، لمحتها تتقدم الرجلين صوب المصعد، فنهضت في أثرها خطواتي المتباطئة مكنت آخر قدم أن تصعد، وقفت أنظر في أي دور يقف المصعد، بينما كان النادل اليمني منهمكاً بتنظيف منافض السجائر المجاورة للمصعد كدت أسأله لولا تذكري إجابته السابقة:

- لو كنت قواداً لما كان هذا حالي.

عدت إلى موقعي محاولا نفض الهواجس التي انتابتني لرؤية تلك المرأة، وإن كانت ثمة رغبة تراودني بالبقاء أمام المصعد عل أحد الثلاثة ينزل، استسخفت تصرفي وهزأت من رعونتي:

- أتظن أن نساء صنعاء كلهن وفاء.

تناسيت الوضع وأخذت ألاحق تلك الفيليبينية بنظرات ظمأى وأحاول خلق وهم بهجة في ليلة بائسة ليس فيها سوى ملاحقة الأحداق للأحداق، تجرعت ثلاث كؤوس من البيرة وفي كل مرة أشعر بالغثيان يصعد إلى سقف حنجرتي فأجزم ألا أشرب ثانية وإذا عاد النادل بزجاجة جديدة لا أدفع يده التي تصبها كاملة في تلك الكأس المستقرة أمامي.

تمدد الغثيان في حنجرتي فقررت المضي إلى غرفتي، أشارت إحدى

المغنيتين بيدها واتسع فمها عن ضحكة بحجم حبة العنب الناضج تسمرت في مكاني، وخالجني شعور بالمرح:

– لتكن ليلة فيليبينية.

كنت راغباً في طرح هذا السؤال على عمر:

– هل يمكن أن تضاجع امرأة فيليبينية في صنعاء؟

أن تترك مقاييس الجمال العربية لتسفك خلاصة دمك في بئر ضيقة لا يدرك أهمية محافظة العرب على أعراقهم وتخير أماكن لنطفهم..

لم يكن عمر في حالة تسمح له بالدخول في حوارات عرقية (عرفت في ما بعد أموراً كثيرة عما يحب ويكره) ويبدو أن سيرة الأعراق تلهب حواسه وتقلل من انطلاقه، يحس بأنها أثقال تعيد لمعصميه أساور العبودية، يكره أن تصف أحداً باللون، مرد ذلك معرفته بأن لونه مسبة صامتة، لون منبوذ مكن الجلد الأبيض أن يستفزه ويصمه بالعبودية.. اتضح ذلك من جملة انفلتت من أحد الإعلاميين اليمنيين حين طلب عمر منه – في أول الليل – شراء قنينة خمر فاعتذر ذلك الإعلامي وقبل أن يبتعد حدث زميله بصوت حاول إيصاله لأذن عمر:

– تصور هذا العبد يطلب مني شراء خمر!!

انسحب عمر واختلط مع الوفد وكأنه لم يسمع تلك الجملة التي تنبذه، في ما بعد كان عمر يصرح (بمناسبة وغير مناسبة) أن أسرته ذات جذر عربي صرف هجر الجزيرة العربية مع الفتوحات الإسلامية المخترقة لأدغال أفريقيا.

حاولت التغلب على الغثيان الذي تسرب إلى داخلي بمبادلة المغنية الفيليبينية النظرات والضحكات والغمز المستتر، هذه الحركات أنعشت داخلي وجعلت للسهر معنى في هذه الصالة المخنوقة بالدخان والضوضاء، كانت ترشقني بنظراتها بين الحين والآخر.

ما الذي يغريها بملاحقة عيني؟ هل تغريها غترتي بالتطلع كوني أمثل ملبساً يحمل ثقافة عن النساء تختلف جذرياً عن الموجودين.. ليكن ما يكون فهذا التراشق خير أداة لقتل لحظات الملل هذه.

انتهى الدخان، هل يعقل أني نسفت علبة كاملة خلال ساعتين؟ لن أستطيع البقاء من غير هذه الآفة.. هل أترك هذا التميز وأصعد إلى غرفتي لجلب علبة أخرى.. لا لن أنهض.. طلبت من النادل أن يزودني بعلبة دخان.. وصلات غنائية تتتابع وفي كل أغنية أحاول أن ألتقط رسالة موجهة من هذه المغنية الحمقاء التي دلقت كل ذاتها من خلال تلك النظرات المتتالية حتى أنها منحتني وجهها طوال الوقت وأوكلت لصديقتها مهمة استرضاء ما تبقى من الجهة الأخرى للصالة.. بدأت أركز في الكلمات المغناة مجاهداً أن أصل إلى بعضها، فلغتي فقيرة منذ أن درست المراحل الثانوية حتى تخرجي من الجامعة وأنا أحمل ذاكرة حمار أعيته تلك اللغة ولم أستطع إجادتها كما يجب (خشيت أن يتكرر موقف المضيفة مع هذه المغنية).. كانت مع كل أغنية تقلب دفتراً استقر على حامل أمامها.. أهملت أحاديث عمر التي انبثقت فجأة بفعل السكر وسمرت عيني عليها.. قمت بهذا التسمر نتيجة وصية أوصاني بها طارق بن عثمان الوردي فهو دونجوان استطاع بأساليبه أن يجمع حوله نساء عديدات كنا نسير في شارع قابل، خرجنا بغرض تكحيل عيوننا واصطياد لحظة نشوة من عيون النساء المتسوقات، في عبثنا هذا غدوت طعماً لامرأة دميمة كانت تتابعني بصورة مزعجة، وعندما أبديت تذمري له أطلق وصيته التي غدت قاعدتي الأثيرة في تتبع النساء، فعل ذلك بحركة صبيانية مليئة بالشغب أمسك بأذني – داخل السوق– وقال جملة طويلة أظنها هي القاعدة الذهبية لكي تتزين بكل أشكال النساء:

– عليك ألا تشاغل الجميلة فهي مشاغلة من قبل الجميع، اختر امرأة أقل جمالاً في اصطياد من هي أكثر جمالاً فحين تهمل الجميلة على حساب الدميمة فإن هذا الإهمال يوغر صدر الجميلة فتبدأ هي بمشاغلتك أما إذا شاغلتك امرأة ما فلا تهمل هذه المشاغلة لأنها تقود بقية النساء لمشاغلتك.

هذه الوصية أثبتت نجاعتها في أحيان كثيرة.

أطلقت سهمين تجاهي: غمزتها، وضحكتها.

وجهها البيضاوي له لمعة فرح بكر، ومن عينيها الضيقتين تتناسل أرانب برية مهمتها قرض الحياة بعجلة، نصفها السفلي يتأرجح بين نغمات صاخبة،

ارتدت تنورة ميني جوب فاقعة الاحمرار بينما كانت بلوزتها سوداء مبالغ في فتحتها وقد أبانت تنورتها فخذيها الطريين المستديرين ومكنت عجزيها من النفور الحاد الذي اقتطع جزءاً من استواء تنورتها وفضحت مؤخرتها، كانت تحاول الإغواء بكل شيء في جسدها، فمع انحنائها تهز وركيها وتغمض عينيها تاركة لفمها سعة الانشراح وتبقي شعرها مسافراً على كتفيها بمرح لا ينتهي. . . تخليت عن لياقتي ورشقتها بقبلات هوائية، كانت تغني غناء مشروخاً: (يا مصطفى أفرح دامت لك الفرحة. . شوف الأحبة شوف. . في قلوبهم فرحة). . هممت بالقفز إلى البيست ومراقصتها عن قرب. . هممت بذلك إلا أن خبرتي في مجال الرقص مربكة ومضحكة!

يقودني طارق إلى أماكن متعددة في أسواق جدة يعرفها تماماً، يذهب إليها كصياد ولا يعود إلا وفريسته ممسكة بمخلبيه تتلذذ بكلماته الموعودة بعذاب عظيم، أوصاني أيضاً:

- عندما لا يكون هناك نساء جميلات تصبح القبيحات مجالاً لاكتشاف جمالهن الغائب.

هذه المغنية فيها شيء يغريك لمواصلة التحديق في جسدها اللباني المتغنج كإحدى العاهرات اللاتي امتهنّ العهر من وقت مبكر وتعرفن على مكامن جمالهن وأصبح لديهن المقدرة على الافتتان.

بعد أن تزوجت اكتشفت ما علق في سلوكي من مصاحبة طارق في أسواق جدة وفنادقها، فكلما اصطحبت زوجتي إلى أماكن عامة تنبهت أن عينيّ ليستا في مكانهما:

- أنت بصباص!!

هذه الجملة تثار عليها حروب من الكلمات، وفي كل مرة أنفي هذه التهمة. . وفي كل مرة أجد عينيها أمسكتا بي متلبساً وقبل أن تقول جملتها ألكزها:

- انظري هذه السيدة غير محترمة تبدي عورتها.

فتحرنت بغضب:

- وإذا كانت عورة لماذا تنظر إليها؟

فلا أجد جواباً سوى دفعها أمامي رافعاً صوتي بحزم:

- غطي وجهك جيداً.

نساء عديدات أهرب معهن في الذاكرة أو في مكالمات هاتفية طويلة وفي كل مرة أعود من هروبي متيقناً أن عينيها هما المكان الآمن ومع ذلك لا أمكنها من التمتع بهذا الشعور.

هل ملت، أو أن هذه القسوة جعلتها تفر إلى فراغ آخر؟. .

الفراغ. . انتقال الروح من فراغ لفراغ لكي تثبت توهجها، هي اختارت لروحها فراغاً آخر قد يبدو ملائماً للحظتها. .

وقبلها حلت في داخلي بدلا عن أمها جعدة، في أحيان نغدو كاللعب سيئة الصنع. . . ويغدو انتقالنا من حيز لحيز خطوة غبية نحشر ذواتنا في هذا الفراغ الذي يضيق عن استيعابها فنتهشم بسهولة كاللعب السيئة الصنع!

اضطربت فجأة ها هي مغنيتي تقبل تجاهي، ستكتشف أنني كنت دعياً حينما كنت أتمايل طرباً مع غنائها حيث أفتح فمي متمتماً بما يقف على لساني من دندنات غير مدرك لما تقول، ستفضح لغتي المكسرة الهشة، ما زالت تانك العينان الزرقاوان اللتان افترستني بهما المضيفة تسببان خجلاً داخلياً كلما تذكرت موقفي معها، ترفع بيدها اليمنى خصلات شعرها المنسكب على عينيها الغائرتين وتمسك بالميكروفون بيدها الأخرى وتقبل كقاطرة انتظرها مسافر انقطعت به أسباب السفر، ما الذي يمكن أن أقوله لها الآن. .لقد علمتنا رحلاتنا السياحية أن تكون اللغة عارية من أي تهذيب، كل النساء اللاتي حولنا جئن لبيع أجسادهن فليس من حرج أن تتعرى اللغة كما يتعرى الجسد، في الملاهي الليلية تغدو الإشارة عربوناً لقضاء متعة مدفوعة الثمن يكفي أن تقف أمام الفتاة مردداً:

are you free?

وتنتهي المسألة باعتذار أن جسدها مرهون هذه الليلة مع وعد أن تحرره لك في الليلة المقبلة أو تهز رأسها بالموافقة وتدس يدها تحت إبطك، وتمضي

ليلك تغالب عسر لغتك في إفهامها ما تحس به تجاهها، وفي الغالب لا تتفاهمان إلا بلغة واحدة تجمعكما معاً على فراش واحد، وبعدها يدير كل منكما ظهره للآخر حسرة، هي لتآكلها من أجل حفنة من مال، أنت لتهريك لحظة حيوانية في غير محلها!

كانت تتحرك بسرعة وخفة، وعيون الحضور تتابع رشاقة جسدها بينما ظلت محافظة على إمساك الميكروفون بيدها اليسرى جامعة شعرها المتطاير بالأخرى.. انتابني خليط من الارتباك والزهو، ماذا يمكنني أن أقول لها؟ آه تعلمت أن من وسائل اكتساب الحظوة لدى المرأة أن تظهر لها احتراماً فائقاً، أول تلك القواعد أن تهش لمجيئها، أن تنهض وتقبل الهواء الذي حمل رائحتها، خطواتها العجلة جعلتني أهب من مقعدي وفتحت فمي عن ابتسامة متأرجحة: ها هي تقف على الأهداب، عيناها الصغيرتان تبدوان شهوانيتين تفضحان أعماقها بسهولة، تقترب كثيراً، مددت لها يدي. .عبرتني تاركة يدي معلقة في الهواء وفشل حاد يلطخ ملامحي، لمحتها تتهادى وترتمي في حضن رجل ملامحه تشي أنه من عرقها نفسه.. تنبهت له كان يجلس خلفي مباشرة، سمعتهما يقضمان لغتهما كجرذان اختبأت داخل مغارة ضخمة..أفاق عمر من سكرته وأطلق ضحكة عالية بينما رأيت شماتة تنحدر من مقل الحاضرين، انسحبت كما يليق بمنكسر، ضاغطاً على زر المصعد بعجلة فتحت بوابة غرفتي بارتباك ارتميت على فراشي لاعناً كل النساء، واشتقت لها حين أغرقها بصياحي فتظل أناملها تعبث بأي شيء يجاورها، فبين أحضانها أثق أنني بجوار قلب لا ينبذني البتة.. تخيلتها بين أحضاني وأنا أهمس لها باعتذار منكسر:

- نعم أنا بصباص.. عودي الآن، عودي لنبدأ رحلة جديدة.

وأزداد انكساراً كلما تذكرت أنفتي من متابعة النساء الفيليبينيات اللاتي تضج بهن مستشفيات جدة، فما الذي حملني لهذه المغامرة السيئة والحمقاء في آن.

كان منظرها وهي قادمة يذكرني بالممرضات العاملات في المستشفيات الخاصة، وعبورها لي يذكرني بعبور شاحنة ضخمة دهست قطاً بائساً وقف في طريقها.

حاولت التخلص من انكساري:

- وفاء هي التي حملتني لكل هذا الشقاء..

هل ركضي المستمر خلف النساء بحثاً عنها أم اقتصاصاً لرجولتي في وأد مشاعر كل النساء، تعليقهن في علاقة أسقيها بالكلمات بينما داخلي يصب كل اللعنات عليهن..

أخرجت تلك القصاصة التي سجلت بها رقم الهاتف الذي زودني به عيسى شرف ضاغطاً على الأرقام ومنتظراً أحداً يرد على ذلك الرنين المتواصل.

- ألا يوجد أحد يرد على هذا الرقم؟

لسعني خاطر رحيله، كيف لو أن تلك الدابة قررت الرحيل والعودة الى كالكوتا، تبا له لو فعلها.

أطفأت أنوار غرفتي وتهيأت للنوم، وكلما أغمضت أجفاني هبت تلك الشاحنة مسرعة لتهرس عظامي وتتركني ملتصقاً بأرضية إسفلت لم تفرش جيداً.

آه أريد أن أنام.

[٣٩]

للفراغ: أشكال، أحجام، ومساحات، وروابط.

والانتقال من فراغ إلى فراغ هي اللعبة، لعبة خافية والنوم (الموت) شكل لم نستبينه بعد.

النوم أداة حادة تفتح مغاليق الزمن وتعبر بك خارج الزمان والمكان، تقلك إلى فراغ آخر.. هناك زمن خاص وحكايات متداخلة وحوادث لا معقولة.. في النوم تتواجد في كل نقاط الزمن ترى ما لا يرى وتقول ما لا يقال، حتى عذابك يغدو ممتعاً، يمكنك أن تفزع وتنهض ووجيب قلبك يصل إلى الحلقوم وعندما تكتشف أنك كنت صيداً لكابوس وخيم، تعود لتستلذ بذلك العذاب!!

النوم برهان ساطع على أننا ننتقل من الفراغ إلى الفراغ، هذه الفراغات المتعددة تشكل حواسنا تصنع منا قوالب متغيرة تتقولب في فراغها المستحدث.

وهناك في فراغ لا زمان، وداخل حلم تعيه يحدث ما لا تعيه، أموات وأحياء وأزمنة وأمكنة مختلفة تجتمع في نسق معقول وفق فراغها المستحدث.. تتكون لحظات من حياة منطقية أثناء حلمك، وتنقاد معها التداخلات الحادة لا تعيها إلا عندما تنهض وتحاول ترتيب ما رأيت أما في أثناء الحلم فكل الذي يحدث منطقياً.. هذه المنطقية هي تركيبة حقيقية لأعماقنا التي نحاول تنسيقها وفق المعطى التثقيفي الذي نكتسبه خلال مراحل تنقلاتنا من فراغ إلى فراغ، ذلك الواقع المفترض الذي نربى عليه بينما نحن ككائنات لا نرتهن لهذه المنطقية الحرفية، نكتشف هذا حين نمارس جنون أحلام اليقظة، فالنفس تواقة لأن تظل متحررة من الوصايا التي تثقب آذاننا من وقت مبكر.. وحين نعود

لذواتنا من خلال الحلم نفيق على ما يجب أن تكون عليه في نظر الآخرين، على أقل تقدير في نظرك أيضاً كي تكون إنساناً سوياً أمام الآخرين.

جاءت متشحة بزي الإحرام، وجهها يطفح بالضحك والاستبشار تتقدم زوجها، مهللة، دخلا علي وأشارت لقبرين متجاورين نبتا داخل غرفتي، قالت:

- هنا ترقد وفاء.. وهنا ترقد لمياء، تنبه فلمياء ستنهض لترحب بك بعد لحظات!

وأخرجت من صدرها رسالة قديمة عرفتها رسالة من رسائل عشقي الأول، فتحتها على غير عهد، ومررت عينيها بين سطورها:

- هل أنت من وضع هذه الرسالة على قبر وفاء؟

أبوها رث الثياب، ذقنه استطالت مفتقرة للتهذيب، تناول الرسالة لتغيب زوجته فجأة، وتحل زوجتي في مكانها، أمسك الرسالة ودفع بها إليها، كانت زوجتي تقف حائرة كعادتها، لتنهض وفاء من قبرها بعينين صافيتين وكأنها أفاقت من نوم طويل كانت تدندن بأغنية «يا نسيم الصباح سلم على باهي الخد»، مترنمة ومفسحة لأبيها مكاناً داخل القبر فيتمدد بدلاً عنها، تهيل عليه التراب ضاحكة وهي تعلق بصرها بوجهي:

- ألا تريد أن تساعدني؟

فجأة وجدت نفسي أقود سيارتي، وألمح عيسى شرف يشير بيده لإيقافي، لمحته في آخر لحظة، فتوقفت ودحرجت السيارة للخلف سمعت صراخاً منبعثاً من الجهة الأخرى ووفاء تبكي بحرقة وتشير بفزع تجاه خلفية السيارة ومن خلال المرآة العاكسة لمحت أباها ينهض من تحت عجلات العربة ودمه يشخب من جبهته، وصوت المتجمهرين يصيحون بي: لقد مات.

نزلت فزعاً، كان كل شيء - في تلك الأرضية - مغطى بالدم، وأبوها يرقد في قبره مسربلاً بدمائه، دماء غزيرة تسيل من كل جزء في جسده، غدا قطعة دم لزجة لم ينج من هذا الغرق الدموي سوى شعرات ذقنه الطويلة التي ظلت محافظة على بياضها، ووجدت وفاء تضربني من الخلف وتصيح مولولة:

أنت تقتلني في كل حين، وعندما اقتربت منها ركضت مسرعة، ركضت خلفها، وقفنا بجوار بيتنا القديم، عادت طفلة وأنا اضفر جديلتيها، وهي تبكي لأنني خطفت من بين يديها علبة الدخان ولكي أسترضيها ناولتها رسائل عشقي الأولى فأمسكت بها وحولتها الى طائرات ورقية وضحكت وهي تمد لي بخصلة من شعرها.. تتغير الأماكن والوجوه وتحل زوجتي مكانها، فأهجرها وأبحث عن وفاء التي بدأت معي لعبة الاستغماية وقبل أن أكتشف موقعها يكون أبوها خارج قبره، ويده تمسك بجلد غزال فاخر ليسألني:

- ألم تسلم هذه الرسالة لوفاء؟

تظهر لمياء باكية، وهي تزف على ظهر حمار أشهب بينما كانت صويحباتها يغرسن أصابعهن في دمعتها ويعيرنها بزوجها الذي انعطف ظهره وأرخى رداءه على وجهه خلته للوهلة الأولى زوج سمية، كان يسير وبيده سيف مسلول من غمده وحين انحرف في سيره لمحت طرفاً من ذقن طويل له شعيرات بيضاء، غمزني بطرف عينه غمزة ترشوني بمهادنة قادمة، فيما كانت وفاء ترفع جرساً وترن به فوق رأسي.

- أنت تقتلني في كل حين..

لتقفز زوجتي إلى مقدمة المشهد وتخطف من وفاء ذلك الجرس وتقرعه بكل ما أوتيت من قوة صائحة:

- أنت تقتلني في كل حين.. طلقني.

[٤٠]

استيقظت من النوم متأخراً، وبكاء وفاء ما زال يضج في مخدعي وما زال يغريني بتتبعه في ذلك الفراغ، حاولت العودة إليها بعد أن أصفي هذا التشويش، وأستنهض فرحتها بالنكات، كنت راغباً في رؤيتها ضاحكة راغباً في رؤيتها وهي تحلم ببيت يجمع أولادنا الذين اتفقنا على تسميتهم من وقت مبكر (فالولد رمزي والبنت هناء)، كنت راغباً في الانفراد بها لأسترق لثم خديها..

رنين الهاتف يصل متقطعاً.. تنبهت تماماً حين كان صوت المرافق الإعلامي يبدي تذمراً هادئاً:

- اجتمعنا جميعاً ولم يتبق من الوفد سواك.

- حسناً سأكون جاهزاً خلال لحظات.

رفعت سماعة الهاتف ضاغطاً على مفاتيحه متنقلاً بين الأرقام لذلك الرقم الذي غدوت حافظاً له، جاءت نغمة متقطعة:

- أوه الخط مشغول إنه متواجد لن أبرح حتى أحدثه.

أعدت الاتصال مراراً وفي كل مرة يمنحني إشارة الانشغال، أعدت السماعة إلى موضعها.

- قبّحه الله مشغولاً أو غير موجود!

رنين الهاتف يرتفع في فضاء الغرفة، أرفع السماعة فأحس بالتضجر الطافح في صوته:

- أخبرتك بأنه لم يتبق من الوفد سواك هل تأتي معنا أم تعتذر؟

- لا، لا، سأكون معكم.. لحظات فقط.

– أرجو أن تكون كذلك.

على عجل ارتديت ملابسي ونازعتني نفسي لإجراء آخر اتصال، وبسرعة فائقة اتصلت لتأتي نفس الإشارة المتقطعة القصيرة، لعنت الجحش في سري ونزلت راكضاً، كان الأوتوبيس المهيأ لنقل الوفود الإعلامية العربية واقفاً على بوابة الفندق، بادلت عمر وأنور تحية الصباح وابتعدت عن مكانهما خشية من أن يكون عمر قد أسرّ لأنور بما حدث ليلة البارحة، حاولت تبديد ابتسامات عمر الملاحقة لي بالحديث عن إمكانية الالتقاء برئيس الوزراء الدكتور عبدالكريم الارياني.. وجه المرافق الإعلامي نشط رغم سحابة من ضجر استقرت بين حاجبيه حاول تشتيت عبوسها بالاعتذار المتكرر للنوم المتقطع الذي تلقاه ليلة البارحة بسبب جلسة قات دامت لفترة طويلة:

– سنحاول تدبير لقاءات صحفية مع معالي الدكتور الإرياني للجميع فقط عندما يسمح وقته بذلك.

عند صعودي رمقني عمر بابتسامته التي تحمل آثار البارحة ودعاني لأن أجاوره فأظهرت له رغبة الجلوس في مؤخرة الحافلة حيث كان فاروق مسنداً رأسه على مقدمة الكرسي المقابل له يغالب نعاساً ثقيلاً وكان موقعي مجاوراً لسلوى، سلوى تذكرك بالرجال الذين لا ترغب في الحديث معهم حتى وإن جمع بينكما مصير واحد، كأن يكون مكتباً أو مدرسة أو مركباً يقلكما في رحلة لا تنتهي، لم تأخذ من النساء سوى اسم الجنس الذي سجل في الأوراق الرسمية وما عدا ذلك فهي شحيحة من كل صفات النساء، كنت أشعر أنها لزجة أكثر من اللازم، ودميمة أكثر من اللازم، وثقيلة أكثر من اللازم، كان فخذي يحتك بفخذها فأشعر بآلة حادة تثقب ركبتي فأبعدها عنها. ومع تمايل الحافلة في المنحنيات أو المرتفعات أمسك بفخذي كي لا يحدث ذلك الارتطام الذي يذكرني باصطكاك آلتَي حديد صدئتا وافتقرتا لزيت يطري احتكاكاً يصر صريراً مزعجاً، وعندما نجحت في انتشال جسدي من الاحتكاك بها لم أنجح في الهروب من أسئلتها المتلاحقة:

– هل أنتَ من البحرين؟

– لا.

– لا بدّ وأن تكون من الكويت؟

– لا.

– إذاً من السعودية؟

– نعم.

– لولا ملبسك لقلت إنكَ من اليمن أصلاً.

– وربما لو لبست البدلة لقلتي هندياً أو بنقلاديشياً.

– هل أنت مدعو لهذا المؤتمر؟

– نعم.

– ولكن هذا المؤتمر للديمقراطيات الناشئة وأنتم لا توجد لديكم ديمقراطية لا ناشئة ولا كهلة.

– ما هي الديمقراطية؟ أنا لا أفهمها.

– ألا تقول بأنك صحافي؟ كيف لا تعرف الديمقراطية؟

رفع فاروق رأسه المثقل بنعاسه وهو يتثاءب:

– أعذريه فلم تمر ببلادهم سيرة الديمقراطية عبر مسيرة التاريخ فكيف يعرفها؟

غطت بيارة فمها بيدها، وهي تضحك:

– هم لا يعرفون إلا الإبل والنفط!

شاركها فاروق الابتسام:

– وكذلك النساء والخمر في بلاد الله الواسعة.

شعرتُ بحنق وأنا محاصر بين هذين النابين فقررت أن أكون شوكة تعيق مواصلتهما المضغ:

– يا سيد فاروق أرجو أن تواصل نومك، فأنت على ما يبدو تغط في النوم منذ الثورة العربية.

– هل غضبت؟ كنا نقرر حالة بلد؟

– لا لم أغضب.. سأغضب لو أنكم أفضل منا بديمقراطيتكم ولكنكم أردأ منا بكثير.

نفض غبار النعاس العالق بعينيه ورفع صوته:

– نحن بلد الحضارة والثورات المتعاقبة تقارننا ببراميل النفط يبدو أنك جاهل بالتاريخ والسياسة.

– وأنت جاهل بتاريخكم وواقعكم...

حاول أن يبدو هادئاً بينما كنت أغلي من نابي سلوى اللذين انكشفت عورتهما وهي تستمع لفاروق بانشراح وتأييد مطلق:

– من غير انفعال أخبرني كيف تنظر للأمر؟

– أولاً أنا أفصل بين النظام والشعب، فالشعب على عيني ورأسي..

السياسة لا يحكمها الشعوب، فماذا تود أن تقول عن النظام؟

– أنتم يحكمكم العسكر، والرئيس لديكم هو الحاكم حتى الموت كما أن الأحزاب صورية ولا يوجد إلا حزب الرئيس.

– لا.. لا هذا خطأ في فهم آليات الديمقراطية.

– حسناً.. ألم تسمع الغناء الذي ترددونه في الآونة الأخيرة بمبايعة رئيسكم لولاية ثانية أو رابعة.. والمبايعة نمط ملكي وليس رئاسياً ديمقراطياً.

– هذا مردود عليه.. فكل جهاز إعلام يقدم الصور الرديئة، والغناء الذي تتحدث عنه أطلقه بعض المستفيدين من النظام.

– نحن واضحون ملكيون بينما أنتم مدلسون فالشعار نظام ديمقراطي والواقع نظام ملكي وليس ملكياً فحسب بل وعسكري أيضاً.

– .. كيف تقول هذا في بلد كمصر.. مصر التي فضلها على كل العالم العربي.

قلت لك أنا أتحدث عن نظام، ومع ذلك لنترك مصر، وإيتي لي بمثال ناصع في كل جمهورياتك العربية.. كلنا في الهم شرق، بل بالعكس فالعسكر أدخلونا في دمار شامل كما فعلها صدام حسين..

صرت قطعة الحديد الصدئة التي تجاورني:

– أشعر بالأسف لكون شخص مثقف يدعي مثل هذا القول ويدافع عن الرجعية..

– أي رجعية وأي هباب أعطيني مثالاً واحداً من نماذج التقدمية التي

تتحدثين عنها يعيش مواطنها بصورة لائقة بإنسانيته في الحدود الدنيا.. وفي المقابل أنظر للملكيات العربية فمهما كان الشخص فقيراً فإنه أفضل من أي شخص في الدول الرئاسية. مشكلتكم أن أصابعكم ما زالت تشير إلى صدوركم بينما العالم تحرك من حولكم.. تغيرت المراكز وأنتم ما زلتم تظنون أنكم الشعب العربي الوحيد الصانع لكل القرارات..

– لأنكم جلبتم الأمريكان لبلدكم تريد أن تقول إنكم صانعون للقرارات العربية.

– أنا ضد تواجد أي قوة أجنبية في أي بلد ولا أدافع عن هذا، وإذا أردت الحقيقة فانتم من سمح للأمريكان بالدخول حين فتحتم قناة السويس، بل أنتم الذين سمحتم لأمريكا بأن تنفرد بكل دولة بعد كامب دايفد، أصبحت مصر ليست مصراً، اختُرقنا بسببكم.

قفزت قطعة الحديد وقد تطاير رذاذها:

– أنور السادات خير من ألف من ملوكك.

نفض فاروق يده:

– دعه فهذا ملكي متعفن لا فائدة منه.

انزلق لساني في حديث غاضب لم أستطع السيطرة عليه:

– ويبدو أن أهلك متعفنون حين سموك فاروقاً أليس هذا اسماً ملكياً؟

– أتجرؤ على شتم أهلي يا متعفن؟

– وأنت زبالة!!

– أنا زبالة يا حقير يا حثالة المجتمعات!

– شوف يا زبالة: المرء يعرف قرناءه.. فوصمك لي بالمتعفن دليل على معرفتك لنوعيتك!

احتدت أصواتنا والتف حولنا الركاب مهدئين الوضع:

– يجب ألا يصل الحوار بينكم لهذه الألفاظ السوقية.

قفزت الأفعى التي تجاورني:

– لا يمكن أن أجلس بجوار هذا المتخلف.

- تصدقيني لو قلت لك إن رائحتك كانت تخنقني وكنت سأرجوك أن تجلسي في مكان آخر.

اتسعت محاجرها، وبرز ناب فوق شفتها السفلى وهي تصيح:

- يا متخلف!!

- . . . . وربما اقترحت عليك أن أنتدب نفسي لتغطية المؤتمر وأرسل لك بكل التفاصيل مقابل أن ترحلي. . فرائحتك تصلني لغرفتي. . وليلة البارحة خرجت معدتي مراراً بسبب وصول رائحتك ولم أستطع النوم إلا بعد أن وضعت المخدة فوق أنفي وكدت أموت اختناقاً.

- البارفان الذي أضعه لا تعرفه سلالتك يا سوقي، فالسوقة والمتخلفون من أمثالك لا يمكن الارتهان لما يقولون.

- والله لو وضعتي كل عطور الدنيا لا يمكن أن تذهب برائحة صدأ الحديد المقززة التي تفور منك وتلوثين به هواء صنعاء الذي تغنى به العشاق والمغنون. .

- انظر إلى شكلك الشبيه بقرد خرج للتو من الغابة وألبسوه ثوباً وكوفية. . ألا تشعر بالخزي من هذا الشكل؟

- وأنت أشبه بالدودة التي تعيش في باطن الأرض وتلتصق بجوار النباتات، رؤيتها مقززة ورائحتها مؤذية وملمسها كالمخاط الجالب للتقيؤ.

- أنا دودة، يا حقير.

وطفرت من عينيها الدموع وصاحت بسائق الحافلة وهي تبحث في حقيبتها عن منديل يوقف تدفق دموعها:

- أنزلني هنا. . أريد سفير بلادي هذا المتخلف يشتم بلدي.

كنت أسمع فاروقاً يبربر بشتائم عدة وقد اكتفيت بأن أقول له مراراً وتكراراً:

- يا زبالة!!

ليشتاط غضبا ويشارك صاحبه (نعم لا يمكن لهذه المرأة إلا أن تكون صاحباً وصاحباً لا يركن إليه أيضاً) المطالبة بالنزول فتدخّل المندوب الإعلامي معتذراً لهما، وعيناه تغمزانني في محاولة لاسترضائي فانشغلت بالتطلع إلى خارج الحافلة

بينما كان أنور وعمر غارقين في الضحك، وتلك الدودة تفتعل غضباً زائدا ويدها تحاول تثبيت شعرها الذي انتكش وغدا كمسلات حادة الرؤوس، فجلس المندوب الإعلامي يسترضيها بكلمات متلاحقة ويضغط على كتف فاروق مبيناً أن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، فنفر فاروق محتداً معيداً تهمه:

- هؤلاء الصحراويون بدو همج ضد تطور الحياة، وضد كل أشكال الحضارة، يريدون أن يطبقوا تخلفهم على الجميع. . نعم هم متخلفون في كل شيء وآخر ابتكاراتهم ديناً بدوياً صحراوياً صدروه للعالم وغيروا دين الله السمح، وأرادوا أن يتحولوا إلى دولة عظمى بتزويد الحرب السوفييتية الأفغانية بعقول متخلفة، كل المشاكل في العالم لكم دخل بها حتى هؤلاء الخاطفون في اليمن هم من نتاج سياستكم في تصدير الدين الصحراوي.

- كما قلت لك يبدو أنك نائم منذ زمن بعيد، مَن صدَّر هذه العقول أنتم، خرجوا كلهم من مدرسة الأخوان المسلمين وتشكلوا في بقية البقاع كما يحلو لهم، لكن المصدر أنتم.

- أنتم عملاء للأمريكان!

- كلنا عملاء للأمريكان، وأنتم أول الناس أنسيت أنكم قبضتم ثمن حرب الأمريكان ضد العراق؟

تشققت حنجرته:

- اسكت يا متخلف فبلدكم سبب كل البلاء الذي نعيشه كأمة.

- اشهدوا عليه فهو يشتم بلدي وأنا أريد سفير بلادي ليقتص لي من هذه الشتائم.

أطلق ضحكة جافة متهكماً:

- سفيرك، منذ متى كان سفراؤكم يلبون دعوات مواطنيهم هم يعلمون تماماً أن من يستغيث منكم إما مخموراً أو أضاع أمواله في إحدى الحانات، أو قبض عليه وألقي به في أحد المخافر بسبب مجموعة عاهرات. . أنتم لا تبحثون إلا عن الخمر والمومسات.

- أضيفوا إلى شهادتكم أنه يتهمنا بشرب الخمر والزنا. . يتهم شعباً كاملاً.

- نعم أقولها مرة أخرى أنتم لا تبحثون إلا عن الخمر والعاهرات واللواط أيضاً.

ارتبك المندوب الإعلامي ولم يعد يعرف كيف يتصرف، بينما كانت الأصوات الأخرى تحاول تهدئة الوضع، وكانت اللائمة منصبة عليّ بصورة مضمرة، وارتفع صوت أنور:

- لماذا نختصم من أجل حكومات تتشابه في كل صورها سواء كانت ملكية أو جمهورية.. نحن جئنا من أجل عمل فلا ندخل خلافاتنا في مجال العمل وليؤمن كل منا بما شاء.

ونهض صوت مصطفى:

- سبب انحدار الأمة كوننا نحن المثقفين نوجد المبررات لحكوماتنا في تخلفها ولا أقصد حكومة بعينها بل بكل صورها ولو نحن صدقنا مع أنفسنا لما كان هناك مثل هذا الحوار المتشنج.

انتفض فاروق:

- هذا ليس حواراً، فهم لا يعرفون هذا المصطلح، ومصر فضلها على الجميع ولن نرضى بمتخلف مثل هذا يشتم تاريخنا وحضارتنا وسوف أصعد الموقف، سأصعده حتى ولو لزم الأمر إيصاله لأكبر المسؤولين.

اشتط من برودي وسخريتي معاً:

- لا.. لا أرجوك يا فخامة الريس بلاش.

كز على أسنانه:

- أنت حشرة.

- كيف عرفت؟، ألم أقل لك إنك تعرف أنواع فصيلتك جيداً؟

- لا يمكن أن يجمعني مكان مع هذا النكرة الأحمق... من أي البالوعات جاء؟

جذبني أنور من يدي، وسقط في مكاني ليتناولني عمر ويجلسني بجواره بينما كان صوت سلوى وفاروق صاخباً لاعناً هذه الرحلة والحظ الذي جمعهما بواحد مثلي.

[٤١]

عبرنا عدة بوابات مخترقين أرتالاً من العسكر، ومع كل معبر تقف على جنبات الشارع مجموعات كثيفة من العسكر رصّوا في خطين متوازيين حاملين رشاشات وبنادق مختلفة الأحجام والأنواع، وعند كل بوابة - من بوابات القصر - يقلل السائق من سرعته ويكتفي حراس تلك البوابات بالنظر إلى اليافطة المعلقة في مقدمة السيارة (ضيوف المؤتمر) فنعبر بيسر.

كان عدد الجنود المنتشرين في الشوارع وداخل القصر الرئاسي أعداداً مهولة، وربما لو أحصيت عددهم منذ أن غادرنا الفندق إلى الآن لعجزت عن إتمام هذه المهمة لكثافتهم وتداخلهم، أسررت لعمر:

- ولِمَ كل هذا الجيش العرمرم من العسكر؟

- إنهم يخشون من أن تقع حادثة اختطاف أو هجوم مباغت على سيارات الوفود!!

(آه ياسين يهبط لهذا الوادي حاملاً رشاشاً، ويتمتم بأدعية لا تسمع، وأبوه يقود ولده في حيّنا بحثاً له عن مسكن، لمحته يسقط إلى وادٍ كما سقط من أعلى الشجرة، وذلك الامريكي يركض تجاهه، ضمادات وورود، ولغة إنكليزية، ها هو يهبط الوادي حاملاً رشاشه تعتمر رأسه رباطة حمراء أو سوداء.. ياسين).

ضحك خليل ضحكة قصيرة مستنكراً جملة عمر:

- ومن نحن حتى يضعون كل هذا العسكر في طريقنا!

كان صوتنا قد بلغ خيري:

- هذه الحراسة المشددة ليست من أجلنا أنسيت أن هناك ٢٢ زعيماً؟

- صحيح فالعالم الثالث لا يكترث إلا بالزعماء.

قال عمر بنصف ضحكة:

- لم ينته شجارك بعد، أتريد شن هجوم آخر؟

- اطمئن لا يوجد من العالم الثالث ممثلاً له سوى نحن العرب وإذا اختصمنا فهذا أمر ليس بجديد.

التفتُ للخلف، كانت سلوى تنفث الدخان في مؤخرة السيارة بعصبية بينما لا تزال عيناها نديتين ببقايا دموع طازجة، وقد عاد فاروق للنعاس مهتزا مع حركة السيارة كيفما اتفق، أغمض عينيه بهدوء غبطته عليه فمن كان يغلي قبل لحظات لا يمكن أن تبرد أطرافه بهذه الهيئة، غمزت لأنور فلم يستجب لغمزاتي وأشاح بوجهه من خلال تلك الستائر التي كانت تحجب عنه منظر الشارع والتي طالب فاروق بإسدالها لينعم بنعاسه الثقيل.

تنبهت لعينيه اللتين تخترقان وجهي بتأمل فاحص، كانت ملامحه باردة لا تظهر ما تجوش به أعماقه، شعره خفيف، أنيق الهندام حنكة السنوات تطفح من تجاعيد نمت على حنجرته وتدفقت نحو صدره الذي ظهرت منه شعيرات أغدق عليها الزمن ماؤه فاستطالت لتشي أن ما بعدها غابة استوائية من الشعر الكثيف، عندما التقت أعيننا انسحب بعينيه على عجل..

ربما خشي أن يطاله لساني، فقد بدوت فظاً بين مجموعة تسعى لإحلال الوقار على تصرفاتها، ربما كنت أصغر الوفود الإعلامية العربية سناً، أسير بنزق يكبل الآخرين عن إبداء الامتعاض مما تجوس به أفعالي أو لساني، تنبهت لتحفظ الجميع من الانخراط معي في حديث طائش، لكزت عمر، مشيراً باتجاه ذلك الشخص، كانت إشارتي واضحة له حتى انه قلب وجهه في اتجاه معاكس:

- من هذا؟

- هذا ممثل جريدة سورية.

انتظرت أن يسترد وجهه من الاتجاه المعاكس فلم يفعل، كنت راغباً في أن أحييه.

أصيبت الحافلة بحالة من الصمت الحذر بينما كان الموفد الإعلامي زائغ البصر وقد زاد عبوسه وهو يسترق النظر لوجه سلوى التي افتعلت حديثاً مع أنور رافعة نبرة صوتها - بين الحين والآخر - مضفية على نفسها أهمية مبالغ فيها، معددة مواقعها المهمة على خارطة الصحافة المصرية.. وترسل سهامها حين تشعر بأنها قادرة على ذلك:

- هناك صحافيون مغمورون لا يعرفهم أحد ولا أعرف كيف يتم انتدابهم في مهمات صعبة كما نحن فيه.

عبرنا البوابة الأخيرة لنجد أنفسنا داخل القصر الرئاسي، قصر شاسع المساحات تفترش أرضيته فلل مختلفة الأحجام، تحيط به الأشجار السامقة المتناثرة والورود التي تشكل جنبات زاهية على الأطراف. تزاحمنا على مدخل قاعة المؤتمر، كانت الحشود أكبر مما كنت أتوقع، وزاد من تكدس الأجساد على تلك البوابة خضوعنا لتفتيش دقيق، انبرى العسكر لتنفيذ مهمتهم على أكمل وجه، حيث كانت أياديهم مدربة تصل إلى الأماكن العميقة من غير أن تشعر بتسللها، وبعد انتهاء مهمة التفتيش الشخصي أخذت منا أجهزة التسجيل وكاميرات التصوير، احتج أنور بانفعال:

- ماذا نعمل داخل المؤتمر من غير آلة تسجيل أو كاميرا؟

التفت إليه العسكري بتهذيب:

- هذه أوامر، وأنا أنفذها.

أرادت سلوى أن تبدي عظمة زائدة حينما رفعت صوتها:

- سوف أبلغ الدكتور عبدالكريم الارياني عن مثل هذه التصرفات الرعناء.

رد عليها العسكري بلطف:

- يمكنك فعل ذلك سيدتي فقط دعينا نكمل مهمتنا الآن.

وسحب منها آلة التسجيل، فتركت ابتسامتي مشرعة، وخاطبت رامي (صحافي لبناني):

- الصحافي الشاطر يغزل برجل حمار..

كان مقرراً لنا الجلوس في الجهة اليمنى من قاعة المؤتمرات، فاستقررنا في أماكننا، وكانت القاعة في حالة فوضى، من هناك بدأت أستكشف الوجوه والشخصيات المشاركة، فلم تسعفني تلك الوجوه بتذكرها، في الصف الأمامي جلس الوزراء اليمنيون، همست للمندوب الإعلامي:

- بعد الحفل أرغب في رؤية الدكتور عبدالعزيز المقالح.

أشار إلى الصف الأول: ألا تراه؟

كان يجلس في صف الوزراء، لم يكن كتلك الصورة التي أعرفها له من خلال الجرائد فقد بدا كهلا.

انحنيت عليه ضاغطاً على كتفه ومعرفاً بنفسي:

- أرغب في رؤيتك يا دكتور بعد انتهاء افتتاح المؤتمر.

هبّ من مقعده حاضناً وسائلاً:

-كيف الأصدقاء في السعودية؟

- جيدون.

- ضروري أن نجلس معاً.

- ضروري.

عدت إلى مكاني حين لمحت عينيها تحرقانني، ونابها القافز على شفتيها يزداد حدة، استعدت انشغالي بتقليب تلك الملامح المتعددة.

فجأة هبّت القاعة واقفة مع دخول الرئيس اليمني علي عبدالله صالح.. وبدأ المؤتمر.

[٤٢]

ثمانية أيام مضت عرفتُ خلالها صنعاء. لم أكن أترك فرصة إلا وخرجت أذرع شوارعها.. شارع حدة يفاخر ببعض المتاجر المتواضعة التي ما زالت تعرض توابلها وفضياتها وأقمشتها وفواكهها..

هناك سال القلب، في باب اليمن رأيت وجوهاً مغبرة، تائهة في الزحام، تتعلق بأسلحتها كالهياكل التي أنهت مهمة الحياة بعجلة وبقيت محتزمة بالموت من غير أن تقبر أو تبحث لها عن مهمة أخرى غير الحياة!

الجوع آفة تقتاد الرجال، وهؤلاء المقذوفون عند هذه البوابة يتذكرون كل سِيَر الزعماء الذين سحقوهم ومضوا.. أورثهم الإمام جنبية على الخاصرة وقاتاً محشوراً بين الأشداق، خرجوا من ليله الطويل بعد أن قسمت الدنيا أرزاقها.. شيء ما يتساقط من هذه الهياكل المنزوية هنا يتركها ضامرة كعود أراك تيبس في فم لا يمل من تحريكه صعوداً وهبوطاً!

وفي شارع جمال ترى الحكايات مختومة كما هي، هنا ترقد الأميرة النائمة تنتظر فارساً يقتحم أسوار الموت ليجدد لها فتنتها بقبلة الحياة..

القبلة هي سر الكون، سر الجمال والقبح. قبلة تعيد الحياة لأميرة عقد السحر حياتها في شكل جليدي فتأتي القبلة لتوقظها من رقدة سرمدية، وقبلة تحرر الأمير المسحور من دمامته، تعيد فتنته تهتك السحر ليغدو القبح أكذوبة تخدعنا حواسنا به.

ليس هناك قبيح أو جميل.. نحن الذين نحيل القبح إلى جمال.. أسطورة قبلة الحياة نفضت غباراً كثيفاً ران على هذه الحقيقة، مقاييس الجمال تتصدع كل

حين: إن ارتضاء العاشقة لهذا الوحش والهيام به حدث في شكله القبيح وليس الفاتن، قبلت قبحه كجمال فعاد جميلاً.. هي هكذا النظرة السليمة.

القبلة روح تخرج منا لتمنح الآخرين حياتنا.. من تجرأ ووصف الروح بالدمامة؟

جارتنا سمية فاتنة قيدت لعبد آبق، هرب بجذره من الرق منتسباً لقبيلة كبيرة تناثرت في أودية شبه الجزيرة العربية، وامتهن قطف الرؤوس في ساحات الإعدام.. أسبوعياً يأتيها ملطخاً بدمه، ويومياً يوسوس بقطف جمجمة استقرت على جذع ينتظر سيفه في إحدى الزنازن.. هذا الكائن المستوحش تحول في قلب سمية إلى معزوفة جميلة تضع سيفه في غرفة الضيوف وتتباهى بأنها امرأة لكائن ليس له شبيه.. كل رجالات الحارة يبدون أسفاً لجمالها الذي يعرك، ويدهك يومياً تحت ذلك الكائن الخرافي.. وكلما استدار بطنها تهلل وجهها لرؤية بذور ستسد بهم فجوات الزمن وهم يحملون سيوفهم وينامون باسترخاء في حلم يستعجلونه لقطف جمجمة تهتز كل حين!

في شارع جمال أميرات نائمات، خرجن لنزهة قصيرة على وعد أن يعدن إلى أسرهن في انتظار قبلة الحياة..

- أتكون وفاء بين هؤلاء الأميرات النافرات في مجرى الشارع؟

(منذ خروجك وأنا ميت يا وفاء، ميت يجوب الدنيا حاملاً جثة تبحث عن قبلتك لتعيد لها الحياة، الآن تنبهت أنك لم تمنحيني الحياة بلثمك لشامتي، كنت تعرفين أني سأغدو جثة تتورم وتضمر في شوارع المدن، تضمر حتى تغدو عوداً قاسياً، فكلما حاولت الإطباق على شفتيك نفرتِ، واكتفيتِ بتمرير قبلتك على جذع عنقي.. ها هي الجثة تبحث عنك لتعيدي لها الحياة!).

تتقارب المتاجر، فتدس الفتيات أجسادهن في محلات الملبوسات النسائية، كنت أسير هائماً خلف أي طيف يشابهك، كل النساء لسن لك شبيهاً، كنت راغباً في جمع كل النساء العابرات لشارع جمال وتشكيلك، إعادة خلقك من هذه القدود، والأعطاف، والأعناق، والزنود، والعيون، والأفواه.. كنت راغباً في إعادة خلقك.. يئست من البحث عنك، فلماذا لا أعيدك كما

تخطرين في الأغاني اليمنية، وكما تخطرين في الكون، وكما تخطرين في هذا القلب.. هل أتبع نصيحة محمد مرشد ناجي:

إن كان عادك غريب ما تعرف البندر

إذا دخلت المدينة قل بسم الله

وإن شفت في طريقك شيء وأعجبك شله.

تتسق هذه الأغنية مع مزاجي الآن.. فمن أين أبدأ بجمع أشلائك من هؤلاء النساء الجارحات؟!

جاء صوت أختي عبر الهاتف:

- أبوك غاضب.

- لماذا؟

- هل صحيح أنك تنازلت لزوجتك عن أبنائك؟

- عندما أعود سأصلح كل شيء.

- حتى أبناؤك، ألم تقنع؟

- ألمحها فقط وأعود.

- هوّن على نفسك لا أحد يستحق منا كل هذا الركض.

- ربما تكون هذه هي السفرة الأخيرة.

- النساء كالمطر يهطل ويغيب في التراب.

- حسناً، أتريدين شيئاً من صنعاء؟

- لا أريد إلا أن تنتبه لنفسك وتعود بالسلامة.

- ألم تتوحمي بالعنب الرازقي؟

أفرغت ضحكتها مجلجلة:

- أما زلت تذكر؟ أحضر لي عنباً رازقياً علّني أفعلها مرة أخرى.

كم هي الأغنيات التي تغنت بهذا العنقود الفاتن (يا عنب رازقي)، ها هو العنب الذي أضنى الناس عبر التاريخ يتأرجح ويعود كهدية من العائدين، ومطلب للبعيدين، وهنا، في أرضية صنعاء يهرس ويباع بأبخس الأثمان.. لماذا تغدو أسماء الأشياء أجمل من وجودها، ينادي عليه الباعة: (يا عنب

رازقي) فتتخلق مناداتهم لموسيقى فاتنة تفوق بمتعتها العنب المعروض أمامي، ورنة ترديده في الأغاني اليمنية أعمق وأشهى.. عنب اليمن، مشتهى المسافرين عبر التاريخ ويغدو مثلاً لمن أخفق في بحثه (لا طلت بلح الشام ولا عنب اليمن).

ها هو عنب اليمن يهرس بالأقدام أمام ناظري، وهي هنا في مكان قريب ربما تهزأ بعاشق غر علق حياته بجناح طائر لا يمل من التحليق.

في رسالة قديمة كتبت لها:

أجدك كالمدى كلما اقتربت منه سحب أطرافه، فإلى متى تمارسين هذا الصدود، افعلي ما تشائين سأظل أبحث عن لحظة رضا حتى لو سرت إلى أقصى بقعة في الأرض لكي أحصل على ابتسامة واحدة..سأفعل.

وها أنا أجوب الدنيا من أجل أن ألمحها.. ألمحها فقط أبين لها أني ما زلت باقياً على العهد.. عندما كتبت لها جملتي السابقة، هل كنت أكتب مستقبلي... غدوت مؤمنا أننا نكتب مستقبلنا بأيدينا!!

وأننا ننتقل من فراغ إلى فراغ، السؤال: هل نعرف تشكلنا في الفراغ القادم ونتنبه له قبل فوات الأوان؟

[٤٣]

مثقفو العالم العربي كتيبة تنتظر الموت، هذا الوهم الذي خلقوه وتمترسوا بداخله يجعلهم فئة تبحث عن التميز من خلال بطولات زائفة.

المثقفون هنا مشغولون بموت السقاف..

يقولون إنه مات ميتة مدبرة.

فكرة المؤامرة، مزدهرة هنا مثلها مثل بقية عالمنا العربي، لا يحدث شيء بالصدفة أو وفق مجريات القدر، لا يحدث شيء وفق الانتقال من فراغ إلى فراغ، كل حدث يحدث هناك تقف جهة ما خلف حدوثه، فما يحدث في الداخل تدبره الحكومة، وما يحدث ضد اليمن تدبره قوى الرجعية والتخلف، وغالباً ما تنشط ذهنية المعارضين السياسيين في إلباس السعودية رداء كل ما يلحق باليمن من ترديات سياسية أو اقتصادية..

يقين صارم يعتمر به المثقفون: إن ميتة السقاف لا يمكن أن تكون قدراً.. ها هم المارة يتخاطفون الشوارع كالذباب ولا يحدث لهم شيء.. خرج من الفرن، ليجد تلك السيارة تختاره من بين جميع البشر.. هكذا يتم إسكات المعارضين، فالحادث المروري وسيلة الدول النامية لدهس الأصوات النشاز.. الموت وسيلة للتسلية حين لا يعود هناك جدوى من الكلام.

والرازحي ينتظر الموت، يجده يتربص به بين الحروف، وقنينة الخمر، والشوارع المنغلقة والمفتوحة، في قصيدته (نشوان ونكبة الراعية) يلبس رداء الموت وينتظر، ليس ثمة مصالحة بينه وبين الواقع، كل الأشياء تتساقط أمامه وتتحول الحياة إلى نوع من الموت فلا ضرر إذاً من مجيء الموت الأكبر، ومن أجل هذه السوداوية أسس حزب التراب، وأخذ يبحث عن أعضاء لينتموا إلى

هذا الحزب، يصفه بأنه الحزب الوحيد والفعلي الذي يحقق المساواة، فحين نستلقي ويغمرنا التراب ستكون القامات متساوية، ولن يجرؤ أحد على مد رقبته عالياً.

رفض طلباً تقدمت به للانضمام إلى هذا الحزب، ولم يصرح بحيثيات الرفض أكتفي بترديد:

- لا يمكن لك أن تكون من حزب التراب.

حينما عبرنا مقبرة خزيمة تلك المقبرة المخصصة لذوي الجاه، سخر الرازحي من موتاها:

- هؤلاء يظنون أنهم سيتسيدون حزب التراب أيضاً، لكنهم في الحقيقة سيكونون أقل رتبة. في حزبنا تخلصنا للتو من ضجيج باب اليمن حيث تجلس تلك الأجساد المكدودة خلف بضائعها مرسلة أصواتها المنغمة والمتغنية بمواصفات تلك البضائع الهشة لجذب المشترين، محلات البز، والحدادة، والعطارة والفضيات والصرافة والخزفيات، والملابس القديمة..

ضجيج واحتفال بالحياة، فرحة تفور من وجوه خابية تستلهم يومها بالحركة، غير مكترثة بالغد، ينظرون إلى يومهم شزراً ويطأونه باللامبالاة..

صبي صغير يحمل ثياباً مستعملة ويركض خلفنا، كان يتودد إلينا لشراء ثوب أو ثوبين، وجهه الطفولي تلبسه حنكة الباعة المهرة: باستطاعتك إرجاعه لو لم يناسبك؟

- أنا لا ألبس ثياباً مستعملة.

- أنت سعودي؟

- نعم.

- لم أعرض بضاعتي لك، فأنا أعلم أن جيوبكم المملوءة لا تشتري المستعمل.

- حسناً سأشتريه منك.

- لا لم أعرض بضاعتي عليك، عرضتها على صاحبيك.

تأفف الرازحي: قلنا لا نريد.. وزجره عبدالله بعيداً، كنت راغباً في الحديث معه.

- ما الذي حملك للبيع في هذه السن؟

وكمن يرغب في عرض حالته، وإظهار قسوة الأيام امتدت أنامله لحك رقبته، وانفرط يحدثني عن تركه للمدرسة لينهض بأسرته بدلاً عن أبيه الذي ينام في سجون إب لاختطافه أحد الأوروبيين وذبحه.. قال: أحلم بالسفر لأي مكان يبعدني من هنا..

نقدته ثمن ثوبين، ومضيت فلحقني بالثوبين:

- خذ بضاعتك التي اشتريتها.

- لا أحتاج إليهما!

فمد يده بالنقود التي أعطيته: وأنا لا أحتاج إلى نقودك.

ومضى صائحاً بين تلك الجموع المتموجة.

باب اليمن لم يعد يغلق في تمام الساعة السادسة والنصف ولم يعد يذهب الخدم حاملين مفتاح الباب ليد الإمام كي يسترخي مطمئناً أن صنعاء تنام في حضنه ولن يدخل أحد إلى مخدعها أو يخرج أحد من حدائقها.

بقي الباب مفتوحاً تلج من خلاله كل الرغبات وتخرج منه كل الأحلام..

ملابس مهترئة ووجوه مغبرة تستعيض عن كلاحتها بطيبة تفيض من خلال تلك الأفواه المتكورة بالقات والصبر الطويل على فاقة سحقتهم فبقوا يجاورون أحلامهم وينتظرون ما تأتي به الأيام القادمة.

زرت باب اليمن مرة أخرى، هذه المرة ضمن الوفد الرسمي، رأيت رجال الشرطة ينهرون تلك الأجساد المهلهلة ويعدونهم ويصيحون بباعة الزبيب والخضراوات لرفع بضائعهم المترامية على أرضية السوق، كان مقرراً للوفد أن يقوم بزيارة لباب اليمن، زيارة تبعد الروح عن الروح، تسير محاطاً بالعسكر، فكيف يمكن للوفود أن تسير في هذا الطوفان البشري، أبدى كثير من العسكر فظاظة مع السائرين والقابعين على أرضية السوق، أحد الباعة استعجل زملاءه بالنهوض وحمل بضائعهم بعيداً ناثراً سخريته اللاذعة:

- الحلف الأطلنطي سيزورنا.. اتركوا كل شيء واستقبلوه بالابتسامات فربما يمنحوننا قرضاً بلا فوائد.

وواصل بعضهم استهزاءه بتعداد ما سيقدمه لهم الغربيون من جنة غائبة..

سارت سيارة الشرطة غير مكترثة بأولئك الذين لم يتحركوا من أماكنهم، فهرع الجالسون بالنهوض، متذمرين وأطلق بعضهم شتائم في الهواء:

- حتى الحيوانات يتنبه لها.

صرخ به أحد العسكر محذراً:

- صه..

- تريد أن تدهسونا وتأمرونا بالصمت!

- هؤلاء ضيوف الرئيس!!

- على عيني ورأسي، بس نحن شعبه.

تجمهر الناس حول الحافلة التي تقلنا، واختلفت تعبيراتهم، وكلما تخففنا خارجين من داخل السوق سمعنا سخريات مخلوطة بنكات وشتائم حارقة.. كانت سيارتنا قد ابتعدت عن تلك الشتائم بقدر لا يمكننا من سماع بقيتها.

[٤٤]

رأيته كتمساح مل جلده الارتماء في الماء فخرج ليتشمس، جلس في مقعد يمكنه من التقاط وجوه العابرين في الشارع المقابل للفندق، وقد رفع نظارته فوق رأسه وبقيت يده تهمز أطرافه بحنو يقترب من حنو الأمهات اللاتي رزقن بمولود وحيد، وقفت على رأسه:

- أعتذر يا عم فاروق.

أشاح بوجهه صوب الشارع المكتظ بالمارة واستنهض ملامحه لتطفر باشمئزازها وعدم رغبتها في الحديث.

- لا ينكر فضل مصر على الأمة العربية إلا جاهل..

- ....

- عم فاروق أقرأ لك منذ وقت مبكر وتتلمذت على يدك ويد الكتّاب المصريين، تعلمت من كتاباتك القومية وحب جمال عبدالناصر وكيف نحب الوطن الكبير... العزة العربية خرجت مع الثورات المصرية، ثورات الطلبة والرجال الشرفاء..

التفت نحوي وهو يمصمص شفتيه وتفحص قامتي بشيء من التأفف:

- إذا ظللت صامتاً سأعرف أن كتاباتك لم تكن سوى تسويد صفحات.

انفجر كجبل داهمته حمم من غير توقيت:

- حتى اعتذارك بليد، أنا ما زلت مصراً أن بلدكم سبب تخلف هذه الأمة!!

- عم فاروق لنترك بلدنا وبلدك ونتحدث أنا وأنت.

- نتحدث في ماذا بعد كل تلك الشتائم التي كلتها لي ولمصر . . .

- كنت مضطراً لإيذاء سلوى فدخلت في الخط .

- الإيذاء، أتؤذي امرأة، ألم أقل لك إنكم شعب لا يعرف كيف يعيش حياته .

- ها أنا أتورط في اختيار اللفظة، لقد بدأت بالاستخفاف ببلدي فلم أقدر على التسامح، ولو أن الذي ناديتم به نجح لاستطعنا أن نفاخر بكل دولة عربية . .

- ها أنت تتهم مشروعنا الثقافي بالفشل من غير دراية . .

- أي دراية يا عم فاروق منذ عصر التنوير إلى الآن ولم تفلح دولة عربية في إرساء مشروع نهضوي قائم على حرية التعبير . .

- اسمح لي أن أقول لك إنك جاهل تنقصك المعلومة وقبلها فرزها وتحليلها!

واتسعت رغبته للحديث، جذبني للمقعد المجاور له:

- اسمع يا ابني . . .

لمحت قرينها يتهادى من بعد ويدس جسده داخل المصعد، نهضت على عجل تاركاً فاروق يتحسر على اتساع رغبته، وركضت باتجاه المصعد سمعته يفرط مقولته الأخيرة متأففاً:

- ألم أقل لك إنكم شعب نساء وخمر!!

[٤٥]

أريد أن أنام.

يأبى جفناي أن يغمضا فكلما أغريتهما برؤيتها في المنام فارت الأحلام التي نسجناها معاً.

أي نوم يمكن أن يأتي وأنا أتنفس الهواء الذي تتنفسه الآن، أقطن في مكان يقترب منها كثيراً، فربما تكون إحدى نوافذ الفندق تطل على بيتها.

وربما يجول أخوها الصغير في بهو الفندق أو في شارع عبدالمغني.

اسم أخيها رمزي سمّته بنفسها، حين جاء للدنيا كنت قد أفصحت لها عن حبي بطريقة ساذجة صبيانية، أظن أن عمرها لم يتجاوز الثانية عشرة في ذلك الوقت، تقبلت كلمة (أحبك) بضحكة واسعة وركضت في الشارع متلفتة نحوي مغطية ضحكتها بيديها الصغيرتين شيء ما كان يطير من عينيها ويحمل جسدها الناحل لأن يغرد في بقية الشوارع، هذه الكلمة ربطتنا منذ ذلك العهد، تبحث عن وسيلة لتصل إلى بيتنا، وأبحث عن أي وسيلة لأدخل بيتهم، حين ولد رمزي مكثت الليل مرافقاً لأمي وهي تطبب أمها، كنت أجلس في غرفة الاستقبال وهي تزودني بكل أنواع العصير والمأكولات، تتخير لحظة انشغال أبيها وأختها وتطل بوجهها من خلال الباب المنفرج:

- أعجبك المعمول الذي قدمته لك؟

وتغيب لحظات وتعود لتلقي جملة أخرى:

- أعجبك صحن المعكرونة؟ أمي علمتني الطبيخ، تقول: لا بد أن تكوني طاهية ممتازة كي ترضي عريسك.

كانت جملة طويلة كلّفتها توبيخاً وزجراً ناريين، ففي ذهابها وإيابها لمحها أبوها واقفة أمام الباب مباشرة تحاول إنهاء جملتها الطويلة تلك، فصرخ فيها غاضباً:

- ماذا تفعلين هنا؟.. سأعرف كيف أجعل قدميك لا تستطيعان حملك.. ادخلي للداخل يا كلبة!

في الليلة التالية تقاعست أمي، ولم تذهب لرؤية أمها النفساء، فتبرعت للاعتذار لأمي، طرقت الباب برباطة جأش ففتحت الباب، وغطت فمها بيدها:

- ماذا جاء بك؟

- جئت أحمل رسالة لأمك..

وقف أبوها على رأسينا تلعثمت كثيراً: أمي تبلغكم اعتذارها لعدم مقدرتها على المجيء.

عبس في وجهي: بلغها شكرنا وامتناننا.

وعاد لغرفة زوجته موصياً وفاء بتحميلي قارورة عسل كهدية، فجذبتني بحذر، وأدخلتني غرفة الاستقبال:

- أبي خرج من الباب الخلفي، انتظرني قليلاً حتى أتأكد من ذهابه!

غابت للحظات وعادت منتشية:

- لقد ذهب يمكنك البقاء لبعض الوقت.

مكثت ملتصقاً بجسدها، كنا أصغر من خبث الطبيعة الباحثة عن التكاثر من أي لحظات التقاء، كنا طفلين، تجاورنا كشجرتين لا تعرفان كيف تنجزان عملية تلقيح آن أوانها فبقيتا مستسلمتين لهبوب الريح تتلاقى أوراقهما وتفترقان بنشوة عاشقين جمعتهما رحلة سفر واحدة، اكتفينا بالالتصاق الخدر، والبحث عن وشوشة تدنينا كثيراً:

- سوف أسمي أخي الصغير رمزي.

- ألم تتفق أن يكون هذا الاسم خاصاً بابننا الأكبر؟

أبدت دلالاً فائراً: ابنك سيكون سمي أخي.. ألا يرضيك هذا؟

صوت أمها المجهد يصل إلينا خافتاً:

- وفاء.. وفاء..

دفعتني إلى خارج الغرفة وناولتني قارورة العسل بعد أن دست إصبعها داخلها وأخرجتها لألعقها:

- أنت كهذا العسل في داخلي.

عدت مخموراً بريقها، لم أسلّم أمي تلك الهدية، أبقيتها في مكان آمن ألعق منها كلما استعصت الظروف ومنعتني من رؤيتها...ومع رحيلها غدا حلقي مجرى لعسل الدنيا وكلما تجرعته أمعنت في غيابها.

لو رأيت رمزي الآن هل سأعرفه أو يعرفني، هل سيتذكر أن شخصاً كان يدس في جيب ثوبه رسائل عشق لأخته، هل سيتذكر تلك الأشرطة التي أزوده بها ليوصلها إليها بعد أن أفسدت ضميره بريال وضعته بين يديه، لا شك أنه الآن شاب يحرق فتوته بين عيني الفتيات الفاتنات هنا، لو سألت عنه هل سيذكر مجاورتي له أم استغلالي لطفولته، ربما يتذكر سفالتي التي ركبت براءته ولن يتردد من سل جنبيته المثبتة على خاصرته ليوقف هذا النبض ويثأر لطفولة ممتهنة.

هل بقي في اليمن أم فر كالكثيرين إلى داخل السعودية متسللاً عبر الحدود المتسعة، بحثاً عن سراب أو طفولة نمت في أزقة جدة.

جمال أبو ناب ولد في مستشفى باب شريف وحين انفجرت أزمة الخليج كان يقف بعمره العشرين مودعا أزقة وشوارع لم تمل من طفولته الشقية، خرج بحثا عن جذوره وعندما وصل إلى اليمن اكتشف أنه جز جذوره من شوارع جدة فعاد إليها سيرا على الأقدام، يقسم إنه حين رأى بحر جدة لم يتمالك نفسه وقذف بجسده سابحاً.. غاص للأعماق كمن يرغب في العودة إلى رحم يحميه من صلادة الواقع، جالسته علّني أعرف طريقاً إليها، فروى لي كيف قطع الطريق سيراً على قدميه حتى وصل إلى جدة، كان برفقته شابين خرجوا معاً من حرض وتسللوا عبر قرية المجنة، ومن هناك ساروا باتجاه جدة، كان مسيرهم

ليلاً، وفي النهار يحتمون بالجبال أو الأشجار حتى إذا هل الليل نشطت أرواحهم وأمعنوا في السير. .

في تلك الرحلة لم يصل إلى جدة سواه، فقد لُدِغ أحدهم ولم يستطيعا إسعافه فظل يقاوم السم الذي عكر دمه حتى لفظ أنفاسه بالقرب من مدينة القنفدة، فواريا جسده في حفرة لم يكملا حفرها جيداً، ومضيا من غير أن يلتفتا إليه، أما رفيقه الثاني فقد أكل الجوع أمعاءه فقرر أن يدخل مدينة الليث لجلب الغذاء والماء بالاستجداء أو العمل لساعتين أو ثلاث مقابل وجبتين، ولم يعد فقد مد يده لرجل شرطة بملابس مدنية ليقوده معه كأول متخلف يقبض عليه في دورته المسائية محتسباً هذا العمل إنجازًا يحسب له قبل ارتداء بزته العسكرية والبدء في دوامه اليومي، وتم ترحيل ذلك التعيس بعد أن قطع أكثر من ستمائة كيلومتر سيراً على الأقدام.

عندما وصل جمال أبو ناب وجد أن جدة لم تعد جدة، فقد بات يسير متخفياً وترعبه سيارة الشرطة، ويذعن لكل من رفع صوته في وجهه. .هذا الذي كان لا يرضى أن يدوس له كائن من كان على طرف بدا ضعيفاً مسالماً يبحث عن عمل فلا يجد فأصبح ثقيلا على أصدقاء طفولته يومياً يقترض ما يسد به حاجته، يسهر في الليل مفكراً في أولئك الذين ينتظرون أن يزودهم بما يقيم أود فاقتهم في تلك الخيام التي أقيمت للمغتربين العائدين من السعودية.

كنت أتحرج من محادثة أبو ناب حين ألمح ندى عينيه، ونظل نتبادل ذكريات هذا الحي حين كانت تجري فيه الحياة.

في أحيان كثيرة أشعر بألم حين ألمح وطأة النعاس الثقيل تداهمه فيترنح رأسه بين كتفيه، لم تعد العزبة ترحب بمقدمه بعد خشيتهم من مداهمة فجائية تستهدف المتخلفين، استشعر بذلك فتعمد السهر في الشوارع الضيقة وسرقة نوم خاطف يفيق بقية النهار بحثاً عن عمل يقربه من حلم طار منذ تلك الليلة التي قرر فيها العودة لليمن.

كيف يمكن أن أستجلب النوم وهذه الذكريات المرة تسيل من هذه الذاكرة المسودة بوجوه تؤسس لخرابه تليق بغربان حطت بين أنقاضها؟

هل عاد رمزي لرحم جدة وأزقتها أو أنه ما زال يجوب صنعاء متذكراً طفولة أفسدها ريال دس في جيبه؟

ربما لو خرجت الآن وسألت عنه أجده في مكان ما من صنعاء علّه يوصلني لرؤيتها أو يوقف بجنبيته هذا النبض المتسارع. .

تنازعني هذه الأمنية، فألمح جمال أبو ناب كالمهاجرين القدماء يحمل زوادته في طرف عصاه النائمة على كتفه ويخب القفار بقدمين شقّقهما الشوك والحجارة الصلدة وأغنية تزهر على شفتيه وتشوف لعينين أحرقهما الشوق وحين يصل يقف بين يدي حبيبته مهزوماً مهدوداً.

[٤٦]

تشوقت لرؤية قاع اليهود.

هاتفت عبدالله الدليمي وأبديت له رغبتي، جاءني صوته منشرحاً:

- لماذا اليهود تحديداً؟

(حقاً لماذا اليهود ألا يزال ذلك الظن الذي أسسه أبي قابعاً في داخلي؟).

- ألو.. ألو.

- نعم.

- لماذا اليهود تحديداً؟

- لم أر في حياتي يهودياً.. أعرفهم من خلال التاريخ، ومن على منابر الجمع، في كل صلاة جمعة أحضرها في الجامع الكبير أسمع الخطيب يصفهم بأنهم قوم سحت، وملعونون، وأنهم مسخوا إلى قردة وخنازير، أتخيلهم كعرائس البحر، نصف كائن حيواني والنصف الآخر بشري.

- يبدو أنك تعشق الأساطير، هم أناس مثلنا، الاختلاف بيننا اختلاف ديني.

- أعرف كل ما سوف تقوله لكني راغب في زيارة قاع اليهود.. هل تصحبني إلى هناك؟

وضعت سماعة الهاتف، بعد أن تحددت الثانية ظهراً للقائنا.

لم أر خنزيراً على الطبيعة في حياتي، كان أبي يصف أباها بالخنزير حين يشتد بينهما الخصام لأي احتكاك تحدثه تفاصيل الحياة اليومية، يظلان جارين ودودين إلى أن يحين موسم الأمطار واندفاع مياهها نحو منزلنا المنخفض يتم

ذلك بسبب تصريف موسى الفيل للمياه الراكدة أمام بيته وتصريفها نحونا مباشرة لتجد تلك المياه المندفعة شتائم أبي منتظرة موسى الفيل ومتوعداً إياه بتحويله إلى غرس تكون أوحال الأمطار مغذية لجذوره إن لم يكف عن تصريف المياه المنحدرة عن بيته، ومع انقضاء الأمطار يتشاجران في مركاز الحي لأي أمر تافه، كانا يقفان كخطين متوازيين ألفا تباعدهما وإذا اقتربا يوماً تذكرا طبيعتهما فيعودان للافتراق، مع هذا الافتراق كانا يحنان لبعضهما لو أن أحدهما توعك أو سافر ويظل كل منهما يسأل عن خطه الموازي حتى إذا عاد جلس كل منهما في خطه المقابل.

نعم، لم أر في حياتي خنزيراً على الطبيعة وكلما سمعت خطيب الجمعة يأتي على سيرة القرود والخنازير يتصب وجه أبيها أمامي بدائريته واحمرار وجنتيه وغلاظة مفردات وجهه.. في العطل الصيفية تتحرك أسرتنا مجتمعة صوب مرتفعات الطائف ونقضي أياماً بين مرتفعات الشفا والهدا، هناك تركض القرود في كل مكان فأظل أبحث بين مجموعاتها عن الخنزير الذي ارتبطت سيرته بالقرود وفي زمن ظننت أن الخنازير نوع من أنواع القردة، وتنبهت أن القردة هي الكائن الوحيد الذي لا يغطي مؤخرته، كان أبي حين يلمح أحد إخوتي عارياً يصيح به:

- يا قرد..

فتسارع أمي لتغطية تلك العورة.

وبقيت لزمن أيضاً أتربص بمؤخرة موسى الفيل علني أراه عارياً كقرد لا يستر مؤخرته.

الساعة لا تزال واقفة عند الحادية عشرة وثماني دقائق.. هو وقت مناسب لإجراء اتصال، راودني شك في الرقم الذي أحفظه عن ظهر قلب، فأخرجت القصاصة للتأكد، وأخذت أضغط على أرقام الهاتف رقماً رقماً، رن الجرس في مكان ما من صنعاء، فأخذت أنتظر متحفزاً، رنين متواصل وقبل أن أفكر في إرخاء السماعة سمعت صوتاً حاداً يثقب أذني:

- ألو.

- مرحباً لو سمحت أريد محادثة الجحش.

رد ضاحكاً:

- وهل تظن أنني في زريبة حتى أوصلك بالجحوش؟
- عفواً هو مشهور بنبزته أنا مرسول إليه من عيسى شرف.
- من أنت؟
- ضيف من السعودية.
- كنت أمازحك هل تقصد غلام؟
- نعم غلام.
- غلام في عدن نادراً ما يأتي إلى صنعاء.
- وكيف الوصول إليه؟
- تسافر إليه أو تترك رقم هاتفك لكي يتصل بك.

تركت اسمي ورقم غرفتي وحينما أحببت الاستزادة منه، أغلق السماعة تاركاً وجعاً وضيقاً يعتركان في داخلي.

تذكرت أنني أحمل رقم تلفون الشاعر صابر عبدالودود، جاء إلى السعودية مفتوناً بقصيدته الحديثة، لكنه لم يكن على وفاق مع ذاته، يستنكف من كل الأقاويل التي تدور حول اليمن والسعودية، كان معذبا بوسواس ينخر داخله يومياً يستشعر أن المثقفين يتخافتون في داخلهم: هذا جاسوس، ويستشعر أن بلاده تعده من المرتزقة، غالباً يكون صوته نشازاً بين المثقفين السعوديين الذين يرون في مطالبة اليمن بأجزاء من الحدود الجنوبية ورقة سياسية مهترئة، فيصمت على مضض خشية انزلاق لسانه فيجد نفسه رجلاً غير مرغوب فيه على الأراضي السعودية، يسرب استنكاره عما يحدث من خلال عينيه المتسعتين، ولا يستطيع مبادلة من حوله السخرية على السعودية كما يفعل أقرانه من المثقفين السعوديين، في جلسات كثيرة يستلهم قصيدة البردوني (في وجه الأزمة الثالثة) يلقي مقدمتها ويستكمل ما تبقى منها بينه وبين نفسه.

علمت أنه أصبح مدير تحرير لإحدى الصحف المحلية، فتشت في جيبي عن رقمه فلم أعثر عليه، فتحت حقيبتي، فتذكرت أنني تركت مجموعة من

الأرقام على سطح مكتبي ولم أحملها، شعرت بالضيق، اتصلت بالاستقبال لكي يوصلني بإحدى الجرائد المحلية علني أعثر عليه أو على هاتفه، جاء الصوت لرجل تميل لكنته للهندية، فبدت اللغة الإنكليزية على فمه كراقصة لا تجيد الرقص، وكانت لغتي أكثر بؤساً منه، ظللت أتلعثم وأنا أحاول تذكر بعض المفردات الإنكليزية التي يمكن لها أن تسعفني في إظهار مقصدي، اعتذر رجل الاستقبال الهندي كونه لم يفهم تحديداً مطلبي.

كنت أجلس تلميذاً على يد ياسين ليعلمني بعض الجمل السريعة المقتضبة، فبعد أن دخل للسفارة الأمريكية لم يعد يتحدث إلا بالإنكليزية متفاخراً على أبناء الحي جميعاً وفي مقدمتهم حسين داود، وفي كل مرة ألتقط منه كلمة أو جملة وأستخدمها في مكان غير مناسب، قال ضاحكاً:

- لن تتعلم حتى تختلط بالناس وخاصة النساء.

ووعدني أن يجد لي مكاناً داخل السفارة، وكنت أتابع هذا الوعد بتلهف وهو يستمهلني حتى جاء نبأ سفره إلى ولاية فرجينيا من غير مقدمات فقد تبناه أحد الأمريكيين واستطاع إقناع العم جابر أن مستقبل ياسين سيكون مشرقاً لو أنه سافر لأمريكا وغاب هناك زمناً طويلاً حتى رأيته في بيت الشيخ منور..

حين مددت يدي إليه كان بارداً، فمه يتمتم بأدعية منخفضة، كنت راغباً في أن أمازحه:

- ألم تجد لي مكاناً في السفارة الأمريكية إلى الآن يا ياسين؟

وعندما التقينا رمقني بنظرة حارة، وعاد لتمتماته، في ذلك اللقاء اكتشفت أن ياسين لم يعد هو ذلك الصديق الذي جمعتنا أيام من الشقاوات والطفولة البريئة، قطع محاولة تذكيري إياه بطفولتنا بجواب قاصم:

- استغفر ربك على ما فات من ذلك الزمن.

كنت أود أن أقول له:

لم نكن مكلفين في ذلك الزمن.. كنا صغاراً يا ياسين.

[٤٧]

الساعة تقترب من الواحدة والنصف، كنت أجد حرجاً في صدري، فكرت في النزول علّني أرى قرينها، خطفت كوتي من على السرير مبدياً رشاقة بهرولة قصيرة في الممر المؤدي للمصعد والمنتهي بعطفه، في المنحنى تماماً اصطدمت بشخصية – تبدو أهميتها من خلال مرافقيها – حيث كانت تتقدم شخصيات ذات سحن أفريقية، لم أتبين ملامح تلك الشخصية في البداية حيث انشغلت بالاعتذار (باللغة المتداعية نفسها) وأنا معلق بين يدي اثنين من مرافقيه العتاة، مط شفتيه كغوريلا تتهيج وتهم بالبطش، وقبل أن تكمل فورانها هدأت، هدأت تماماً، يبدو أن منظري كان مضحكاً وأنا معلق بين تلك الشجرتين العملاقتين وهما يقلبانني في الهواء ذات اليمين والشمال، هذا المنظر أدخل السرور إلى قلب ذلك الرجل الغوريلا فرمى كلمات صلدة لأسقط بين يدي مرافقيه كلعبة قديمة كان عليها أن تقذف بنفسها لأقرب مخرج لتبتعد عن نمور أحراش أفريقية مهمتها الانقضاض على أي كائن حتى ولو كان من ورق.

انسحبت من أمامه تاركاً المصعد ومتسرباً من بوابة الطوارئ.

أين رأيت هذه الملامح، فهي مألوفة، أيكون أحد الصحافيين اللامعين.. أو الرياضيين، أو الساسة، هذا هو الاحتمال الأقرب للصواب!

حمدت الله أنني لم أتحول إلى لعبة تثير السخرية أمام الملأ فلو حدث هذا المشهد في مكان عام فربما تحولت إلى صيد لكاميرا صحافي أو قناة تبحث عن المشاهد المضحكة والمزرية في آن.

كيف لو حدث هذا.. ستشاهدني وفاء على هذه الحالة، طوال عمري

كنت أستحضرها في المواقف الصعبة وفي أحيان كثيرة أدعو الله ألا تراني في موقف مخز..

إن أي إهانة مهما كانت هينة تقتلنا معنوياً أمام من نحب.

تهاديت صوب رجل الاستقبال وخجل عظيم يفتت داخلي كلما تخيلت أن أحداً لمحني وأنا معلق بين يدي أولئك النمور ذوات الأنياب المهشمة.

ناولني رجل الاستقبال رسالة طويت بعناية:

ربما لا تعرفني، لكنني أسمع عنك جئت أنا وصديق لرؤيتك، سوف نتصل بك لاحقاً.

وجدي الأهدل

تذكرت على الفور، قصة جميلة بعنوان (البطالين) قرأتها في أخبار الأدب لوجدي الأهدل..من خلاله يمكن أن أتصل بالأدباء الشباب في اليمن.

اخترت كرسياً مواجهاً لمندوبات الإعلام، وأخذت أفتش بينهن عن تانك العينين أو أن تنهض إحداهن بمشيتها، كلهن منقّبات لا تظهر من وجوههن سوى عيون ترسل وميضاً خاطفاً وتختبئ مرة أخرى.

رأيت عبدالله يقف على مدخل الفندق، ملوحاً بيديه ومطلقاً ابتسامة سريعة وهو يتحدث مع أحد رجال الأمن بالفندق، عرفني على اسمه حال وصولي الى اليمن، كان مكلفاً باستقبالي، لهجته لم تكن يمانية صرفة كان يحاول تقريبها من تلك اللهجة الجبلية الصخرية ومع إبداء هذه الملاحظة أخبرني أنه من أبناء حي السليمانية في مدينة الطائف ولد هناك ودرس بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة وعاد هو وأسرته إلى اليمن بعد وقوع أزمة الخليج.

– أتشعر بفرق يا عبدالله؟

– لا أخفيك عندما عدنا كنا نشعر بأننا غرباء فقد استوطن والدي مدينة الطائف منذ عام ١٩٦٢، فمع بزوغ الثورة غادر أبي اليمن فقد كان محسوباً على الإمام ولم ندخل إلى السعودية كلاجئين سياسيين، إنما كعشاق للملكية، كان أمام أبي أن يذهب إلى الأردن أو إلى المغرب أو إلى السعودية، وفضّل أن يكون قريباً من بلاده، فاستوطن السعودية على أمل أن يعود البدر ملكاً على اليمن،

واختار مدينة الطائف مقاماً لبرودتها وتقاربها مع مناخ صنعاء ومع ما حدث بسبب حرب الخليج عدنا، كان أبي خلالها قد وصل إلى قناعة بأن الملكية أسوأ نظام حكم يمكن أن تكون عليه البشرية، عاد من غربته يهتف لعلي عبدالله صالح. كانت أيامنا الأولى معاناة حقيقية.. وكانت مشكلتنا كيف نتأقلم مع أوضاع حياتية فقيرة من كل شيء..

أبي لم يستطع البقاء، ففي صبيحة اليوم السابع لمجيئه أيقظ أمي واخوتي وقرر العودة للطائف - كاتماً كرهه للملكية هذه المرة - وبقيت أنا هنا، لأعمل في بلادي وأثبت جذوري هنا كي لا أجد أحداً يرى في انتمائي مسبة تستوجب التوبيخ!!

كره أن يكون مطروداً وفضّل أن يستشفي من حبها في غربته داخل وطنه!!

حيّاني عبدالله، واسترخى على الكرسي المجاور:

- أما زلت مصراً على الذهاب؟
- إذا لم يكن لديك مانع.
- نحن هنا في خدمتكم، اطلب فقط.
- حسناً متى نتحرك؟
- كما تشاء.

من على بعد لمحت خطوة قرينتها التي أسلمت جسدها لأحد المنحنيات، كان عبدالله قد نهض مستعداً للتحرك، جذبته من يده:

- ما رأيك في كأس شاي قبل أن نتحرك؟
- لم أفطر بعد، لقد استيقظت متأخراً، وكنت مكلفاً بإنجاز بعض المهمات المتعلقة بالوفود.
- إذاً نتناول وجبة الغذاء، بعد ذلك نذهب.
- كما تحب.

تنبه لعينيّ الشاردتين، فتشاغل بتقليب مجلة سياحية قذفت على صفحة الطاولة المجاورة:

- النساء اليمنيات عصيات.

قالها وهو يقلب صفحات تلك المجلة:

- لم أفهم ما ترمي إليه.
- نحن هنا لسنا كبقية العواصم العربية السياحية، ما زالت حمية القبيلة تجري في عروقنا، ألا ترى أن معظمنا متسلحاً بسلاح.. ليس سلاحاً واحداً، بجوار الجنبية يرقد مسدس في جهة من أجسادنا.
- لماذا تقول هذا؟
- لا لم أقصد.. فقط تذكرت وأنا أقرأ هذه المجلة السياحية، كيف كنت أنظر للسفر، فعندما كنت في الطائف كنت أتصور أنه بمجرد أن تغادر مطار الملك عبدالعزيز يمكنك أن تضاجع أي امرأة أمامك.. وعندما وصلت إلى صنعاء اكتشفت أن رغبة عابرة يمكن أن تقابلها روحك.. الرجال هنا يفكرون متأخراً خاصة إذا كان الأمر متعلقاً بالمرأة فهم يغرسون جنابيهم في أي جسد يحاول تمريغ شرفهم..

حاولت أن أبدي غضباً زائداً:

- أعرف هذا، ولم آت إلى هنا لمضاجعة النساء.
- أعتذر لم أكن أقصد..
- حسناً.. هل أنت مستعد للذهاب؟
- ألم تقل إنك راغب في تناول وجبة الغذاء؟
- أفضل أن نذهب قبل أن يغرس أحدهم جنبيته في خاصرتي.

أطلق ضحكة قصيرة وهو يربت على كتفي:

- ما دامت عيناك هما اللتان تجولان في محاولة لاختراق سماكة كل نقاب فلا تخشى شيئاً المهم ألا تنشط بقية حواسك الأخرى.. ساعتها ستحول أنظار الإعلام العالمي لالتقاط صور لدمك المسفوح في مكان ما من صنعاء.

كان السائق المكلف بنا يجلس في مقصورته مدندناً مع أغنية لمحمد سعد عبدالله صدحت من جهاز تسجيل السيارة:

- يوم الأحد في طريقي بالصدف قابلت واحد

غصب عني سرت بعده سرت ما هميت واحد.

نشوة السائق لا تقدر بثمن، كان كطائر يحلق في فضاء متسع لا شيء يربكه في طيرانه، السعادة أن تمتلك هذه الروح، كانت تحيته لنا ابتسامة واسعة مبدياً همة فائقة لإدارة سيارته لأي جهة نريد، فكه الأيمن يطحن قاتاً رطباً يزيد من تكوره بمد يده لربطة قات استقرت بجواره، خطف عبدالله منها غصنين ناولني أحدهما، وغرس الآخر في فمه:

- ألم تقل إنك لم تأكل بعد؟

- غدا القات وجعنا اليومي.. فلا ضير أن أمضغ هذا الغصن مصبراً نفسي إلى ما بعد هذه الزيارة.

- يبدو أن الوفود أشغلتكم كثيراً..

ساعات قليلة ننام ونهب لتلبية رغبات الوفود، بعض الوفود يوقعنا في حرج زائد بمشاجرات ومشاحنات لا طائل من ورائها....

كأنه تنبه للخطأ الذي ارتكبه حين قاطعته:

- مثل ما فعلته مع سلوى وفاروق.

تلعثم معتذراً:

- لا والله لم أقصد ذلك.

- لا عليك، ولو كنت متعباً نؤجل هذه الزيارة.

- لست متعباً وهذا عملنا، وقبلها سمعة بلادي نحن نخدمكم بعيوننا.

يوم الأحد في طريقي بالصدف قابلت واحد

كنت أبحث عن مجرى يزيل ارتباكه ويعيد له طبيعته، فدندنت:

غصب عني سرت بعده سرت ما هميت واحد

- الغناء الصنعاني جارح.. ومحمد سعد رجل الأغنية الرومانسية.

- محمد ليس صنعانياً هو من عدن كل مشاهير الغناء لدينا من الجنوب وجميع من يستمع للغناء اليمني يظن أنهم من صنعاء..

- محمد سعد جنوبي؟

- نعم هو والمرشدي وطابور طويل من المشهورين.

تكورت وجنته اليسرى بصورة لافتة ومفاجئة: هل تعرف أن محمد سعد في جميع القصائد الغزلية التي كتبها لم يكن موجّهها إلا لزوجته؟

- زوجته، من منا يقدر على مواصلة هذا الغزل المديد مع زوجته!

كانت الشوارع التي نعبرها بهية ترتقي بها فورة الحياة في جهة من أوصالها، اخترقنا شوارع عدة، توقف السائق في أحد الجوانب، بشارع أشبه بشارع سوق اليمني بجدة حيث تراص الباعة في خطين متوازيين لبيع الخضراوات والفواكه، والمأكولات، والقات، المشترون للقات يغطون المكان كسرب حمام ألف الضجيج فتنقل من مكان لآخر بسكينة مفرطة، اخترقنا تلك التجمعات، ومحاولاً ألا تظهر الكاميرا كي لا تستفز أولئك المتجمعين، أشار عبدالله:

- هنا يقع حي القاع وهو حي اليهود من زمن طويل.

اخترقنا شوارع عدة ووقفنا بحي القاع.

مجموعة منازل منخفضة ومتداعية، ودكاكين صغيرة - حيث كان اليهود يمارسون مهنتهم الأزلية صك الذهب والفضة وبيعهما - نجمة داود تتوسط زخرفة أحد البيوت، رفعت كاميراتي والتقطت صورة لتلك النجمة وأدرت وجهي إلى الجالسين بين تلك الأزقة الضيقة، نفر أحدهم من جلسته:

- نحن مسلمون لا تظنوننا يهوداً.

- ألا يوجد يهود هنا؟

- رحلوا من هنا.

- إلى أين؟

- بعضهم رحل إلى وادي أبو جبارة وبعضهم استقر في أملح فهم لا يحبذون البقاء وسط المسلمين.

جذبني عبدالله من يدي مفرقاً مجموعة من الناس التفوا حولنا:

- مسألة اليهود حساسة هنا لا تسأل كثيراً، أنا سأخبرك بما تود معرفته.

انطلق صوته ثاقباً قحف جمجمتي:

– إن العلاقة السعودية اليمنية علاقة حساسة، كل الأمور بينهما ذات حساسية مفرطة، والمراجع لهذه العلاقة سيلحظ تذبذباً عنيفاً بين البلدين.. .وستحدث حرب بين الدولتين لا محالة!!

بهذا الجزم قال عباس سرور جملته منتشياً..

– بسبب الحدود؟

– بسببها أو بسبب آخر!

في صالونه الثقافي تخرج القمائم المخبأة أسفل السجادة، هناك تكتشف أن البيت في حاجة إلى إعادة ترتيب، مرتادو صالونه يرفعون السجاجيد مشيرين لمكانها وحين يغادرون يتأكدون أنهم لم يميطوا الأذى عن الطريق.. هذه هي عادتهم!

لم أداوم على حضور الصالون الثقافي الأسبوعي، وفي الأوقات التي تحملني فيها قدماي إلى هناك، أجد زرقاء اليمامة تحدق في المدى وتصيح:

– الحرب قادمة، وسيتبعها الدمار.. كل شيء سينضب!

عباس سرور يرى أنها ستنفجر بين البلدين حرباً عاصفة حتى لو تمت تسوية الحدود، يقول رؤيته من غير أن يعززها بحيثيات تجعل توقعه قابلاً للنقاش..

ومع كل رأي يكشف المخبأ تتلفت العيون بحثاً عن شخص مدسوس بينهم، أنت محتاج إلى تعزيز ثقتهم بك بتزكية يتقدم بها أحد المرتادين القدامى.. هذه الفئة مكنة إضافية تطحن الكلمات وتلتها من غير تخمير أو تنور ينضج مقولاتهم ومع ذلك تجلس باسترخاء منتظرة أن تمضغ قرصاً شهياً!!

هم لا يثيرون التوجس أو يحملونك لوضع يدك على المسدس عندما تأتي سيرتهم..هم يحوطون كلماتهم الطائرة من أن تحلق لتصل إلى أذن شخص مدسوس بينهم!!

ما زال عبدالله يجذبني من يدي متضجراً من عنادي وحرصي على البقاء (هل عبدالله رجل مدسوس علينا كعادة العالم العربي حين يتم تهيئة المخبرين

ليكونوا مرافقين للوفود الزائرة غير المرغوب فيها وتكون مهمة هذا المخبر إبعاد الزوار عن الأماكن المخبأة أو الأمور الحساسة والتي لا تود الدولة أن يعرفها أحد من أفراد الوفود الفضوليين.. هذا الإحساس جعلني لا أتقيد برغبته وأهمل نصيحته تماماً).

– هل باع اليهود بيوتهم هذه؟

المواطن اليمني يتبرع بالإجابة وكأن هذا كرم إضافي يزجيه لك مقروناً بالترحيب والضيافة أيضاً..

– لا، اشتروها يهود أمريكا.

– هل يعقل هذا؟

– نعم اشتروها بأسماء يمنية وما زالت هذه البيوت ملكاً لليهود وربما اشتروا بقية اليمن بالطريقة نفسها!!

امتعض وجه عبدالله وابتعد عني صوب متجر صغير ليبتاع علبة دخان.

قاع اليهود من أحد الأماكن التي تفوح برائحة الماضي، الخشية أن تأتي إسرائيل لتنقب عن آثار لأسلافها، فهل شراء البيوت اليمنية تمهيداً لاستيطان إسرائيلي قادم؟

وميض الكاميرا يفعل الأعاجيب، جذب وميضها عدداً غير قليل ممن مدوا رقابهم لأخذ صورة من غير أن يتحسسوا أو يسألوا أين ستذهب صورهم الضاحكة وذات الحركات الصبيانية في أحيان كثيرة، اقتربت من أحدهم متودداً:

– كان يجاورنا شخص في السعودية قال إن أهله يقطنون هنا، فهل تدلني على منزلهم؟

– بيت من؟

– بيت موسى الفيل.

– لا أعرف أحداً بهذا الاسم يقطن هنا.

والتفت إلى بعض مجاوريه وهو يشحذ همة مخيلته بترديد الاسم:

– هل تعرفون أحداً بهذا الاسم؟

كانت وجوههم الكالحة والمرهقة في آن تبحث عن هذا الاسم في أرشيف ذاكرتهم مما حملني لمساعدتهم: عادوا إلى هنا منذ عشر سنوات.

- . . . .

- هل تذكّر أحدكم؟

وفي جملة جماعية أجابوا:

- لا، لا، نحن لا نعرف أحداً بهذا الاسم.

كان عبدالله يقف من على بعد يرمقني بعينين حارتين، ها أنا أضيف إلى شجاري مع سلوى وفاروق حركة لم يحبذها مرافقي، فتحركت باتجاهه معتذراً عما سببته له من ضيق.

لا أدري لماذا تراودني فكرة أن وفاء سليلة عرق يهودي تم طمسه، ربما يكون السبب في ذلك جملة أبي التي دائماً ما كان يرددها:

- رجل كالضبع يتبول واقفاً ولم أره محرماً قط.

[٤٨]

- سنذهب إلى وادي ظهر.

منذ أن خرجنا من الفندق ونحن نلمح الجنود متناثرين في كل مكان، نمل من الجنود تفيض بهم الطرقات يترامون كحبات البرد في مساء عاصف، كان منظرهم مبهراً فكثافتهم أحالتهم إلى مشهد للسلوى، متراصين كأعمدة الإنارة ومتجاورين على مسافات متساوية وكأنهم جذور لأشجار قديمة ثبتت في هذه الأرض ونسي أصحابها أن يقطفوا ثمارها، مجموعات كبيرة تموجت مع تضاريس الأرض، تجدهم في أغوار الأودية، وفوق قمم الجبال وفي الأحراش، وعلى امتداد الشوارع مدججين بالأسلحة وبنظراتهم البائسة المتابعة لتدفق سيارات الوفود المتقاطرة كمدرعات حربية:

- هل ألبسوا كل أبناء اليمن البزة العسكرية؟

كان أبي يضحك كلما رأى الجند متناثرين في الشوارع لمرور موكب رسمي أو شخصية كبيرة، يضحك حتى تدمع عينه واصفاً العسكر بحمير السلطة وإذا توقف عن الضحك قبض على إحدى أذني بتقطيبة سرعان ما يثبتها على وجهه:

- إياك أن تكون حماراً كهؤلاء!!

مع تخرجي من الثانوية نازعتني رغبة الالتحاق بكلية الملك فهد الأمنية، حصلت على الاستمارة وقبل أن أكمل تعبئتها كانت يده تخطف أذني مزمجراً:

- لن تفهم أبداً!!

- . . . .

- الجندية كغطاء المرأة يغطي جمالها، والعسكرية تغطي المعدن الأصيل للرجل، تحوله إلى عبد عليه تلبية أوامر سيده والموت بدلاً عنه . لقد وضعوا

الجندية لحماية الكراسي، الكلاب هي الكائنات الوحيدة التي يستعملها الإنسان للحراسة.

الجمل السابقة لم تكن في سياق واحد، نثرها على مسامعي في أوقات مختلفة ومع كل جملة شقق وجهي صارخاً:

- فهمت أم لا؟

تحيّرت في تصنيفه، لم أكن قادراً على استظهار نواياه أو على أي جهة يتكئ، الآن وبعد كل تلك السنوات أستطيع الحكم عليه، هو رجل تطرف في آرائه، ولم يكن تطرفه إلا نتاج طبيعي لكارثية نظرية الكبير، فالكبير لا يخطئ رأيه دائماً صائب، هذا الكبير لا أحد يخالفه، من هنا نشأت وتوطدت فكرة الرأي الواحد ليتناسخ هذا الكبير إلى أعداد مهولة كونت المجتمع ذا النمطية الأحادية، أصبح مجتمعاً يتناقل خبراته وأحكامه وتسلط الرأي، أفرز عينات متطرفة في آرائها ومتصلبة لا تحيد عن خطأ الكبير لأن الاعتراف بهذا الخطأ سقوط لنظرية الكبير وبالتالي سقوط المجتمع برمته!

جئت من جيل أرهب بشتى صنوف العذاب، أرهب بالتعذيب الجسدي، والروحي، والنفسي، تعلقنا في حبال غليظة وعندما كبرنا كان علينا أن نعيد تجاربنا لأبنائنا لكننا وجدنا أن الحبال التي أوثقتنا حبالٌ ذائبة وأن أيدي أطفالنا ليست قريبة بما فيه الكفاية.

هبت القنوات الفضائية ريح عاصفة جندلت كثيراً من آراء الكبير، خلخلت ذلك المجتمع المتصلّب جعلته يتنازل عن شيء من سطوته مقابل تغير يجد نفسه فيه قشة تتطوّح في الفراغ.. فأخذ الكبير يبحث عن فراغ آخر تبقى له فيه قيمة.. الانتقال من الفراغ الى الفراغ وتشكيل فراغ آخر له مواصفاته التي نقبل بها وإلا رفض أحجامنا الجديدة.

اهتز صنم الكبير قليلاً، رأيت أبي يتراجع عن صلابته وجبروته حين جلس ابني الأصغر في مجلسه واتّهمه بأنه لا يفهم شيئاً، فخطف أذنه بين يديه ليصيح به:

- أتوب يا أولاد الكلب.

تلفتُّ لأمي ضاحكاً:

- لو أنه قالها في ذلك الزمن لقطعت لسانه.

ضمه إلى صدره وأخذ يستمع إليه بشغف، وهو يروي له سيرة مائة مرقش ومرقش مشترطاً عليه أن يقوم بدور بنقر بدلاً عني، ولم يغادر مجلسه حتى وعده بإقامة مأدبة كبيرة يدعى إليها جميع الأقارب لكي يمكنه من تسمية كل واحد منهم باسم كلب من كلابه المرقشة.

اهتز صنم الكبير قليلاً، كان المرور على كلماته يعني المساس بهيبته يكفي أن يقول ليتحول قوله إلى فهم مطلق لكل حرف تفوه به حتى وإن لم تفهم كلماته التي تفوه بها.

كاد يفلق رأسي بمنفضة السجائر التي تجاوره حين شتمت جمال عبدالناصر، حدث هذا مع عبور أول سفينة إسرائيلية قناة السويس دخلت عليه بالشاي وكان منهمكاً في تعديد مساوئ أنور السادات (على مسامع صديقه عثمان الوردي) واصفاً إياه بالشجرة التي تنمو في ظل الأشجار الكبيرة وحين تقص تبين أعشاباً طفولية سرعان ما تصفر ويذهب اخضرارها.

كنا يومها قد قاطعنا حضور دروس مواد الكيمياء والفيزياء واللغة العربية لكون مدرسيها من مصر، كانت فكرة بدائية على أذهاننا لا نعرف عواقبها اقترحها زميلنا باسل اللبناني، فطبقناها على الفور هرباً من يوم دراسي ولم نكن نفطن لتلك العواقب التي تطورت الى محاولة الوكيل استدعاء المباحث وتوريطنا في قضية أكبر من أعمارنا لولا حنكة المدير الذي اكتفى بمنعنا من حضور المدرسة لمدة أسبوع كامل وقبل أن نخرج سمعت منه كلمات متطايرة أهمها أن جمال رجل دكتاتوري (ولا أتذكر السياق الذي جاءت فيه).

هذه المعرفة كادت أن تحرمني من رأسي، فحين دخلت على أبي بالشاي يبدو أني كنت راغباً في إظهار معرفتي وأني شببت عن الطوق فأعدت جملة مدير المدرسة واصفاً جمال بالدكتاتوري وهممت بمواصلة حديثي لكنني رأيت قذيفة منفضة السجائر تقترب من رأسي فتفاديت ضربته بالاختباء خلف الباب، لينهض كأسد أضناه البطش، جذبني من ثوبي بكل قوته ودفعني خارج البيت:

- لا تعد إلى هنا!

بعدها لم يطرأ على لساني ذكر أحد من الزعماء خشية أن يكون جميعهم مزروعين في داخله، ومنذ ذلك العهد لم أتتبع خطى السياسيين، وكلما رأيت عسكرياً زاد احتقاري له ورهبتي منه في آن.

اهتز صنم الكبير، في جلسة أسرية تمنى ابني أن يصبح ضابطاً فقمت بحركة الكبير نفسها، خطفت أذنه وأعدت لمسامعه كل ما تفوه به أبي عن العسكر لكن ذلك العجل الكبير نفر من بين يدي:

- مستقبلي وأنا حر فيه!!

هل كره أبي العسكر بسبب تلك الواقعة التي فوتت عليه رؤية زعيمه الأوحد.

الأوتوبيس يعبر بنا مناطق عدة وأولئك العسكر يمتدون مع سيره وكأنهم شخص واحد علقت بزته العسكرية في مقدمة الأوتوبيس وظل ملازماً له ولم يبتعد عن عيون الراكبين مطلقاً.

حولت اصطفاف العسكر إلى مراقبة ومتابعة، مضى على خروجنا من الفندق ما يقارب نصف الساعة، وما زالت أرتال العسكر تتمدد مع مسيرنا من غير انقطاع، التحديق في وجوههم يجعل المرء يشعر بالحنو عليهم، وجوه مغبرة وقامات متهاوية، وجنات بعضهم مستديرة تقتات القات وتهرب أنفاس الدخان بلي أعناقها ونفثه بعيداً عن عيون الوفد. منذ متى وهم مغروسون في مكانهم هذا؟

أكان لا بد من تواجد كل هذه الأعداد من الجنود، كان الطريق إلى وادي ظهر يعلو ويهبط من غير أن ترى أحداً من اليمنيين متابعاً لهذه الوفود المحمية بكل هذا العسكر، هل تم تخبئة الناس في الشوارع الجانبية والأودية وسفوح الجبال..

هي مرة واحدة خرج فيها أبي وعاد لاعناً كل العسكر روى لي هذا العشق عندما أعادني عثمان الوردي للبيت متشفعاً لي عنده على زلة لم يكن من الأدب واحترام الكبير أن أقترفها، قبّلت يده وجلست أصغي لحديث عاشق بجمال عبدالناصر:

. . . في تلك الأيام كان جمال الزعيم الأوحد الذي غذى القلوب بحبه من خلال خطبه الرنانة، ولم نكن نجرؤ على الجهر بهذا الحب، كنا نتجمع في بيت أبي سنبل لنستمع لخطبه وحين قامت ثورة اليمن ووقف معها أصبح ذكر جمال كالتصريح بالكفر علانية وبعد سنوات من الحرب والعداء والحملات الإعلامية حدث الصلح وتناقل الناس زيارة جمال فخرجت جدة عن بكرة أبيها لاستقباله، كان قادماً عبر البحر، فاصطففنا على طريق الميناء (لا أعرف كيف أصف لك جمهرة الناس، كنا بأعداد كبيرة وبشوق أكبر، خرجنا نحمل قلوبنا لنعلّقها على صدر جمال) فإذا بنا نفاجأ بالعسكر يدفعوننا لداخل الأزقة الضيقة فنهرع إلى الشوارع الخلفية ونظهر في مكان آخر من شارع الميناء لنجد العسكر هناك ويعيدوننا لداخل تلك الأزقة للمرة الألف. لم نفهم هذا التصرف في حينه، فقد جرت العادة أن يُخرجوا تلاميذ المدارس ويحضون الناس للترحيب بأي زعيم يصل للبلاد، وبعد زمن طويل عرفت أن تغيبنا عن استقبال جمال كانت رسالة له تخبره أن ليس هناك من يحبه داخل المملكة كما كانت تشيع وسائل الإعلام العربية.

[٤٩]

تحفُّ بنا جبال صنعاء من كل الجهات، عبرنا جبل أشم ارتقته عينا عبدالله بزهو:

– هذا جبل براش جبل ضخم يطل على صنعاء من جهة الشرق، وهناك جبل الشبيها الجنة التي أقسم أصحابها لنصرمنها مصبحين وكان صاحبها يعطي ثمارها للمساكين فلما مات عزم أصحابه على أن لا يعطوا للمساكين شيئاً فانطلقوا يتخافتون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وتسمى هذه البقعة وادي الضروان وهو وادٍ ملعون حجارته تشبه أنياب الكلاب.

انزلق الأوتوبيس في وسط واد كبير يكفي هذا المشهد لأن تتخيل تلك الجنة التي أصبحت كالصريم.

وصلنا إلى وادي ظهر.

على جبل شاهق استقر قصر الإمام ليطل على وادي شاسع تحفّه الأشجار المتنوعة وتوازيه بيوت صنعاء الحجرية.

في ذلك القصر كان الإمام لا يزال يقطن كل رقعة فيه، كان يجلس في قصره وحيداً رغم كل تلك الأجساد التي تدافعت لدخول القصر وأخذ الصور التذكارية أو الصور التي ستكون مرافقة لاستطلاع صحفي عن هذا المكان.

يجلس الإمام في قصره وحيداً يطل على صنعاء يهدهدها لتنام ويمضي الليل ساهراً يقطف وردة جمالها ويستنشق شذاها متوحداً بها.

أقام قصره على نصف جبل انشق عن سلسلة جبال فتفرد بقمته وعزل نفسه عن بقية الجبال، جبل له قمة مدببة ومن تحته جرى الوادي مباعداً بينه وبين بقية الجبال التي تواضعت قليلاً عن قمته ليبقى متفاخراً بشموخه عنها،

وربما أوجد الوادي ليكون مباعداً بين الإمام وبقية الرعية ويبقى أهل اليمن ينظرون إليه كإله يمدهم بقليل من رضاه.

هناك وفي تلك القمة الوحيدة وبين دهاليز ذلك القصر كنت أبحث عن حفصة بطلة رواية (الرهينة)، عندما كنت أقرأ الرواية اغتظت كثيراً من زيد مطيع دماج، هل شاهد حبيبتي وحملها أوصاف حفصة، حفصة ابنة الإمام تلك البطلة التي تغريك بحبها والبحث عنها في بقاع الأرض وتتمنى لو أن قدرك كان كمثل ذلك الدوير الذي رأى ما لا يرى وسمع ما لا يسمع؟... تتمنى لو أن الإمام بقي مكانه ليأتي عليك الدور وتكون دويراً صغيراً ترى الجسد الملكي كيف يزهر، كيف تتساقط ورقات الوردة لتقف على التاج، ومن هناك من القبلة الملكية تغدو ملكاً وأميراً وقائداً، ووسيماً، تغدو عاشقاً تحلم بقليل من زوايا عين حفصة وهي تتمحك بأنثويتها وتسيل رغبتها من أجفان مسدلة، كيف يمكن العثور عليها الآن؟

ليس شرطاً أن تكون حبيباتنا جميلات لحد الإجماع على هذا الجمال إنهن جميلات بما نقوله فيهن، بما ننفثه من أرواحنا فيهن، وحفصة جميلة الجميلات..

فهل ثمة علاقة بين حفصة ووفاء؟

تعتق جذر وفاء الأسري داخل أسوار مملكة أسرة حميد الدين، فيها شيء من بلاط الإمام، ورائحة النساء اللاتي ينمن داخل القصور ويحملن الأساطير إلى مخيلة شاب مدقع يحلم بالأميرة النائمة.

أذكر أن أباها في كل منافحاته عن نسبه، وعرقه الأصيل تعرج لسانه ليتذكر أياماً خوالي قضتها أسرته في قصور الإمام، كان دائم التفسير لسبب تسمية عائلتهم بعائلة الفيل وإن هذا الاسم يرتبط بلقب إمامي، هذا التفسير غدا رواية مملة وفجة كلما أعادها على مسامع أبي حين يطفح بينهما خلافهما المعتاد فما إن يسرد تفاصيل حكايته المعادة حتى يبدأ أبي بتحقيره مستهزئاً ومقاطعاً حكايته بسخرية لاذعة:

– لو أنه كان عام الكلب لكان أفضل لك كثيراً.

وجدتْ روايتُه فضولاً في نفسي فسعيت خلف وفاء لتروي لي جذر نسبها، وقد أسندت لأبيها قوله: إن جده الثالث كان سائساً في بلاط الإمام جاء من جبال إب بعد أن اشتهر بمقدرته على ترويض الخيول المستوحشة، أوكل إليه الإمام سياسة خيوله النافرة، وساق له نفقة مجزية، فتآلف سريعاً مع الخيل ليجد نفسه راعياً لخيول الإسطبل مجتمعه، فجرت عليه نفقات عدة بواقع حصة لكل خيل يرعاه، وتعددت مناصبه داخل الإسطبل، وقفز لمقدمة حاشية القصر حين تلقى الإمام هدية سنية من والي مصر، ولم يجد الإمام خيراً منه ليوكل إليه برعاية تلك الهدية، ليجد نفسه ملازماً لكائن أكثر ألفة من تلك الخيول الجامحة، عندما تحرك لاستلام مهمته الجديدة وجد فيلاً جميلاً يقبع في إسطبل منفرد، وتوصيات صارمة برعايته والسهر عليه، فتفرغ لرعاية الفيل أكثر مما تفرغ لرعاية أبنائه، ولم تعد لديه من مهمة في الدنيا سوى علف الفيل والسير به في موكب الإمام، فسكنت الصحة جسده وجرى المال بين يديه. . في هذه السنة رزق بمولود فأصر على تسميته بالفيل تيمناً بفيل الإمام، وفي أحيان يخلط في روايته، ويقول: إن سبب تسمية جده الثاني بالفيل نسبة للعام الذي عرف بعام الفيل، وقصة عام الفيل هذه استبنت تفاصيلها مما رواه عبدالكريم الرازحي:

(كان بين الإمام المتوكل على الله أحمد بن المنصور وبين والي مصر محمد علي باشا علاقة صداقة وكانا يتبادلان الرسائل والهدايا.

ومن الاشياء الطريفة التي يهمنا ذكرها هنا هو أن والي مصر أرسل إلى الإمام المتوكل هدايا بديعة من بينها أحد فيلة الباشا وهو فيل صغير وكان هذا الفيل يخرج مع الخيل في المناسبات والأعياد وفي الاستعراضات ويمر به في أسواق صنعاء فيتحلق الناس حوله ويتفرجون عليه وهم في حالة دهشة وتعجب واستغراب.

فقد كان أول فيل يدخل بلاد اليمن وأول مرة يشاهد اليمنيون فيلاً بعد أن كانوا يسمعون عن الفيلة كثيراً من الحكايات والأخبار.

وكان خروج الفيل ورؤية الناس له حدثاً مهماً ومناسبة عظيمة بل إن الناس أحبوا هذا الإمام وأحبوا الفيل الذي أحال أيامهم العادية الى أيام

استثنائية وإلى أعياد ومسرات وكانوا سعداء بهذا الفيل الصغير الذي راح يكبر أمام عيونهم لكن السعادة لا تدوم إذ بعد أن مات الامام المتوكل المشهور بالجود والكرم جاء بعده ابنه المهدي عبدالله وكان إماماً بخيلاً ومكروهاً بين الناس الذين أحبوا الفيل أكثر منه.

وازداد كرهاً له بعد أن رأى مدى حب الناس له وتعلقهم به وكان أن عاد ذلك الفيل الى محمد علي باشا حاكم مصر مصحوباً باعتذار يقول: إن أرض اليمن لا تستطيع إطعام فيل يحتاج إلى أكل كثير وقد شعر الناس بالأسى والحزن عندما عرفوا أن إمامهم البخيل أعاد الهدية وأرجع الفيل إلى حاكم مصر وقالوا معلقين إن بلاد اليمن لا تتسع لفيلين وأطلقوا على الإمام المهدي الإمام الفيل كونه يأكل ولا يشبع كما سموا العام الذي دخل فيه الفيل إلى اليمن عام الفيل[1]).

ومع عودة الفيل لمصر غادر جد حبيبتي وأسرته الإسطبل منافسين الإمام على لقب الفيل!!

(١) عبدالكريم الرازحي، زاوية بيت العصيد، جريدة الوطن، العدد ٢٠٧، الثلاثاء ٣٠ محرم ١٤٢٢/ ٢٤ ابريل ٢٠٠١م.

[٥٠]

أبي ما زال نادماً لأنه لم يستطع رؤية أحب زعيمين إلى قلبه: جمال عبدالناصر، والملك فيصل.

وأصبح من عادته تغيير مساره لو رأى تكتلات العسكر في أي جهة من مدينة جدة، ينحرف بعربته مباشرة شاتماً كل من خطر بباله!!

قاطرة من الحافلات تجاورت خلف بعضها للهبوط داخل وادي ظهر، زادت معها كثافة الجند:

- هل خرج كل هؤلاء العسكر ليحجبوا صنعاء وأهلها من أن تخرج لرؤية زعماء الديمقراطية القادمة؟

سيارات الوفود تعاقبت هابطة لعمق الوادي وسط حشد غفير من العسكر والشخصيات المرموقة المهيأة لاستقبال ضيوف الحفل - هؤلاء يأتون لمص الرحيق ويتركون لتلك الطوابير الطويلة من الجند وقفة متصلبة وحلماً شحيحاً - ومن كل سيارة ترجلت أجساد متخمة بالعافية جاءوا جميعهم للمناداة بالديمقراطية والعدل والمساواة بينما وقف آلاف الجنود - من الصباح الباكر - بأجساد مهلهلة يتلقون أشعة الشمس الحارقة حاملين بطونهم الخاوية ورشاشاتهم الممتلئة لحراسة الديمقراطية.

قناني خمر متنوعة رصت على مناضد غطت أرضيتها بقطيف عودي وتوشت جوانبها بورود طبيعية ومن خلف المناضد اصطفت مجموعة عاملين ذوي سحنات هندية وفيليبينية تفننوا في رسم ابتسامتهم الرشيقة وتفانوا في تلبية طلبات الضيوف وفق أهوائهم ومشاربهم.

في الجانب الآخر كان اللحن اليمني يخرج صاخباً تتمايل عليه رقصات

يمنية شعبية تؤديها مجموعة من الفتيات والفتيان بملابس وطنية زاهية الألوان.

أرتال من الأجساد المختلفة ذات الأعراق المتباينة والمتنافرة، وكأن العالم صب ماءه هنا لتتشكل خميرة تلك الأجساد.

الزعماء والوزراء، الإعلاميون والعمال، الأسود والأصفر والأخضر وذوو الدماء الزرقاء، والباردة، كرنفال من العادات والقيم والأديان والسلوك، خليط من الروائح العطرية والخمرية وصنة الآباط، وسهك عمال، روائح ظلت تجوب المكان بحثاً عن أصحابها، إضافة إلى هذا البلاء لم تحفل وفود المؤتمر بنساء جميلات (أسر عمر بهذا قائلاً: هذا مؤتمر لوأد الجمال)، فبرغم كثرتهن إلا أنهن ابتعدن عن أنوثتهن كثيراً، قلة قليلة تمتعن بجمال أوروبي فاتن، وهؤلاء اصطحبتهن أياد أمنية لتبعدهن عن تلك العيون الجائعة، أجملهن كانت مصابة بداء الصلع الذي غزا شعرها الحريري من المقدمة أبان فروة رأسها شديدة البياض لتكون محل مقارنة ببياض يدها المرهقة بإبعاد النظرات عن مواطن ضعفها.

تسابق الجميع لدخول قصر الإمام ذلك القصر الذي بني على جرف سحيق، قال أنور:

- كيف بني هذا القصر؟

- السخرة يا صاحبي فلو مات كل الشعب لبناه الإمام من عظامهم.

- كل ملوكك وزعمائك يتفننون في بناء قصورهم ولا نراها وحين يغيبهم الموت نكتشف أنهم صنعوا جنة على الأرض حتى إذا دخلوا جهنم كانوا قد استمتعوا بكل جنات الدنيا.

- انظر هناك، كل هؤلاء الرؤساء محاطون بالحماية هنا وفي بلادهم كيف يعيشون في هذا الجو الخانق.

ضحك أنور:

- حرس مدجج لحماية الديمقراطية من الناس لو أن هؤلاء الناس مؤمنون بهذه الديمقراطيات لسار زعماؤهم بينهم كالملائكة.

الوفود الأفريقية تقترب من البله، وجلهم يتمتع بعدم اللياقة حيث

تفضحهم تصرفاتهم التي تقترب من التصرفات المشينة يتبادلون الحديث بلكنة وعرة حتى أن ضحكاتهم تزيد من وعورتها، نساؤهم أقرب لجالبات الحطب لإحماء الطبول في ليلة رقص بدائي وتغدو أزياؤهم ذات الألوان الصارخة مفجرة شهية الرفض لمجمل المشهد.

صعدت إلى داخل القصر، كنت أبحث عن حفصة أو وفاء علني أجد إحداهما تجول بفتنتها بين هذه الغرف المطلة على الجنة.. مجموعات كبيرة تجول داخل القصر، ولا أثر لحفصة، لا أثر لوفاء..

– أين تكون الآن وسط كل هذه الأفواج؟

اصطدمت عيناي بتلك الغوريلا البشرية وهو يسير متهادياً ومن خلفه تانك الشجرتان اللتان أبقيتاني معلقاً بين فرعيها، تنبهت لهما الآن، هما جثتان تجزم أنهما استجلبا من غابة استوائية ليكونا في إمرة رجل لا يعرفان إلا لغته، كانا أكثر فظاعة من سيدهما.

ظللت أرقب تلك الغوريلا البشرية، تنبه لي وحرك أصابعه في اتجاهي بتحية قصيرة لم أستطع الرد عليها فقد لمحت ثوريه يتحركان في اتجاهي، فدسست جسدي بين الأجساد لألمح ضحكته تتسع كثيراً.

[٥١]

مضخة الكلمات اندلقت في الجلسة الختامية للمؤتمر.

كان موقع الإعلاميين العرب يأتي في الصف الثاني بعد الوزراء اليمنيين وكبار رجال الدولة وفي الجهة اليمنى القصية من تلك المائدة المستديرة التي جلس عليها رؤساء الوفود وجلست الوفود الإعلامية الأجنبية في أماكن تتوسط المشهد بقرب رئيس الجلسة فخامة الرئيس علي عبدالله صالح.

لو وجد جهاز إلكتروني لإحصاء الكلمات التي دلقت في تلك الجلسة الختامية لما تمكن من ملاحقة كل تلك الكلمات التي قيلت ولربما اختار تسويد سمعة الشركة المصنعة له على مواصلة إحصاء ذلك الطوفان المنهمر من الألفاظ المكررة والميتة.

ساعة ساعتان والساعة الثالثة تزحف وفي كل مرة يصعد زعيم من دول العالم الثالث ليشبع آذاننا بمفردات الديمقراطية وربما بمفردات كتبها المستشار الخاص لهذا الزعيم أو ذاك والناطق بها لا يعرف منها شيئاً سوى حروفها، مللنا وضجرنا الزائدين لم يمنعا أولئك السادة المتحدثين من إيقاف صنبور الكلمات المتدفق: العدل، المساواة، حرية التفكير، التسامح، الحوار، التنمية، الإصلاح، المرأة ودورها السياسي.

كانت شاشات القاعة تلتقط لنا مشاهد لوجوه الزعماء المتحلقين حول تلك المائدة المستديرة، وجوه في غاية الإرهاق والملل، وجوه قاتمة، غائمة، ناعسة، ومتصنعة، وواجمة، ومعظمها مشغولة بالأحاديث الجانبية، اشتركوا جميعاً في التصنع فكلما ظهرت صورة أحدهم على تلك الشاشات وهو في وضع غير لائق قطع تصرفه وتصنع الإصغاء لما يقال باهتمام مبالغ فيه.

لم يكن أمامنا من منفذ للخروج سوى الإصغاء والتململ في جلستنا ووضع سماعات الترجمة لفهم بعض اللغات التي جلبت من بقاع الأرض وكأنها استعيرت لمثل هذا المحفل وبعدها تموت.

مال عمر باتجاهي:

- أليست هذه ديكتاتورية أن نصغي رغماً عنا؟ كان عليهم أن يناقشوا هذا في البدء قبل رفع شعار مهرجان الديمقراطيات الناشئة.

- أليست ناشئة، من حقها أن تتعلم الخروج من مشكلاتها وأول تلك المشكلات الثرثرة.

- ميزة مؤتمرات دول العالم الثالث الرغي من غير نتائج.

- انظر إلى وجوههم. . تشبه وجوه زعمائنا الأفذاذ ممتلئة ودسمة بينما وجوه مواطنيهم ناشفة ومرهَقة.

- كل وجوهنا محفورة، وجوه ممتلئة بالمياه الراكدة تغطيها الأشواك!

- نحن سجناء تلك البرك الآسنة.

تسمرت في مقعدي حين هاجمني وجه الغوريلا البشري كان يجلس حول الطاولة المستديرة المخصصة لزعماء الدول واستقرت أمامه لوحة أنيقة وعلم بلاده، أجهدت نفسي لمعرفة اسم بلاده إلا أن اللوحة التي تحمل اسم بلده انحرفت ولم تمكنني من التهام حروفها كاملة، بقي العلم القصير منكساً ومسترخياً لثقله: لأي دولة يكون. .

لكزت عمر:

- علم أي دولة هذا؟

لم تكن يدي دقيقة فظل عمر يؤشر على أي منها، وتراجع تهامسنا حين أشار لنا أحد الوزراء بالصمت. . ظلت عيناي تحاولان اقتناص اسم البلد بين الحين والآخر بينما ظل وجه ذلك الغوريلا جامداً كتفاصيل مفردات الحفل. .

وجه الرئيس اليمني ممتعض وحين التقطته الشاشة الداخلية تنبه للأمر وتصنع الإصغاء.

- حتى رئيس الجلسة ممتعض.

جاء صوت أحد الوزراء المتقدمين على صفنا خافتاً:

- هو الذي فتحها على نفسه، لو كان دكتاتورياً لأنهى الجلسة من زمن طويل!

عقّب شخص من جهة ما - لم أتبين موقعه -:

- كل الدكتاتوريين يعشقون أمثالهم!

[٥٢]

مضت نصف ساعة ورئيس مالي ما زال يلقي خطابه وكلما حمسنا أكفنا للتصفيق تشعبت كلمته في طرق الديمقراطية التي يرغب فيها، تذكرت كاسترو ذلك الزعيم المحب للثرثرة، هل يصرف الدكتاتوريون كلمات ليغطوا على استبدادهم.

الحياة لعبة قديمة لم يعرف قوانينها من جلس على كرسي الحكم، فتن بلعبة قذرة وكان عليه أن يكون أكثر قذارة منها هكذا هو الحكم: نسيان وقذارة.

وهؤلاء المجتمعون يمارسون لعبة النسيان والقذارة في آن واحد.

صورة الزعيم الكونغولي تملأ الشاشة فيما بدت أسنانه البراقة تلمع في تسريب ضحكة لسيدة تجاوره، آوه لو كتب لتشي غيفارا أن يصطاد هذه الابتسامة الآن حتماً سيتذكر مغامرته في الأرض الكونغولية وسيروي مرة أخرى عن مغامرته هناك سيروي أن الثورة الكونغولية كانت بالية وقذرة حين كان الثوار يهتمون باحتساء الشراب وملاحقة النساء: هم كذلك ثوار العالم الثالث باحثون عن السلطة والنساء.

إن الكبت والفقر يولّدان زعماء من ورق أو من حطب.

اختطف رئيس مالي الربع المتبقي من الساعة، أي فم يحمله هذا الرجل ليضخ كل هذه الكلمات المعطوبة؟

مال وزير الثقافة اليمني على رفيقه وزير الكهرباء:

– لو تأمر أحد موظفيك بقطع التيار لأرحتنا من كل هذه الطلقات!

رد بضحكة مكتومة:

– وسيزيحني زعيمك من منصبي.

تبادلا ضحكة مشتركة ليتنبها لتصفيق حار انتشت به صالة المؤتمر، أخيراً منحنا أكفنا فرحة التصفيق للرئيس المالي بانتهاء كلمته، لتظهر هيلاري كلنتون عبر شريط مسجل متحدثة للوفود وجهها يحمل آثار مونيكا، كان حضورها مستفزاً لتقدم كلمتها على كلمتي رئيسي دولتين آسيوية وأفريقية، أي بروتوكول يجيز لها تقدمها على رئيسين، هي مشاركة من خلال الإدارة الأمريكية وعديمة الصبغة السياسية هل يمنحها الاقتران برئيس الولايات المتحدة تقدماً يكسر البروتوكولات الرئاسية، اعترك في داخلي هذا الإشكال البروتوكولي فأسررت به لعمر الذي ضحك:

– أليس وجهها خيراً ممن سبقها؟

كانت ابتسامته لا تزال ناضجة وهو يكمل جملته:

– لو أن زعماء العالم نساء لاستمعنا إليهن حتى لو تحدثن طوال اليوم.

وصمت للحظات وفرد ضحكته:

– أليس جميلاً أن تصغي لمثل هذا الوجه بدلاً من هذه الوجوه الكالحة والتي تشعرك بالامتعاض كلما تحدثت؟... أتصور أنها ستصبح الرئيسة القادمة للولايات المتحدة الأمريكية!

يبدو أن تهامسنا أثار حفيظة أحد الوزراء الذي رمقنا بنظرة حادة وكأنه يحذرنا من التخافت.

شفتاها الرقيقتان تسربان خطط البيت الأبيض وكأنها تملي السياسة الأمريكية القادمة، في كلماتها شيء مريب، بدأت بشكر المرأة التي قدمتها وتثني إعجاباً بما قالت.

كيف لها أن تعرف أن امرأة قدمتها وكيف علمت فحوى التقديم وهي لا تتحدث عبر الأقمار الصناعية وإنما من خلال شريط فديو؟

إذاً هي طبخة قدمت لدول تحبو على عتبات الديمقراطية الأمريكية، طبخة على هؤلاء الأطفال تلمظها كما يتلمظون نواة التمر.

كانت كلمتها مركزة وحملت فرحتها باندماج المرأة العربية في المجال

السياسي، وقبل أن تغيب عن الشاشة تمنت للنساء العربيات الخروج من الدهاليز الاجتماعية التي حاصرتها عبر قرون من التخلف.

- هذا بلد متخلف..

هذه جملة وفاء كلما خرجت ووجدت الغطاء يحول بينها وبين قطع الشارع العام.. كانت تبحث عن وسيلة لخلع حجابها، وفي كل مناسبة تتمنى هذه الأمنية..

- لو أن بلدكم بها قليل من الحرية.

نساؤنا لا يعرفن من الديمقراطية إلا أنها خلع الحجاب وقذف العباءة!!

في أي مكان هي الآن.. أظنها الآن تحرق قلوب من يتطلع لعينيها لو أنها خلعت الحجاب، فعيناها كفيلتان بإحراق الكون وإشعال فتيل الفحولة في كل مكان تعبره!

[٥٣]

خشيت ألا يتصل الشخص الذي سيوصلني بالجحش.

أول مرة أعرف أن الجحش توجه لليمن من حديث عيسى شرف، تنبهت لغيابه في ليلة وداع وفاء، في تلك الليلة التي قضيت فيها أغالب نعاساً ثقيلاً تحت نافذتها، تطلعت إلى مقعده الذي يقتعده ليلياً ليحمي لقاءنا من العيون والأقدام العابرة، كان مقعده شاغراً ولأول مرة تمنيت وجوده كنت أبحث عمن يسامرني ويخفف من جزعي على رحيلها.

وبعد رحيل وفاء نسيته تماماً، ففي تلك الفترة كنا نستيقظ على أناس رحلوا وننام على وداع أناس يتهيأون للرحيل، كان الرحيل نزيفا يومياً حتى خشي البعض أن تسقط البلد فجأة، أن تغوص في قمائمها أو تموت جوعاً لغياب العمالة الراحلة والخائفة من نبوءة بقاء عاصفة الصحراء تجلجل في كل بقعة من بقاع البلد.. نسيت الجحش تماماً حتى جاء ذكره على لسان عيسى شرف، حبكت تهكماً في داخلي من قدرية هذا الجحش في حياتي:

- إذاً سيكون هو نفسه من سيوصلني إليها.

خرج من مشاجرة بينه وبين السهدي بهذه النبزة، وظلت ملازمة له من غير أن تشفع له وسامته التخلص منها.

هكذا نحن أبناء الأحياء المنسية نقوم بارتداد معاكس لنسيان الحياة لنا، فنسينا أسماءنا، واستبدلناها بالنبز، هذا فعل بدائي قديم، كانوا يهربون من الموت بتغيير الأسماء، ونحن لكي نعاند تهميش الحياة لنا نتمسك بالنبز ونلغي أسماءنا.

لا أحد منا يستطيع ذكر اسم صاحبه كاملا نكتفي جميعاً بتلك النبزة التي تلازمنا من غير أن نستنكف منها.

الاسم الأول للجحش غلام أما بقية اسمه فلا أعرفه، قَدِمَ جده لأبيه من كلكوتا حاجّاً وبقي في مكة لسنوات طوال تزوج وأنجب أبا غلام وانتقل إلى مدينة جدة وعاش بها، كان الجحش يفاخر بأن جده جاء إلى مكة قبل مقدم الملك عبدالعزيز للطائف ورفض التجنس تعالياً على الجنسية السعودية وقبل أن يموت حفيت قدماه للحصول عليها ولم ييأس ابنه وأحفاده من مواصلة ركضهم علهم يحصلون على التجنس بشهادة الشهود أو تدبير أمرهم بالرشى إلا أن الطريق الأخير كان مكلفاً لا يقدرون عليه ولو قبضوا أجورهم لمائة سنة قادمة، فظل غلام يبحث عنها نهاراً ويحوم في الأزقة ليلاً حتى سئم وغادر السعودية قبل تحرير الكويت بأيام ولم يعرف أحد من أبناء الحي إلى أين اتجه وإن كنا جميعاً نظن أنه عاد إلى كلكوتا.

مرات عدة تجرأ على وفاء، تخبرني بأفعاله متأخراً، تلك الليلة لم تشأ أن تؤخر شكواها:

على غير موعدك سمعت طرقاً خفيضاً على النافذة المطلة على الشارع، ضمرت لك شتيمة تبقيك متهدج الأوداج لأسبوعين كاملين، فقد خشيت أن يتنبه أبي لذلك الطرق فلم يكن موعدنا قد حان استغليت وجود رطوبة خانقة داخل الغرفة وادعيت بأني في حاجة إلى تجديد هوائها، وعندما فتحتها كان يقف مرتبكاً، وعذوبة وجهه ترجوني الإصغاء لكلمتين قالها: كلمتان فقط، صحت به:

- هل جننتَ أيها الأبله؟

ويبدو أنه كان مرتباً ما سوف يقوله:

- أنا أحق بك منه، فقط عديني وسوف أحول حياتي تماماً.

لا أعرف لماذا تجاسرتُ وبصقتُ في وجهه، فانفعل صارخاً:

- أستطيع أن أكشف سركما لأبيك الآن.

خشيت أن يرتكب حماقة فأسرعت بالاعتذار منه، مسح بصقتي براحة كفه وأخذ يلعق بصاقي وهتف بصوت رقيق:

- أحبك، وستكونين لي تذكري هذا.

حينما سردتْ عليّ هذه الواقعة جرى الدم في عروقي وأخذت أجوب شوارع الحارة بحثاً عنه لكنه اختفى كحلم برق ولم يكتمل.

وجدته بعد ثلاثة أيام يتربص بي وأنا أقرع نافذتها فعدوت خلفه فركض محاولاً الإفلات مني وقبل أن أضاعف من ركضي توقف فجأة، فأمسكت بياقة ثوبه:

- أيها الخسيس ماذا فعلت؟

كان أكثر بروداً عما مضى:

- أنا أحق بها منك، فكلانا غريب عنكم.

صفعته فلم يستجب وجهه لرد فعل محدد، كان ضوء بابها المنفرج ينير عتمة الشارع وهي تمد قامتها لرؤيتي، فلم يزد على قوله:

- لقد ظهرتُ لك هذه المرة من الباب اذهبْ إليها وانسَ كل ما قلت لك.

هل نفّذ وعده ولحق بها إلى هنا ليتزوجها؟

لو فعلها لن أجرؤ على قتله هنا لكني لن أُعدم الحيلة من تدبير كيف يمكن بث بطنه المتخم برذائل الكون.

نعم سأسحق عظامه إن فعل!!

[٥٤]

ليل بطيء، والأيام تركض مسرعة، لا شيء يجاورني سوى استعجال ظهور النهار.

ولا شيء يحرك هذا الركود سوى سيل أخبار قناة الجزيرة، هذه النافذة التي انفتحت في بيت مظلم، لنكتشف نحن العرب أن بيتنا خرابة تسكنها خفافيش ليلية لا تعرف التحليق إلا في الليالي تخرج لتمتص دماءنا في غفلة منا وتتعلق في قلوبنا بقية النهار.

قناة فتحت علينا صنبور المياه الآسنة دفعة واحدة، وفي كل بيت كان زعيم عربي يخلع ملابسه الداخلية، ويقف عارياً، وضحكته القديمة تتكسر في مسامعنا وعلى شرفات أبصارنا.

ظل أبي أسيراً لجمال عبدالناصر، يقول إنه لم يمت موتاً طبيعياً فالموساد قتلته وأوعزت لأمريكا بتثبيت عميلها أنور السادات.

كنت صغيرا حينما كان أبي يبصق في اتجاه التلفاز وعندما أرادت أمي تهدئته طردها من أمامه لتغيب عن بيتنا لأسبوعين متتاليين وحين تورط في رعايتنا كان يشتم اسماً محدداً..

هذه المعرفة لم أتحصن بها حين شتمت أمامه جمال عبدالناصر ولولا شفاعة صديقه الوردي لتركني أهيم في الطرقات من غير أن يسأل عني.

في غرفة نومه وضع صورتين: صورة جمال عبدالناصر وصورة الملك فيصل، بعد حادثة الطرد غدوت أسترق السمع إليه وهو يتعارك مع صديقه عثمان الوردي حول الأخبار التي يسمعانها:

- لو بقي هذان الزعيمان حيّين لما حدثت كل هذه الكوارث.

ويشتط غاضباً من صديقه كلما هوّن من حماسته، فيعيد جملته بعناد مبالغ فيه:

- أقول لك لو بقيا حيّين لما حدثت كل هذه الكوارث.

يتذكرهما في كل حادثة عربية، تذكرهما في كامب ديفيد، وفي اجتياح بيروت، وفي غزو العراق للكويت

وعندما ظهرت قناة الجزيرة جلس أمام مذيعيها أياماً طويلة بعدها أنزل صورتي: جمال عبدالناصر والملك فيصل من غرفته وقذف بهما في مخزن لا يفتح أبداً، وجلب عاملاً ليعيد صباغة غرفته بسبب لونين فاقعين لبقعتين ظلتا بارزتين مخالفتين للون الغرفة، كان أثراً لصورة الزعيمين اللذين اختفيا من غرفته تماماً.

كنت أتابع برنامج شاهد على العصر وكان الشاذلي يفتق تاريخاً متماسكاً في ذاكرتنا، قاطعه المذيع بتحريك حاجبيه منهياً الحلقة ليحل مكان التاريخ الفاضح فاصل إعلاني، هتفت متضجراً:

- العالم العربي ليس بحاجة إلى كل هذه الصراحة، اتركوا لنا قليلاً من الأصنام!

[٥٥]

أظهر أبي غضباً زائداً من رفيق مجلسه عثمان الوردي الذي أبدى استياء من السماح للأمريكان بتواجد في المنطقة.

عثمان أمضى حياته هاوياً لجمع أنواع الراديوات على مر عمره الطويل، فتجده في الأسواق وفي الكراجات يتتبع ويجمع كل الأنواع ذات الاستقبال الجيد، وفي كل جولته تلك حصد عشرات الراديوات التي يضعها في غرفته المخصصة لجلسة انشراحه ويقوم بفتح كل راديو على محطة من المحطات التي يستقي منها الأخبار الطازجة - كما يقول - فقد ثبت كل مؤشر راديو على هنا: (هنا لندن، صوت أمريكا، صوت ألمانيا، صوت كندا، صوت العرب، وإذاعة إسرائيل) حتى غدا رجلاً ترتاب من قواه العقلية من كثرة ما سمع من أخبار وتحليلات على مدى ثلاثين عاماً، ويمكن اختصار القول بأنه يمثل نموذجاً للتلوث الإعلامي، يحمل من كل توجه إعلامي قضية ما، فهو معني بالخمير الحمر، وبالأسباب الرئيسة لسقوط الاتحاد السوفييتي، وسبب تفجر الإرهاب في مصر، واستعصاء حل القضية الفلسطينية، وأسباب بقاء كاسترو، وأسباب تردي اقتصاد نمور آسيا.

جاء إلى أبي حاملاً مذياعاً، فمازحه أبي:

- هل جئت لتحرر الكويت بهذا المذياع؟

فلم يستلطف مزاحه وتعكر وجهه، راداً بصلف كما هي عادته:

- أنتم لا تعرفون شيئاً، الذي تعرفونه إجادتكم للمنافحة، المنافحة فقط.

تلقى أبي رده بضحكة مجلجلة:

- ولأنك فقدت هذه النعمة فأنت تحاول إشغال أم العيال بمتابعة الأخبار لتنسيها واجبك الأساسي.

فتضاحك حتى اهتز كرشه البارز:

- قبّح اللّه ردّك.

استوى في جلسته مبدياً أهمية لما سيقوله:

- سمعت اليوم تقريراً خطيراً.

ولم يترك أبي يستثيره فواصل:

- يقول التقرير إن مقدم الأمريكان للخليج سيؤدي إلى استوطانهم للمنطقة واستغلال خيراتها ليس هذا فحسب بل بقائهم فيها إلى أبد الآبدين.

- مقدم الأمريكان خير من أن نرى شرفنا يهتك على يد جنود صدام.

- ها أنت تقول جنود صدام وليس صدام نفسه.

- الجنود على شاكلة زعمائهم وهم ينفذون سياسة زعيمهم.

- كلامك هذا ليس صحيحاً وكل ما يثار من أقاويل مجرد إشاعات إعلامية.

- وما تسمعه أنت مجرد إشاعات إعلامية.

- لا يجري في عروقك الدم العربي، يكفي صدام أنه أطلق صواريخه على إسرائيل.

- صواريخ أيه.. هذه لعب يا عثمان.

فاشتاط غيظاً وصاح به:

- ستظل لا تعرف من هذه الدنيا سوى تشمير ثوبك في كل مساء وأنت تنافح زوجتك.

بعد أن جالس أبي قناة الجزيرة أصبح يصدق كل مقولة تفوّه بها صديقه عثمان الوردي في ما سبق من أيام، واستعار صيحات زرقاء اليمامة منذراً جلساءه من رؤيته لأمريكا تقف خلف الأبواب لتلتهم كل العالم العربي.

أشفقت أمي عليه من تهيجه المستمر ومجاهرته بكره كل الزعماء العرب من غير أن يخشى أن يقاد لزنزانة تبعده عن تلك القناة!

[٥٦]

حين نفقد الغناء تغدو أصواتنا شبيهة بأصوات الحمير إلى حد بعيد

عمر الطيب

بقامته الطويلة مال هامساً:

- لا تذهب، استطعت الحصول على قنينة شيفاز سنصعد إلى غرفتك أو غرفتي.

خجلت أن أخبره أني لا أشرب، وتضاعف هذا الخجل حينما تذكرت أنني كنت دائم السؤال عن الشراب، ومبدياً امتعاضاً لعدم توافره، أنهى حديثه مع أنور سريعاً، وصعد لغرفته بعد أن غمز لي للحاق به.

لا يمل من مطاردة النساء، يلتقط الصور لكل امرأة تعبره، يحمل كاميراه كبندقية صياد محترف يظل متربصاً بفريسته يمنحها الفرصة لتأخذ سكينتها كيفما تشاء وحين تسترخي مفاصلها تماماً ينزع روحها بالضغط على فلاش كاميراه، يصوب طلقاته في ثنايا فريسته، ويعود منتشياً، مترنماً بترنيمة صياد حاذق.

تبعته، فوجدته قد هيأ جلسة صغيرة وكأسين وقليلاً من المزة، أقسمت عليه بأن أقوم بتجهيز الكأسين وافق تاركا لي أداء هذه المهمة المقدسة - كما وصفها - فملأت كأسه مخلوطاً بمشروب غازي، وعكرت ماء كأسي بالمشروب الغازي، مددت إليه بكأسه فتناوله ضاحكاً:

- أليس هذا أفضل من أن نجلس الساعات الطوال نقتات عشبة القات كنعاج عليها أن ترعى في الظهيرة...

- لو تعرف متعة القات لما أقدمت على الشراب.

- لا أريد أن أدرك متعة أخرى غير متعة الشراب.

بعد الكأس الثالثة ظهر الخدر عليه، انتشى كعصفور النغري الذي ثقب حبة العنب وجاءها بعد أن تخمرت وغدت شراباً سائغاً يبعث على الغناء ويطري صدأ حنجرة تراكم من جريان ماء آسن، تمايل طرباً مع أغنية تسللت بصوت هادئ من جهاز المسجل المجاور لنا:

يا ترى يا وحشني بتفكر في مين

عامل ايه الشوق معاك

عامل ايه معاك الحنين

بادرني سائلاً:

- ألم تحب؟

لم ينتظر إجابتي فأردف:

- هناك امرأة واحدة تحرقنا وتجعلنا نجوب الأرض بحثاً عنها.

- صدقت، امرأة واحدة فقط.

تناول كاميراه من جانبه وتنهد بعمق:

- لو تعلم أن هذه الكاميرا هي مصدر شقائي، هذه الآلة الصماء خرج من عتمتها عشق مجنون، أنارت للحظات، قبضت على حورية يبدو أنها كانت تتنزه على الأرض فاقتنصتها، هذه الآلة ولدت أسطورة من الحب، أدخلتني في عمقها وأغلقت علي هناك، غدوت مفتوناً بما تخرجه من عوالم مدهشة..

أمسك بكاميراه قلبها بين يديه:

- أحب هذه الكاميرا وأكرهها، أكرهها لأنها أوقعتني في عشق ليس له من دواء، كنت أسخر من أخبار العشاق الأوائل الذين يقعون صرعى عشق امرأة عبرتهم ورمقتهم بلحظها وانسلت.. ألم يقل أحد شعرائنا: (رمتني بدائها وانسلت)..

استوى في جلسته وملأ كأسه الخامس وأبحر يجدف في أعماقه:

- زرت معظم بلدان العالم، وفي كل بلد أعود حاملاً عدة فرائس من

الصور، كنت حريصاً على تحنيط كل فرائسي على جدران غرفتي، هناك مئات الصور لنساء لا أعرف من أين جلبتهن تحديداً، فكل واحدة تم افتراسها بلقطة خاطفة، تحولت غرفتي إلى متحف لنساء العالم، صور من كل جنس ولون، وفي أوقات الفراغ أجلس لتفحص تلك الوجوه، ثمة امرأة واحدة لا أعرف أين التقطت لها تلك الصورة، هذه المرأة حالت بيني وبين الحياة، كنت قد التقطت لها عدة صور وفي أوضاع مختلفة، في كل لقطة تبدو أكثر فتنة من سابقتها، حرت في تحديد البلد التي التقطت فيها هذه الصور، كل يوم أفرز صورها أمامي (لها عشر صور)، أتأمل كل حركاتها: جالسة، قائمة، منحنية، ضاحكة، عابسة، تمضغ أكلاً، ترفع شعرها عن وجهها، تشير بيدها. . . .

يومياً أجالسها فأزداد افتتانا بها، خرجت أبحث عنها في كل بقاع العالم، بحثت عنها في كل المواقع التي زرتها سابقاً، وما زال الأمل يدنيها مني. . أقسمت ألا أتزوج إن لم أجدها، يكفي أن أعرف موقعها من هذا الكون. . .

توقف متلمظا شرابه ونظر في وجهي بعينين بدأتا تضيقان:

– ربما تشعر أني أمتلك عبطاً، وربما تسأل كيف لي أن أعشق امرأة من خلال الصور؟

أنا لا أملك جواباً محدداً، أعلل نفسي بمقولة (وللناس فيما يعشقون مذاهب). . أظن أن حالتي نادرة، ولأول مرة تسجل، فقد وجدت نفسي منسجماً مع حالتي هذه ربما تضحك لو قلت لك إني بين الحين والآخر أجلس على مكتبي وأكتب لها رسالة عشق طويلة، وفي الصباح أحمل هذه الرسالة وأسلمها لرجل البريد بعد أن أكتب عنواناً بريدياً لأي جهة من العالم الذي زرته. . هذه الطريقة استجاب لها بعض من وصلته رسائلي، كان بعضها رحيماً بحالتي ومعتذراً بأنه أو أنها ليست المقصودة بهذه المشاعر النبيلة!. . ما زلت أعشقها وأنتظر أن أجدها. .

تعكرت ملامحه بعض الشيء:

– . . . أبي يريد قتل هذه المشاعر النبيلة من حيث لا يعلم، ولم يعد حزنه يمكنه من تحمّل عقوق آخر أبنائه فبعد أن فقد أخي الأكبر والأوسط – في

وقت واحد ومن غير أن يحضر مراسم دفنهما – غدا يراسلني لأن أوصل نسله بالزواج من ابنة عمي ولكنني لا أجد ميلاً إليها فقد تشبعت بنساء العالم، ونمت ذائقتي الجمالية ولم تعد أي امرأة تغريني وابنة عمي فقيرة في هذا الجانب فهي تحمل الجمال الأفريقي الذي أجد نفسي في أحيان كثيرة أتملص منه وأبحث عن مطهرات تزيل جلدتي السوداء أبحث عن خلق سلالة يكون نسلها الثالث قد تخلص من عبودية اللون.

آوه هذه كارثة أخرى أعيشها، بسبب هذا اللون ظللت منبوذاً في بلدي وبين العرب الحمقى الذين أعيش بينهم. . . ففي السودان ينبذنا الأفارقة لكوننا نحمل جذراً عربياً صرفاً، وفي الدول العربية ينبذوني لكوني أحمل جذراً أفريقيا. .

أطلق ضحكة مجلجلة:

– لعنة الله على اللون. . هذا اللون خلق السادة والعبيد. . . أعرف أن هناك عروقاً نبيلة استعبدت ولكنها تطهرت من هذا العار بمجرد إرساء حقوق الإنسان لكن لوننا ظلّ يستعبدنا، يحولنا إلى منشفة تتلقى قاذورات كل أولئك القوادين.

صب كأسا أخرى وبعينين شبه مغمضتين قهقه:

– هل أزعجتك؟

– بالعكس فأنا منسجم مع حكايتك، أكمل.

– منسجم لأني أخبرك بأني بعبودية لوني. .

وضع يده على فمي قبل أن أعتذر عن فهمه الخاطئ:

– لا عليك. . ألم تسمع ذلك اليمني الذي وصفني بالعبد حين طلبت منه أن يحضر لي خمراً، أنا أعرف النفسية العربية، كل طبقة تحاول أن تترفع على الطبقة الأدنى منها. . كلهم يلتصقون بطبقات أعلى، بهذا النبذ المتبادل ولدت الدكتاتورية العربية، فكل فئة تحاول أن تنتمي لطبقة الحكام والوزراء وكبار الشخصيات فينمو التملق والنفاق ويتسابق الجميع للانتماء لهذه السلط التي في النهاية تدوس الجميع بأحذيتها. .

تناول حذاءه المقذوف بالقرب منه:

- أتمنى لو أسحق هؤلاء بهذا الحذاء.. لو سنحت الفرصة ربما أشتري حذاء مهترئاً لأقوم بهذه المهمة!

اندلق كأسه من بين شفتيه وهو يطلق قهقهة عالية استجابت لها مفاصل جسده المسترخي:

- نعم حذاء مهترئ.. سيكون منظراً فريداً وأنا أقوم بهذه المهمة.

تغرغر برشفة من كأسه، وصمت حتى ظننت أنه لن يكمل حديثه، ضغط على كتفي بحنو:

- تعرف أني أحببتك!

- وأنا....

- دعني أتحدث لا تقاطعني، أنت ما زلت صغيراً وأنا أصغر إخوتي، كان أبي رجلاً من رجال الصادق المهدي، وفي ٣٠ يونيو من عام ١٩٨٩ احتلت زمرة من الجنود مقر القيادة السودانية وكانت مسلحة بدبابتين وفي اليوم التالي خرج حسن البشير لإعلان نفسه رئيساً للسودان داعياً للثورة ضد الفساد وردد الناس معه:

- عاشت ثورة الإنقاذ الوطني.

الناس تردد مقولات المنتصر ولا يعنيها رفع قامة من يسقط من الحكومة السابقة، تعرف لماذا نحن هكذا؟

لم ينتظر جواباً كان يسابق نفسه للوصول إلى المعنى:

- ... لأن جميع زعمائنا يحكموننا بالقوة، ولأننا لم نتعود مجابهة الأقوياء، وبسبب جبروت وغلظة الزعماء لا نميل لحبهم، ونفرح لانكسارهم، ولأننا لا نجابه الأقوياء فنحن نهتف بحياتهم، ونلتصق بهم وننتمي لهم، ننتمي لهم بالولاء والطاعة والاستجابة، بسبب كثير من الخصال الرديئة نحن مع المنتصرين، نحن نماري الأقوياء لكي نأمن قسوتهم القادمة، المهم خرج الناس يجأرون:

- عاشت ثورة الإنقاذ الوطني..

وخشي أبي من فورة الغضب التي اجتاحت الشارع السوداني على مؤيدي النميري فخرج يدفعنا أنا وإخوتي وأمي في عملية تسلل عبر الحدود المصرية، وفي مصر وجدنا أنفسنا محاطين بالجوع فأبي توهم أنه رجل مهم لكنه قوبل بفتور ولم تقبل به مصر كلاجئ سياسي فوجد نفسه معنياً بتدبير مصدر رزق يعول به أسرته، وتعب لأنه لا يجيد شيئاً سوى التطبيل للحاكم ولأن الصنم الذي كان يصفق له سقط فلم يعد هناك صنم يصفق له وتعذر عليه جلب قوت لأسرته، وأمام هذا الوضع تنافرنا أنا وإخوتي إلى ثلاث بلدان عربية أخي الأكبر (موسى) إلى اليمن، وأخي الأوسط (عثمان) إلى السعودية وأنا إلى الإمارات.

فجأة صمت وعرج إلى لعن كل زعماء السودان ونظر إليّ بعينين غائمتين:

- هل تعلم أن كل الذين مروا على السودان في متتالية سياسية، وتداولوا الحكم يتحولون بين عشية وضحاها إلى دكتاتوريين لم يشذ عنهم سوى سوار الذهب.. هؤلاء الدكتاتوريون يسيرون بخطوات متشابهة، فمع بزوغ نجمهم يقتعدون سماء البلد، ويعدون شعبهم بالمن والسلوى، وعندما تسترخي مؤخراتهم على الكراسي يسومون هذا الشعب سوء العذاب.. كل الحكام مجرمون كبار، معصومون من العقاب.. نعم هم مجرمون لا يطالهم القانون بينما أولئك المجرمون الحمقى الذين ينتمون لعامة الناس أي جريمة يقترفونها تطالهم يد القانون وتوصد عليهم السجون.. ما الفرق بين مجرم حقير ومجرم عظيم.. المجرم العظيم هو القادر على قتل الجميع.. وحكامنا (جميعهم) مجرمون من النوع الفاخر.. هم أشبه بالسيجار الكوبي، فتبغه تدعكه العذارى حتى يشم رائحة أجسادهن من خلال ذلك الدخان القادم من سيجار يوضع في زاوية الفم، وهم يتلذذون بعذريتنا التي نفصح بها حين نكون بعيدين عنهم، فنلعنهم جهراً ممزقين عذرية خوفنا بألسنتنا الطرية.. أشعر بنشوة لهذا التعبير.. أليس جميلاً أن تتصور بأننا ننقاد لزعمائنا خشية افتضاض بكارة خوفنا! يبدو أنني سكرت، فحديثي يتشعب.. لا عليك، فالسكر لا ينال مني إلا مع مداهمة ذلك الحزن اللعين، يداهمني عندما أتطلع في صورها العشر، وأنا الآن بعيد عن تلك الحالة.. تذكرت: كنت أتحدث عن زعمائنا.. المهم

حينما جاء البشير كان الطريق الذي سلكه النميري وعراً يقود إلى نفق مظلم ولم يعد الناس قادرين على تحمّل مشقة السير في ذلك الظلام الدامس بكذبة طويلة لم ينهها النميري جيداً، فظهر البشير ومع أيامه الأولى رافعاً شعاراً كان يرضي كل السودانيين، رفع شعار الحل الإسلامي، هذا الشعار (المرفوع الآن من قِبَله وقِبَل الترابي) هو تحالف ضد قوى سياسية أخرى ولأن الترابي جاء من معطف النميري حين أدخله للحكومة عام ١٩٨٥ ليتغلب على القوى الاشتراكية فقد فطن وتعلم كيف يصل إلى الواجهة حتى وإن وجد البشير على رأس السلطة، الترابي هو الترابي يتكشف عن وجه إسلامي صريح في كل حين لذلك تنبه العسكريون (جبهة الإنقاذ) لقوة التيار الإسلامي فتحالفوا معهم لعلمهم بأن التيار الإسلامي يحتل كل مفاصل النظام السياسي.

رشف من كأسه وتناول قطعة جبن لاكها بين فكيه غير المنطبقين تماماً، ومص شفتيه ليلحق بقطرات شيفاز كادت أن تنزلق على شاربه من رشفة كبيرة:

- أكره الإسلاميين فهم لا يحملون أي مشروع سياسي، يحملون فقط أحكاماً مسبقة لكل شيء ولهذا سينحر السودان قريباً.

وعاود سكب ضحكاته المترنحة:

- يكفي شر الإسلاميين أنهم يمنعون الشراب!

تمايل قليلاً وعيناه ثقلتا بما فيه الكفاية:

- يبدو أنني سكرت تماماً فقد قلبت الجلسة إلى أحاديث سياسية غبية، هل تريد أن تضحك؟

لم يتحفظ حين أطلق جملته المفاجئة:

- أنا أكره بلدك، أكرهها كرهاً عظيماً، وأكره معها اليمن. هاتان الدولتان تتساويان في الكراهية بالنسبة لي.. لا تغضب فهذه هي مشاعري تجاه هاتين الدولتين المتخلفتين، هما اللتان تسببتا في تحميلي مسؤولية أسرتي، هما اللتان كتبتا تعاستي الأبدية، كنت الأصغر والأبعد عن عيون أبي الذي ارتضى المكوث في حلايب قريباً من رائحة السودان، ووجد أخي الأكبر فرصة

الانتقال للتدريس في السعودية وانتقل أخي الأوسط للتدريس - أيضاً - في اليمن والاثنان اجتمعا على الحدود، اجتمعا في قريتين حدوديتين للبلدين، لا يفصل بين هاتين القريتين سوى خط وهمي، يبدو أنهما متقاربتان لدرجة أن تحدث تلك المقتلة الكوميدية والتي كلما رويتها للشخص انفجر ضاحكا بالرغم من عمق مأساتها بالنسبة لي.

توقف عن حديثه ونظر إليّ باسماً:

- إذا أردت أن تضحك، فاضحك فهذا لا يغضبني أبداً.. اسمع هذه السخرية القدرية:

تلقيت خطابين في الوقت نفسه، خطاباً من السعودية وخطاباً من اليمن وكل خطاب ينعى موت أحد إخوتي، فانتقلت إلى السعودية لدفن جثة أخي الأكبر موسى، أرعبني مقتله كان صدره مفتتاً بتسع وعشرين طلقة حتى أني هممت أن أعارض عملية الغسل لتعجل المغسل وعدم اكتراثه بخلط فتات قلب موسى برئتيه في أبشع مشهد يمكن للمرء أن يقف لمشاهدته، كان مغسلاً غبياً يتلفت صوبي موصياً مساعده بتذكيري بأن لا أنساه بعد الدفن، وتعمدت نسيانه، تركتهم يضعون أخي في قبره من غير أن أقوم بتلحيده أو وداعه أو الدعاء له، يكفي ما حدث له حتى يدخل الجنة من أوسع أبوابها، ومن هناك انتقلت للقرية اليمنية لدفن الجثة الأخرى.

وعندما استمعت لمقتلهما كدت أضحك وأنا أقف أمام جثة أخي الأوسط، عثمان أمضى حياته فرحاً محباً للطرف والحكايات وحين وقفت على جثته بقي ذلك الوجه الذي لم يمل من النكات - مطلقاً - مبتسماً وكأنه سمع بنكتة مقتله فلم يشأ أن يفوت على نفسه تسريب ضحكته قبل الموت.

قصة مقتل أخويّ بدأت بإقامة حفل عرس في القرية السعودية وصاحب طقوس الحفل طلق نار فانطلقت رصاصة قاطعة الحدود مستقرة بهامة أخي الأوسط عثمان مفتتة جمجمته بينما كان متكئاً يمضغ قاتاً، وتجمهر سكان القرية اليمنية حول جثته متحسرين على فقدان مدرس قريتهم، وأقسموا ألا يناموا حتى يقتصوا لأنفسهم - وليس لأخي - بحجة كيف يذهب أطفال القرية السعودية إلى مدرستهم ويتلقون دروسهم بينما أطفالهم يقبعون في بيوتهم من

غير مدرس، وفي الحال نفذوا تهديدهم واخترقوا القرية السعودية وبحثوا عن مدرس تلك القرية (وكان مدرس تلك القرية أخي الأكبر موسى) وعندما وجدوه أردوه قتيلاً بتسع وعشرين طلقة من رشاش كلاشنكوف.

- لماذا لم تضحك، أليست هذه الكارثة مضحكة؟

كنت أصغي له وهو يتهاوى وجسده يتمدد على مساحة تلك الغرفة بعد أن أفرغ قنينة الشيفاز بمفرده، غطيته تماماً وانسللت خارجاً في حين كان صوت أم كلثوم يقلب الجمرات الدفينة..

سهرت السهر في عيني
كل ليلة وكل يوم
اسهر لبكرة في انتظارك.. يا حبيبي
وبعد ما اطمن عليك
ح يجيني نوم
ح يجيني نوم.

[٥٧]

عمر كان معنياً بدراسة الخلفيات السياسية لتحريك الديمقراطيات في الدول النامية، فعلى حد زعمه أن مثل هذه التحركات ربما تفيد في تنبيه شعوب الدول المتقدمة بأن دولهم تغض الطرف عن ديكتاتوريات لا حصر لها.. فتحمل مهمة التنسيق لمناقشة أسباب إغفال هذه الديكتاتوريات من حسابات المنظمين والداعمين لهذا المهرجان.. جمعنا في بهو الفندق، وشرح فكرته باقتضاب فلم يبدِ كثير ممن حضر حماسة لهذه الفكرة.

وجوبهت فكرته بالطعن من أفواه العديدين تلك المعارضة حملت خلاصة: إن أمريكا تعرف مواقع حجارتها جيداً وليست في حاجة إلى لاعب مبتدئ يعلمها كيف تحرك تلك الأحجار المرصوصة على رقعة العالم.

أجهضت فكرة عمر - في تلك الليلة - واقترح محمود استبدال فكرته بالتنكيت على الزعماء العرب واشترط أن لا يذكر زعيم الدولة والاكتفاء بالقول: في زعيم عربي.

كان هذا الاقتراح محاولة منه لإخماد النزعة الإقليمية لكل واحد منا، ووجد هذا المقترح استحساناً منقطع النظير، ولكي يحفزهم بدأ بنكتته أولاً.

في أحد العروض العسكرية اصطف كبار الضباط للسلام على رئيس الجمهورية وبينما هو يتصفحهم كان بمعيته قائد كبير يقدم له كبار الضباط المستقبلين له بينما كان الرئيس مركزاً نظراته على رتب الضباط ليصافح كل واحد وفق رتبته فكان القائد الذي بمعيته يقول له: قائد مشاة، قائد مظلات، قائد كتيبة، قائد طيران.

فجأة لمح الرئيس قائداً (أحول) معلقاً عدداً كبيراً من النياشين وكانت نياشينه تفوق جميع زملائه فاستفسر الرئيس بتعجب عن صاحب هذه النياشين:

- قائد أحول وكل هذه النياشين على ايه؟

فأجابه القائد المصاحب له على الفور: إنه قائد التصويبات العشوائية سيدي.

نكتة محمود

يقال إن امرأة تقرأ البخت شاهدت زعيماً عربياً في شبابه وبينما كان ماراً استوقفته وقالت له: يقول نجمك إنك ستصبح ضابطاً في الجيش، فلم يكترث لنبوءتها ومضى لحال سبيله ومع مرور الأيام أصبح ضابطاً في الجيش وتذكر نبوءة تلك المرأة فذهب إليها فرحاً وقال لها:

- لقد أصبحت ضابطاً في الجيش كما تنبأت.

فتطلعت إليه متفحصة وجهه وقالت له:

- ستصبح رئيس الدولة

فأبدى عجباً من نبوءتها وودعها ومضت الأيام وأصبح رئيساً للدولة فتذكر نبوءة تلك المرأة العجوز فأمر بإحضارها، فجاءت إليه وقالت له ألم أقل لك إنك ستصبح رئيساً للدولة فضحك لها وأجزل لها العطاء فأخذت تتطلع في وجهه وقالت له:

- أرى أنك ستصبح نبياً!

فضرب على جبهته مندهشا: نبياً!

فقالت له: نعم ستصبح نبياً.

مضت الأيام ونسي الرئيس هذه النبوءة وفي أحد المؤتمرات طال حديث المؤتمرين وكان الرئيس محصوراً فأبدى امتعاضه من طول الجلسة فلم يتنبه أحد لتلونات وجهه ورغبته الملحة في التبول، فتركهم على عجل وفي أقرب شارع منزوٍ جلس ليبول، فإذا بشخص يقف على رأسه قائلاً: اقرأ.

فدهش الرئيس وتذكر نبوءة تلك العجوز وعلى الفور قال: ما أنا بقارئ.

فقال له الرجل: يا قواد، اقرأ اللوحة: ممنوع التبول في الشارع!!

نكتة عاطف

أحد زعمائكم يكذب دائماً وينسى أنه كذب، وفي إحدى المرات عاد من رحلة أفريقية فجاء وزراؤه للترحيب به وسماع أخباره، فقال: ذهبت في رحلة

صيد وتوغلت داخل الغابة، فهاجمني أسد ضخم، وظللت أتعارك معه حتى تمكنت منه وقطعته إلى نصفين، وحملته، وضعت رجلاً على كتف والرجل الأخرى على الكتف الأخرى. . عند هذه النقطة رن الهاتف فرد على المكالمة واسترسل فيها وعندما انتهى كان الوزراء متشوقين لسماع بقية الحكاية فقالوا له: ماذا حدث بعد ذلك؟

فرد: أين وصلت في الحكاية؟

فقيل له: رِجْلٌ هنا ورِجل هنا.

فتابع على الفور: وهات يا نيك!!

نكتة عمر

زعيم عرف بمعاقبة خصومه بالسجن الانفرادي مدى الحياة، هذا الزعيم أصابه وجع الضرس، وعندما حضر الدكتور قال له: اخلع كل أسناني، وبقّي هذا الضرس لوحده زي الكلب!!

نكتة أنور

اجتمع رئيس دولة عربي بوزرائه لمناقشة الأوضاع الاقتصادية المتردية للدولة، وفاتحهم بالأزمة الطاحنة التي تمر بها البلاد لتداول الحلول الممكنة لتجاوز الأزمة الاقتصادية فقام أحد الوزراء مهوناً من المسألة وقال لرئيس الدولة:

- الحل الأمثل أن نعلن الحرب على أمريكا فتنتصر علينا ونصبح من ولاياتها. .

رد عليه الرئيس معنفاً: طيب ولو انتصرنا على أمريكا. . فمن أين نصرف عليها وعلى بلدنا!!

نكتة خليل

بعد كل هذا التنكيت كنت أتساءل: ألا يسمع الزعماء العرب هذه النكات؟

ما هي ردود فعلهم يا ترى؟ ولو علموا بهذا التعريض، هل سيسنّون قوانين لمنع الضحك؟

[٥٨]

في زمن ما كانت هوايتي جمع النكت، أجيئها ليلاً وأفرط على مسامعها كل النكت التي جمعتها خلال ذلك اليوم.

فتشهق بضحكاتها.. توقظ الليل فيجري في مناكب الأرض أغنية لا تموت.

في ذلك الزمن لم تكن النكت بذيئة بهذا العري الذي استشرى في تخليق النكتة الآن.. ربما يكون الأمر متعلقاً بتقدم العمر، ففي تلك الأيام كنا نعيش رهافة الحس وما زالت الحياة رقراقة وطاهرة في أوردتنا، ويبدو أننا كلما أوغلنا في الزمن تلوثنا واقتربنا من العهر.. العهر في كل شيء.

أقنية الزمن المتقدمة أقنية تخثرت فيها أرواحنا، تخثرت بالدماء الفاسدة، لكل فراغ كتلة تهصر، هكذا يحدث الانتقال من فراغ لفراغ وكلما كان الانتقال من حالة آسنة إلى حالة طاهرة تأسنت المرحلة التي نحن فيها لأننا ننقل تلوثنا معنا.

الآنية التي لا تستطيع التخلص من فضلات السوائل العالقة بها هي آنية جالبة للمرض، ونفوسنا لا تستطيع التخلص من فضلات مشاعرها، كل أنواع المشاعر مرض، كلها تأكل جزءاً منك، تترك فيك أخاديد تتسع في كل تنقلاتك، وتأسن بها، تحولك إلى قذارة تواريها خلف حيل سلوكية أو مطهرات صناعية..

هذه المشاعر هي السائل الذي يتخمر فينا ويقربنا من براميل النفايات!

أول امرأة كرهتها اسمها: جعدة.

هذه المرأة غدت حماتي، كانت تجاورنا في الشارع الخلفي، ولم يخطر في بالي يوماً أن ابنتها ستكون زوجتي.

زوجتي من اللاتي مضغن سيرة عشقي واتهمنني بالتهم السهلة التي تتناولها الألسن في مثل هذه الحالات، لم يكن بيننا شيء سوى أن أمها الصديقة الأثيرة لأمي.

هذه الصديقة الأثيرة أحمل لها كره العالم.. هي أول امرأة أحفر لها أخدوداً أجمع فيه حطب الدنيا لكي أحرقها ذات يوم، لا أعرف ما الذي جمع أمي بها فهي تذكرني بالكائنات الزاحفة، تحديداً بالعقارب التي لا تشعر بلذة الحياة لو لم تغرس شوكتها في أي جسد رطيب.

أرهقت نفسي – على مر سنوات طويلة – وأنا أحاول الفصل بينها وبين زوجتي، وكلما صفت في داخلي جاءت أمها لتعكر ذلك الصفاء، هي تعرف ذلك جيداً.

لم تستطع أن تنسل من أمها، في أوقات كثيرة أهرب من كلماتها أتمنى أن تخسف بي الأرض قبل أن يفوح صدري بحطبه المخزن:

– ألم تفكر بي يوماً ما؟

كانت تقف في طفولتها بعيدة عن اهتمامي، ذكرتني بذلك في ليلة عرسنا حين انزلقت من على جسدها كسمكة وجدت فرصة للعودة للماء.

– عيناك لم تكونا تستقران إلا على وفاء.

حيُنا وافر بالصبايا، هذه الوفرة مكنت الشوارع أن تغني في شبابنا، في كل شارع كانت هناك عين تسيل بعشقها، ولكل نافذة قلب يدب في الأرض.. أنا من الأغاني التي ذوت مبكراً، بعد رحيل وفاء كنت أشعر بأصابع الصبايا تغرس في ظهري شامتة لأني نسيت أن أبني في صدري لإحداهن بيتاً إضافياً.

النساء كالمناجل القابعة في البيوت في زمن الجدب ولكي لا تصدأ تتحرك لحش زهرات العشق النامية من حولها.. أمي توبخني في كل حين، تدعي أنها تجد سيرتي ندية على ألسن النساء في كل مجالسهن:

- سأخبر أباك بما أسمع.

صديقتها الأثيرة جعدة دست في أذنها نصيحة أضرمت النار في صدرها، أيقظتني من نومي صارخة:

- هل صحيح ما سمعت؟

حاولت أن أهرب في نومي من صراخها لكنها - هذه المرة - لم تعطني فرصة ليستشري العفن في أوصالي كما كانت تتمنى دائماً، هزتني مراراً - بصراخ متواصل -:

- أتريد فضيحتنا؟

لم تتركني أستوي في مرقدي، جذبتني من شعري:

- استيقظ وأخبرني.

- . . . .

- هل دخلت بها؟

كانت خشية وفاء أن تصل تلك الإشاعة لأبيها وأمها، توسلت إلي أن أكف لسان أمي وصديقتها جعدة عن توزيع تلك التهم.

من تلك الأيام كرهت أمها تماماً، لم تتماس يدي بيدها، أحس لو أني مددت يدي ستغرس في راحتي شوكتها المسمومة، أترك لها ابنتها وأفر من رائحتها، أفر قبل أن أضرم ذلك الحطب المكدس منذ زمن البراءة. . . تتهادى نحوي ونصل سكين هرب من قبضتها، شجعتها جعدة على التمرد، حملتها على الكره:

- ما دمت لا تحبني، لماذا تزوجتني؟

أجراس الإنذار ما زالت تحوم في مسامعنا، والهلع يستنهض جيوشه لتدمر سكينتنا، والشوارع تسلم بعضها لبعض رهبة من شيء تحيكه السماء سراً، وأنا قابع أسفل نافذة وفاء أتصور أن صاروخاً ينطلق من بغداد يعبر كل الدنيا وينفجر في هامتي، يحولني إلى بقع دم على جدران بيت وفاء.

- ما دمت لا تحبني، لماذا تزوجتني؟

- . . . .

- طلّقني.

إذا همت سكين بتقطيع اللحم تكون قد خرجت عنوة لفعل ذلك، ستجزه حتماً حتى ولو لم تبدِ همة في تمزيق عادل ومتساوٍ، والرصاصة لا تحتاج إلى وقت طويل كي تعبر طريقها صوب الكون، هي لحظات ويكون الدم شاهداً على انفجار الطلقة لكنه ليس بالضرورة شاهداً على النية. . كما أن السكين ليس شاهداً على تمزيق عادل!

جعدة تتهمني في رجولتي وجروتها الصغيرة تبحث عن مكان لتسدد طعنتها، بحثت عن منفذ يبعدني عن رائحتهما. . التصقت بصدري، وعيون أبنائي تتربص بنا بذعر. . أظن أن عويلاً شب في غرفتهما الصغيرة ولم يتحرك أحد لإطفاء بكائهم:

- طلّقني.

الرصاصة لا تنتظر بعد الضغط على الزناد. . ومن المفترض أن لا يُسأل الرصاص لماذا خرجت:

- أنت طالق. . طالق.

الطائرة تحلق صوب صنعاء، وشيء له رفيف الزمن الأول يحلق داخل صدري. .وأتسرب لفراغ طاهر عبرته لزمن رث، ووفاء تدنو كثيراً.

[٥٩]

وافق نفر منا للذهاب مع عمر لملاقاة جون سميث مدير المعهد الديمقراطي.

لم ييأس عمر من استدرار بعضنا لدعم فكرته التي أجهضها محمود ليلة البارحة بنكات مخزية.

في المركز الإعلامي بفندق الشيراتون لمحنا جون يسير بصحبة ثلة من الشبان اليمنيين العاملين في المعهد، أشار عبدالله باتجاهه بحذر وتخوف:

- هذا مدير المعهد المكلف بإنجاح هذا المؤتمر..

- ماذا تقصد بإنجاح..

- هذا المعهد مدعوم من الدول الأوروبية وفي مقدمتهم أمريكا..

- وهل استفاقوا الآن ليطعمونا من حريتهم؟

سعى عمر للوصول إليه، ولم يشأ أن يكون بمفرده إزاء وجهه المتصحر من المشاعر الودية، كان وجهه قطعة كالحة تذكرك بساعة من دوام صارم أمام وجه عابس!

علق أنور على هذه الملامح:

- نجحوا في اختيار وجه يمثل ديمقراطية العالم الثالث، ويحفزها على مواصلة العبوس!

حدد لنا موعداً للقائه، جلسنا داخل مكتب صغير نرقب ثلة من العاملين المنهمكين في أداء عمل منضبط من غير أي التفات، نلمحهم من خلف الزجاج الشفاف الذي يفصلنا عنهم، يعملون بهمة بالرغم من الإرهاق الطافح من ملامحهم.

- ما الذي يجعل المرء منضبطاً في عمله وغير منضبط في مكان آخر؟

ربما حفز هذا السؤال مخيلتي لأن يكون موضوعاً صحفياً أشارك به في الاجتماع الصباحي لجريدتنا. .ربما يوكل إلي - رئيس التحرير- مهمة إنجازه. . لو فعل، هل يقبل نشر الأسباب الحقيقية خلف تردي مستوى الموظف الحكومي؟ هل يقبل أن نغوص للقاع، نتلمس جذور المشكلة، وأن نكتب عن: الفساد الإداري، عن تأخر آليات الإدارة، عن البيروقراطية، عن غياب قانون (من أين لك هذا)، عن غياب الرقابة، عن تدني الأجور، عن تكلفة الحياة، عن غياب جوهر النظام، عن المحسوبية، عن سرقة المال العام، عن الرشوة، عن إهمال نفسية الموظف، عن مركزية القرار، عن سرقة أفكار الموظفين الصغار، هل يقبل أن نقلب التربة السبخة. . حتما سيعلق بابتسامته كعادته مردداً:

- أنت تحمل أفكاراً ولا تجيد تنفيذها.

أخرجني من سخرية رئيس التحرير صوت عمر:

- هل يذكر أحد منكم مطلع قصيدة: أمتي كم صنم مجدته.

وحين رآنا نلتهم وجهه منتظرين جوابه حاول تذكيرنا:

- هذا بيت قاله عمر أبو ريشة أمام رئيس الوزراء جميل مردم بيك.

ويبدو أنه لم يعد في حاجة إلى تذكر القصيدة فقد واصل حديثه:

- . . . وما زالت هذه الأمة تخلق أصنامها فما إن يتهشم أحدها أو يموت حتى تنبري وسائل الإعلام لتصيب عشرة أصنام بديلة. فحين تشظى صنم جمال عبدالناصر سمعت أنه فرخ ثلاثة أصنام هم: معمر القذافي، وصدام حسين، والثالث نسيته. .

حاول خيري أن يبدي تحفظاً على اندفاع عمر فرد عليه:

- زعماؤك ليسوا سواسية فهناك مخلصون ظلوا على مبادئهم حتى الموت.

استاء عمر من رد خيري:

- أذكر مثالاً واحداً لم يكن يقامر في واشنطن أو موسكو أو لندن، كارثة هؤلاء أنهم نسوا أن الأوراق السرية التي يوقعونها تخرجها وزارات خارجية تلك الدول. . التاريخ لا يموت فهو يحيا مع كل حقيقة تظهر. . واللعن يصل إلى القبور المغلقة!

– يا عمر أنت متحامل كثيراً فليس هناك زعيم واحد أعلن عدم مسؤوليته عن القضية الفلسطينية على سبيل المثال.

ارتفع صوت عمر عالياً تخالطه ضحكة مستهجنة:

– أي قضية فلسطينية، وكل زعمائك عملاء كلهم تاجروا بفلسطين، كانوا يحملونها كجواز سفر ليعبروا إلى مشاعر الناس، وهؤلاء الحكام لا يحترمون شعوبهم فكيف يتحدثون أمام هيئة الأمم عن هذه الشعوب.

تدخّل ياسر بهدوئه المعتاد:

– لنهدأ فنحن لسنا خصوماً، وإذا أردنا الحديث فليكن بالحجة وليس بإشعال فتيل المشاعر..

لم يكن هناك وقت للرد على مداخلته فقد لمحنا جون سميث يدلف من البوابة بصحبة مترجم يمني وقف بيننا مصافحاً ومرحباً بكلمات أطلقها – وربما أضاف إليها بما يتناسب بالتحية العربية –.. قادنا إلى صالة صغيرة، اقتعدنا على كراسي تحفّ بمكتب مستطيل اتسع لعددنا، اختار جون سميث مكاناً يجعله في مواجهتنا جميعاً وعن يمينه جلس المترجم يتتبع كلماته التي كان يصرفها بعجلة واختصار، أجلسنا أمام عينيه كتلاميذ يتلقون درساً حفظوه عن ظهر قلب لكنهم لا يستطيعون ترديده على الملأ بنفس الطريقة التي وصفها.

جون سميث يذكرك بتلك الشخصية التي غادرت مدن أمريكا الصاخبة المتلونة، غادرها لنجدة الهنود الحمر فكتب على قلب هندية حمراء قصة حب رائعة، أما هذا العابس فقد جاء لطرد الطغاة الواقفين على صدورنا، وليحفر شعار الديمقراطية في اثنين وعشرين بلداً، وينسى مائة بلد أخرى تسبح بأسماء زعمائها خشية من أن يفور غضبهم فجأة!! وليس مهماً أن تحبه امرأة عربية ما دام الهدف تحرير كل الشعوب النامية من التسبيح الدائم!

كان كبيراً وصغيراً في الوقت نفسه فملامح وجهه تفيض بحيوية نشطة وأجزاء من جلده تكرمشت يفردها دائماً بابتسامة عريضة تتيح لعينيه أن تكنسا تلك التجاعيد من أسفل عتبة ذقنه، رغم أن هذه الابتسامة جامدة على وجهه إلا أنها كانت تؤكد على عبوسه واشمئزازه مما هو فيه، كان يستخدم ابتسامته ليقلص اعتداء الزمن على ملامحه الرقيقة ليس إلا.

– أنتم لا تجلسون أمام رؤسائكم أريد أن أسمع آراءكم في بلدانكم وزعمائكم.

قال جملة سمجة:

– إذا لم نفلح في التوجيه ربما نأتي بأنفسنا لإرساء مبدأ الديمقراطية!!

أنور يشبه إلى حد بعيد صديق أبي عثمان الوردي وإن كان هناك اختلاف بينهما في المعرفة لكنهما يجتمعان في يقينهما أنهما يعرفان الحقيقية التي لا تقال.

كان ينظر إلى ممثل الديمقراطيات بتحفز وعدائية مبطنة وحين سمع جملته الأخيرة رد بصوت حاول أن يكون متوازناً:

– لا أعرف كيف يمكن لكم أن تخلقوا ديمقراطية في دول فقيرة كالتي أقيم بها هذا المؤتمر؟

انطلق المترجم اليمني في إعادة شفرات جون سميث:

– لنترك الأسئلة الآن وحدثوني عن بلدانكم.

تقوّس أنور كقط هوجم على حين غرة:

– نحن لم نأتِ لنشتم رؤساءنا جئنا لمعرفة آليات إنجاح ديمقراطية في بلدان ناشئة!

لم يكن مسترعياً للهجة أنور وإن أبقى ابتسامته تقوم بمهمتها في فرد تلك الملامح الرقيقة المجعدة، وفاض عبوسه الداخلي بتقليب شفتيه الرقيقتين وتحريك أصابع يده اليمنى، كانت ابتسامته كتكشيرة أسد ميت، سامحاً لبركة بالحديث:

– ما هو تقييمك لرؤساء العرب، وفي تصورك لماذا لا يسعون لإيجاد الديمقراطية في بلادهم، وإذا كانوا يخشون منها على كراسيهم ألم تنصحوهم بإيجاد طريقة ما للمحافظة على عروشهم ومنح شعوبهم طريقة حياة تمكنهم من التعبير من غير استبداد؟

لمعت عيناه:

– سأبدأ من آخر ملاحظة لكن حديثي ودي وليس للنشر.. زعماؤكم بهم خرق مبالغ فيه فهم كالجزار الذي همّ بذبح الشاة وقبل أن يجز رقبتها سمّمها (ربما يطيب لكم هذا التشبيه فأنا أعلم أن العرب يعشقون

التشبيهات).. زعماؤكم يسممون الشاة قبل ذبحها، وأحزابكم هي جوقة لاستكمال المعزوفة، هي أحزاب بلا حرية، وحزب الرئيس يفعل ما يشاء.. انظروا إلى صدام ماذا فعل بكم؟.. إن الحرية في معناها السطحي عند بعض دول العالم العربي أن تقول ما تشاء في المقهى أو في العمل وليفعل الحكام ما يشاؤون وبين القول والفعل تضيع رقاب وأرزاق... نعلم أن دولاً عربية تطبق قانون الإعدام في الأشخاص الذين يجهرون بآرائهم السياسية.. هذا فعلٌ بشع وحقير وضد حقوق الإنسان.

كانت هذه المقولات شتائم لم نستطع أن ننافح عنها بل وجدت في داخلنا استجابة لأن نهيل معه التراب على كل زعيم عربي من غير أن نخشى شيئاً فنحن في بلاط الحرية - كما قال عاطف -، ويمكن لهذا الممثل عن الحريات الناشئة أن يسعفنا بلجوء سياسي ونعيش بقية العمر أحراراً كما يجب.

وكانت هذه حجة عمر الذي تمادى في شتم كل الزعماء العرب مع مغازلة فاضحة لأمريكا استشعر حيالها (جون سميث) بامتعاض:

- ألاحظ على المجتمعات العربية كثرة الشتم لزعمائهم من غير اتباع آليات لإيصال الرأي من خلال جماعات الضغط.. أنتم تموتون بالمجان... ثوريون، ووطنيون وقوميون كل من قدم تضحياته مات بالمجان لأنكم لم تسعوا لخلق أداة ضغط.. عمل ثواركم سري ودور مثقفيكم التنويري غامض.. أنتم لم تفعلوا شيئاً من أجل أنفسكم أو من أجل الغد!

لم يرق حديثه لأنور الذي انفجر:

- وأنتم ماذا فعلتم لحرية الإنسان في العالم الثالث.. لنأخذ عالمنا العربي على سبيل المثال، أنتم تصنعون الحرية في المنطقة التي تحبون أما إذا تعارضت هذه الحرية مع مصالحكم فإنكم تبقونها بلداً دكتاتورياً وتعينون على بقاء هذه الدكتاتورية.. نحن لا نريد حريتكم بهذه الصورة.. طز فيكم وفي حريتكم!!

ونهض منفعلاً حتى أن وجه جون سميث عادت إليه كدمات الزمن وظل يحدق في المترجم اليمني محاولاً التأكد أن هذه الكلمات انطلقت بالفعل من فم أنور.

[٦٠]

انتهى المؤتمر وتخلصت من الإلزام الإجباري سأبدأ البحث المكثف الآن.. أين أجدها في هذه المدينة؟

تهمي وصية المرشدي بصوت رتيب ثقيل:

وان شفت شيء في طريقك وأعجبك شله

هل رأيتها يا مرشدي، أم أن كاتب أغنية (يحيي عمر قال يا طرف لما تسهر) أودعك حرقته حين رآها ووصف سحر جمالها مستبيحاً، هتك أستار الملك، والإذعان لجبروت حسنها، إن كان فعل فقد قاسمك مقاسمة ضيزى، منحك الوصف ومنح نفسه متعة النظر وسرقة ما لا يسرق.. عرفتها من أغنيتك تلك، خرجت من أغنيتك طرية لينة كما كانت، تحف بها الوصيفات وهي تتربع على عرشها محذرة من مغبة التهور للوصول إلى سدتها.

هل عادت لقصر الإمام وحين وجدت كرسي الشريفة حفصة خالياً، رأت في جمالها ملكاً يمكنها من البقاء على العرش وفي القلوب.. أما زالت تنتظر الدوير ليأتي محملاً بأحزان قبيلته ولهفته للخروج من قصور الملوك والبحث عن جسد ملقى خارج بوابة صنعاء، يهرب من عيني حفصة كي لا يذوب في الجمال والملك معاً؟

في شوارع صنعاء أسير وعيناي تجوبان كل الوجوه:

إن كان عادك غريب ما تعرف البندر

إذا دخلت المدينة فقل بسم الله

استنجدت بكل الأدعية التي أحفظها، وذكرت اسم الله في كل شارع من تلك الشوارع التي تسلم بعضها بعضاً، وهي تسير في مكان ما من صنعاء،

تحرك نبضات ألف قلب وقلب، تسير كملكة لا تحفل بالنظر للمستجدين ولا تمنح المبهورين نظرة من عينيها..

اجتمع بعض الوفود في بهو الفندق وطلبوا الذهاب إلى عدن ربما للوقوف على مقولة بعض مرافقينا:

– إن عدن تحتفل بالليل تخرج صباحاً لاستقبال مياه البحر القاذفة بالغرباء والحكايات المزوجة باللوعة والسحر وتحملهم لتسامرهم وتمنحهم دفء الروح.

هذه الجملة تناولتها من فم مرافقنا المحشو بالقات على الدوام وصغتها لتتناسب مع لغة البحر والمدن الساحلية.

الصياغة هو السلاح الباتر الذي استخدمته السلطة في الذود عن حماها، كل الجمل التي تسفحها الصحف هي خبز أعد في المطبخ الصحافي بعد استبدال نكهته، رجل الصياغة مجرم يجب محاكمته، فهو متلون، البيئة تخلق حشراتها التي تستبدل جلدها بطبيعة المكان، تغدو الجرادة خضراء في الحقول، ومغبرة في الصحارى، ورجل الصياغة نازع فتيل المعارك اليومية، يوماً يبجل ويمدح ويحذف ويضيف، هو يستعيد دور المخصي ولكي يطمئن السلطان على زوجاته ومحظياته يكلفه بجعل الرجال يسيرون بأفواه كلاب لاهثه ليس لها من رؤية كل المتع سوى لهاث متواصل. .رجل الصياغة يخصي الكلمات.. أعرفهم جميعاً لكن التاريخ لا يعرف من يغير وجهه!

– عدن بحر وغناء وسهر.. هكذا قيل لي، أظن أن كل المدن البحرية تعشق الليل والغرباء، تنتظر منهم حكاية عشق وكثيراً من الشعر ونَفَساً تحمل مغامرات الأمواج.

جدة في هذا الوقت تستقبل عشاقها وتخبئهم في شوارعها السرية وتمضي بهم في ليل خدر تبادلهم فيه اللوعة وانتظار حبيبة تتهيأ لاستقبال حبيبها لتخرج في ليلها ذاك تعبر به لجة البحر وتمنحه لذة الحياة، فالمدن الساحلية هي المدن الوحيدة التي تهبنا عروساً من الماء، ذلك الكائن الأسطوري الذي عشق أن يعيش عيشتين، عيشة البحر وعيشة البر، كم منا من ينتظر عروس البحر لكي

تخطفه لأعماق البحار، تصطفيه من كل كائنات هذا الكون لتوشوش له بسرها كعاشق جاءها بعد رحلة سندبادية طويلة.

– فهل تهبنا عدن كائناً أسطورياً يلج بنا لجة البحر؟

اتفق الجميع على الذهاب إلى عدن ومن هناك ينفرون لبلدانهم كالطيور العائدة من رحلة صيفية لم تتزود خلالها بما يكفيها لمجابهة شتاء قارس.

– لن أذهب إلى عدن سأمكث هنا حتى أجدها.

الساعة الواحدة ليلاً وإيمان – فاتنة قناة الجزيرة – تدلق أخباراً مأسوية، أكان لهذا الوجه الفاتن أن يتلو كوارث العالم، ها هي تتجسد تقف من خلف الشاشة، وتحرق مراكب الشوق وتدس مع الأخبار المأسوية جملة مقتضبة: (أنا أمامك والشوق خلفك ولا مفر من اللوعة)، ها هي تجسد لمعة حدقتيها، تجسد بعضاً منها، وتغريني للخروج، وقرع أبواب صنعاء بيتاً بيتاً غير محتسب من تلك الجنابي المسنونة والمثبتة على الخواصر والأقرب ليد متوترة لتنفيذ حالة غضب طارئة.

الدم هذا الرعب الذي يؤجل الانتقال إلى الفراغات، أول دم سفك نقل البشرية من فراغ الحياة إلى فراغ الموت، فراغ تكون فيه النفس متهيبة من الانتقال، متهيبة من إضافة كتلتها لباطن الأرض.

الدم هو الحالة الأولى لتشكيل الفراغ..

في زمن مضى خشيت من صاروخ يفجر هامتي ويتركني بقايا دم على جدرانها، أما اليوم فلن أخشى من أن تتخاطفني تلك الجنابي المسنونة، أعلم أن تلك الأيدي لن تتسامح مع لوعة عاشق أضناه الفراق.

لا بد من وسيلة لاختراق الفراغ الذي أعيشه، لا بدّ من نفق يوصلني الى فراغ يقبل بتشكيل هذه اللوعة كمشهد تجريدي في لوحة لا يعتد بهندستها، أو كفقرة إذاعية عليها أن تنتشر في الفضاء في تمدد لانهائي.. فالفراغ الذي يحقق الحياة هو ذلك الفراغ الذي لم يتخلق بعد!

فأين تتشكل هي الآن؟

أين تسكن في هذه المدينة الباردة، هل تقطن في شارع حدة أو شارع

جمال أو أنها تقطن بالقرب مني هنا في شارع عبدالمغني أو في شارع صنعاء؟

- أين هي الآن؟

ها هي الساعة الواحدة تقف على دمي، هذا التوقيت كنت أنتظره بفارغ الصبر فمع حلوله أكون سائراً بجوار نافذتها وحين أجد الباب موارباً أدس جسدي داخله فأجدها كأغنية تتهيأ لأن تبوح بتفاصيل وجد قديم: شعرها الفاحم الغزير يتهدل على وجنتيها، وجسدها الفائر يضج بالرغبة فأجس صدرها لترتعش عصفورة وتحلق تنهيدات وتحذيرات طرية، أمس ثغرها، فتنفرج شفتاها وتغمض عينيها نصف إغماضة أرشفها وقبل أن تغرق تماماً تدفعني بيديها وشيء محموم يعترك بيننا، ينطفئ قبل أن نزيد حطب تلك الحرائق.

- أوه لو أعلم أين هي الآن؟

التقيت بقايد جاءني على غير ما كنت أتوقع فعقب مهاتفتي له بيوم واحد كان عامل الاستقبال يشعرني أن ضيفاً يرغب في رؤيتي كنت أظنه وجدي الأهدل فقد تحدد بيننا لقاء لاستكمال جلسة أدبية سابقة.

نزلت للبهو حاملاً رواية «ابنة الحظ» لإيزابيلا اللندي فلم أجد في حقيبتي ما أتواصل به مع هذا الشاب الموهوب سوى هدية أجزم أنه سيفضلها على أي شيء آخر، تقدمت لأجد رجل الاستقبال يشير لي صوب رجل ذي ملابس فاخرة يضع نظارة كارتيه، مرتدياً بدلة سموكن صيفية، نهض لمصافحتي وقد افترشت ابتسامة واسعة على محياه فكشفت عورة فمه المهشم، بدا دميماً بهذه الأسنان المتآكلة عرفني بنفسه وقادني إلى جلسة منزوية في بهو الفندق:

- أهلا بك في بلدك الثاني.

لم أسترح كثيراً لحديثه فقد كانت ثمة زوائد مريبة تتقافز بين مفاصل حديثه إلا أنني واصلت الحديث معه:

- أهلاً بك.

- هل أخبرت غلاماً بوجودي؟

- ما لا يفعله غلامٌ نفعله نحن.

- أريد غلاماً تحديداً.

- غلام لا يطيب له العمل هنا فقد طلب من السيد توفيق نقله إلى عدن؟

- مَنْ توفيق؟

- هذا عمنا الكبير الذي نعمل معه جميعاً.

- تقصد توفيق عبدالله؟

- نعم، هل تعرفه أيضاً؟ يبدو أنك على صلة قوية بهما.

- وما الذي جاء بتوفيق إلى هنا؟

- عاد إلى بلده وعشيرته.

- توفيق الذي أتحدث عنه من قبيلة سعودية معروفة، يبدو أنك تتحدث عن شخص آخر، صفه لي.

- رجل طويل له بشرة بيضاء تميل للحمرة، حلو الحديث، جميل المحيا، تميزه شفتان غليظتان شقرت سفلاها، وله. . . . . . .

- يكفي عرفته إنه هو، فشفته السفلى مشقورة كمغرز عبرها بعشوائية فأبقاها حبلى مقبقبة.

- نعم هو كذلك.

وللتأكيد على أوصافه تحركت أنامله لجيب بدلته الداخلي واستل محفظة أنيقة أخرج صورة منها وأراني:

- هل هو هذا الذي تتحدث عنه؟

تأملت الصورة فالرأس المحسور لا يبعد الملامح تلك:

- نعم هو.

- هذا الرجل يمني وليس سعودياً.

كنت مشتتاً تماماً بينما صوته يغور في داخلي.

- هل تريدني أن أوصلك إليهما، أم تجرب خدماتي؟

- وما هي خدماتك؟

- كل ما يحتاج إليه شخص مثلك.

ونهض ضاحكاً:

- إذا رغبت في الانشراح عليك أن تغير مقر إقامتك، فهنا الأجواء محاصرة تماماً!

- رجاء أريد الجحش تحديداً.

- سأوصلك إليه، فلا تقلق.

وقبل أن أفيق من دهشتي ناولني كرتاً به عنوانه وأرقام هواتفه المتعددة، وغادرني على وعد أن أهاتفه بمجرد انتقالي من مقر إقامتي أو إشعاره برغبتي في الذهاب إلى عدن.

ومع نهوضه اقترب مني ذلك العامل نفسه الذي زجرني بحدة حينما سألته عن قرين وفاء، دنا مسلّماً، كان وجهه مكفهراً كما لو أنه ما زال يرد على سؤالي:

- هذا الرجل لا يمثل اليمن، فانتبه.

- تقصد من؟

- جليسك هذا، لا يمثل أبداً اليمن.

كان يهم بالاستفاضة وعندما رآني أقلب كرت قايد من غير أن أبادله النظر انسحب مردداً بصوت منخفض:

- كلكم تتشابهون.

[٦١]

إذاً توفيق والجحش مرة أخرى.

ما الذي جاء بهما معاً إلى هنا، وهذا المدعو قايد أي خدمات يشير إليها، هذه اللغة التي تتحرك فيها ملامح الوجه أكثر من الكلمات أفهمها جيداً فقد تدربت عليها في كثير من البلدان السياحية حيث يكفي التلميح من غير الحاجة إلى تصريح مباشر. إنها لغة السماسرة: أمنيات، وأحلام، ووعود، كل هذه الخدمات مقابل سرقات مالية متتالية.

إذاً توفيق والجحش يقفان معاً، إذاً لم أكن متخيلاً في رؤيتي له وهو يعبر الحدود، فتلك الهيئة التي اشتبهت بها عند الحدود السعودية اليمنية لم تكن سوى هيئته مرق بها هرباً من حياة الزنازين.

هل هرب من السجن فعلاً، أم وجد له منفذاً من خلال تلك الشخصية التي زعم أن علاقته بها تنجيه من كل مهالك الدنيا لو أحاطت به؟

فبعد صفقة الأقنعة الواقية أيقنت الحارة مجتمعة أن توفيقاً سيغيب في سجن بريمان زمناً يمكنهم من لعنه كما يشاؤون، ها هو الآن يظهر هنا، فما الذي يجعله ينتمي لليمن ويهجر وطنه وقبيلته، هل خشيته من السجن تبقيه منبوذاً عن وطنه وعشيرته؟

حينما داهم جيب المباحث منزله سار معهم بطواعية من غير أي مقاومة، ظلّ لسانه يتحرك في فمه بعجلة:

- ستندمون على فعلتكم هذه.

والتفت إلى المتشفّين منه:

- هي أيام وأغادر السجن ساعتها ستندمون على إظهار هذه الأسنان المصفرة!!

لم يكن الحي مصدقاً ادعاءاته تلك.

في وداعي لوفاء كنت متصلباً خلف مقود سيارتي وهيئات عدة تعبر دمع عيني رأيت هيئته تعبر مع العابرين.

ما زال دائنوه يبحثون عنه، فبين الوقت والآخر يأتي شخص سائلاً عنه فتكون إجابة أهل الحي:

- توفيق في سجن بريمان فمن له شيء فليذهب إليه هناك.

- لكنه خرج من السجن.

فيكذب كل أهل الحي هذا الرد.

أفشيت لأحد الأصدقاء بأني رأيته على الحدود اليمنية يعبر الحدود مع العابرين في ما بعد وجدت كلمتي تصديقاً جازماً فقد قيل إن شريكه خيَّره بين السجن أو مغادرة البلاد، ففضل مغادرة البلاد على المكوث داخل السجن.

[٦٢]

القمر عين صحيحة تكشف سر السماء

مطشر الخالدي

بحة صوته لا يمكن أن تكون إلا لعراقي.

الألم العراقي نبت في حنجرة العراقيين منذ معركة كربلاء وربما منذ أن سن حامورابي شرائعه، ألم معتق، ترعرع في تلك الحناجر حتى غدا حديثهم أغنية حزينة.

قادني وجدي الأهدل إلى مؤسسة العفيف، هناك تعرفت على ثلة من المثقفين كان همهم البحث عن وسيلة توصل صوتهم الناضج الى خارج الحدود..

- السعودية نافذتنا التى نطل من خلالها لكن العلاقات السياسية المتوترة ترهقنا نحن.

قال محمد جملته تلك بقناعة خالصة تفتحت لها أسارير وجهه الأشهب، وتحفز لسماع وجهة نظره:

- السعودية لم تكن في يوم من الأيام بوابة لأي إبداع، هي تخنق مبدعيها فكيف لها أن تصدر صوتاً آخر.

ولم أكن راغباً في تعميق الجدل، كنت ألمحه في طرف الجلسة يتمتم بقصيدة هوى لمظفر النواب، وحين أحس بقرب الاختلاف رفع صوته عالياً:

مرينه بيكم حمد، واحنه ابقطار الليل

واسمعنه، دك اكهوه..

وشمينه ريحة هيل

يا ريل....

صيح ابقهر..

صيحة عشق، يا ريل

هودر هواهم،

ولك،

حدر السنابل كطه

كان مفتوناً بمظفر ويتمثله في الحانة، وشوشني محمد:

– جاء من العراق هو حافظ للقصائد الرومانسية ودائم التواجد في جلسات الأدباء.. لم يقدر على كتابة قصيدة بعد.

التقيت به مرة أخرى في اتحاد الكتاب اليمنيين لم أكن أحمل توجساً من العراقيين، في أيام الحرب – وقبلها – تنافر العراقيون إلى أطراف المعمورة هرباً من وحش جال العراق، وخطف الأرواح ونسي أن يقطف الأغاني من قلوب العراقيين الجزعة على أرواحهم، كنا نظن أننا لو التقينا في مكان ما سيخرج كل منا ضغينته ونوغر صدور بعضنا، وفي كل مكان ألتقي بعراقي ارتد إليه، تكتشف أن العراقيين ماء عذب سكب في الغربة فتبحث عن وسيلة لكي ترتشفهم قطرة قطرة.

– إن الشعوب لا تحول صدورها إلى أصيص لحمل ضغائن الساسة.

صغنا الجملة السابقة معاً بعد عدة لقاءات، أول الأمر تصافحنا في تعارف سريع ووجدت نفسي منجذباً إليه حينما غنّى:

يا ريل،

طلعوا دغش..

والعشق جذابي

دك بيه كل العمر..

ما بطفه عطابي

تتوالف ويه الدرب،

وترابك ترابي

وهودر هواهم،

ولك..

حدر السنابل كطه

وجدته مرافقاً لي في زيارتي للبردوني، وفي عودتنا قال: هذا الأعمى عرف مخابئ فتنة صنعاء فعشقها كما يجب.

وقفنا على بابه خرج يدب كدودة يمنية هربت من عرش بلقيس، كل شيء في وجهه غائر، العينان وثقوب الجدري، كان عليلاً من رحلة مضنية جاب فيها تاريخ اليمن وحكاياته وأساطيره ووجعه، استنهض وجوده بخفة روحه التي تجعله حاضراً يملأ الفراغ ويؤسس وجوداً مغايراً لهذا الجرم الذي قبض عليه فراغاً زائفاً، من سقمه ينتزع الأغنية والنكتة معاً، أخبرني مطشر: البردوني قام بكل شيء، وآخر الأشياء تلك وقوفه أمام القضاة محامياً عن النساء المطلقات.. وأطلق البردوني ضحكته المهشمة معللاً أنه يعشق النساء فهن يمنحنه وقوداً لأن يكون شاعراً.

حين خرجنا من عنده كانت ضحكات كثيرة تعترك في داخلي فقد ألقى كثيراً من النكات عن الأوضاع العربية واستكملها بقصائد مقذعة على الزعماء.

قال مطشر:

– أجمل وصف لهذا الشاعر ما وصفه به المقالح هو عطر في آنية قديمة.

في تلك الليلة غادرنا منزل البردوني إلى غرفة جلست تغازل السماء منفردة وكان بيننا مشروب حاذق تجرعه وغرق في لوعته، دندن بقصائد كثيرة وحين جرى الشراب في أوردته تذكر وجعه، تذكر أنه في حاجة لأن يبكي، فبادلته لوعة عشقه وتركته يتدفق كيف شاء:

أنا ميت هنا.. ميت في كل بقعة من هذه الأرض، أنا أشبه بزهرة تحمل شارة الحب وهي ميتة.

- لم أهرب من صدام ورجاله..هربت من عينيها، لم تستطع أفعال صدام أن

تزلزل الأرض تحت قدمَيّ كما فعلت هي، هربت من عشقها، كنت أبحث عن أي أرض تبعدني عن نارها وكلما وصلت إلى بلد وجدت رجال التفتيش وعينيها، أتسلل من بين أصابع رجال الموانئ والتفتيش حين لا يجدون إلا جسداً ناحلاً وقلباً واجفاً، كلهم ظنوا أني هارب من جحيم حزب البعث، ولم يكن أحد يعلم أني هارب من عينيها، عيناها الوحيدتان اللتان تصلبانني في كل حين.

منذ أن رايتها أيقنت أنها قاتلتي..

في أرضية الحرب (العراقية -الإيرانية) نبتت عشبة عشق برية، في ذلك الخط الممتد من البصرة لحدودنا الإيرانية، كانت تخرج القلوب مودعة أحباءها، وهي تعلم أن مدفعاً أو رصاصة مخبأة في جيب القدر عليك أن تستلمها لتكمل تخبئتها في صدرك.. على ذلك الخط الذي تقام فيه نوايا الموت، كنا نعبر خطا معبداً يتعسر في أجزاء متباعدة، نعبره يومياً لتزويد الجيش بالمواد الغذائية، في كل مرة كان يقف بسيارته في استراحة قذفت في تلك الصحراء الواسعة، استراحة تناثرت حولها بيوت متداعية، ألمحه يرمي ببصره لأدنى بيت منها، ويرفع يده في تلويحة سريعة ومقتضبة، وفتاة تخرج برأسها من تلك النافذة المتداعية فتتلاقى الأكف من على بعد، ونمضي صوب الموت وتمضي الفتاة صوب أحلامها. .يومياً نعبر هذا الخط وأكفهما تتلاقيان في الهواء تكتبان قصيدة عشق عذرية.

شاركته في حبها، كنت أكتفي بمشاهدة المنظر كشاهد على حب تعلق بين هدبين يربطهما ضوء حب يومض من على بعد تلك المسافة..

في أحيان لا يستطيع التوقف فيرفع بوق السيارة بصوت متواصل ويترك يده تلوح من بعيد كبيرق خطفته الريح ولم يسكن خفقانه، تتعلق كفه ذات الأصابع الثلاث في الهواء راسمة شوقاً مبرحاً. كانت حريصة على موعدها معه يكفي أن يضرب بوق سيارته لتنهض من هناك ملوحة له في عشق طفولي يخلب اللب.

كنا ثلاثة رفقاء دائمين: أنا وهو والطريق.. حفظ كل منا قصة هذا العشق النابت في هذه البوابة المفتوحة على الموت، وكنا يوماً نهرب من صحراء

هذا الموت عائدين للبصرة نتزود بالمواد الغذائية وبتلويحة تلك الفتاة الفاتنة، كلانا أحبها هو يمنحها تلويحته وأنا أمنحها نبض قلبي وأخطفها من بين أهدابه واضعها في صدري أقول لها قصيدة حب استعرتها من أفواه كل العشاق، أنا وصديقي عشقنا تلك الفتاة، هو صاحب التلويحة وأنا صاحب القصائد، نسرح بخيالنا في تلك الصحراء المتسعة مستمعين لأغاني الشوق المنبعثة من جهاز مسجل جلبه صديقي لهذا الخصوص، كنا ندخل إلى مناطق الموت ونحن نحمل زهرة الحياة.. كان يمني نفسه بالانعتاق من هذه الحرب الضروس ليعود إلى أسرته في أطراف الموصل، أقسم إن أول فعل سيقوم به بعد قذف بزته العسكرية حمل أبيه وأمه لخطبة هذه الفتاة، تمنيت له الموت قبل أن يعود لحمل أسرته إلى هنا.. تمنيت له الموت.

نعم تمنيت له الموت، أعترف لك بهذا القبح الداخلي: ذات مساء ونحن نهمّ باختراق صحراء الموت عائدين إلى البصرة، نزلت بنا قذيفة، كانت مصممة على مقاسه تماماً أحرقته ولم تبق منه إلا ساعداً تفحم وانتهى براحة كف ليس بها سوى ثلاث أصابع تستذكر ما فقدته تحت ساطور كان مهمته تقطيع اللحم وبيعه.

وقفت في تلك الصحراء وحيداً، نظرت فإذا الأرض تتسع ونار القصف تلتهم أماكن عدة من هذا المدى المتسع، أصابني الهلع فتشت عن جثته وجدتها أجزاء منها متناثرة هنا وهناك وحرائق صغيرة تشي بأن ملك الموت مر من هنا، وجدت ساعده خارج هيكل السيارة المتفحم، تجاسرت وحملت ساعده، ودفنته لم تكن حفرة عميقة فالتراب لم يغطِّ تلك الأصابع الثلاث لم أكن أميناً في تهريب بقية صديقي إلى قبر يليق به. .نعم لم أكن أميناً، تركت أصابعه ظاهرة في تلك الصحراء الممتدة.

هدأ القصف، وعدت سيراً على الاقدام، في البصرة رأى رؤسائي أني المرشح لمواصلة مد الجيش بالمواد التموينية، وفي أول يوم عبرت ذلك الخط، رفعت بوق السيارة فنهضت من نافذتها ملوحة بشوق، بادلتها التلويح وتركت يدي معلقة في الهواء.

- أخذت مكان زميلي في التلويح، كانت يدي الوحيدة التي تلوح لفتاة تقف

في نافذتها متخشبة كآنية كسرت ولم يبقَ منها سوى جزء مشطور.. أقلقني موقفها، فتعمدت السير إليها، حييتها، فردت التحية:

- لست أنت الذي كان يبادلني التحية..

قالت جملتها وهي تنظر إلى أصابع يدي:

- كان بثلاث أصابع. أين ذهب؟

تسمرت أمام سؤالها:

- لم تجب، أين ذهب؟

كانت دموعي تسبقني، اعترى وجهها فزع وصاحت:

- مات!

تشبعت عيناها بالدموع وانسحبت لداخل منزلها، وكل يوم أعبر بيتها رافعاً بوق السيارة فلا تظهر.

ليتني قطعت إصبعين من راحة يدي هذه!

[٦٣]

في بهو فندق حدة التقت معظم الوفود الإعلامية العربية لتناول وجبة الغذاء تلبية لدعوة وزير الإعلام اليمني، وعلى المائدة لام الوزير رئيس الحزب الناصري على الهجوم الكاسح الذي شنه الحزب من خلال جريدته:

- أستطيع التقدم للمحكمة ضد كتابتك..

جاء الرد باتراً:

- أنتم تقولون ما تشاؤون ونحن نقول ما نشاء.

تشاغل الوزير عن رده بالترحيب بالوفود الإعلامية العربية، جلست سلوى في الكرسي المقابل، تفصلنا هذه الطاولة وأطباق الأكل، جلست صامتة تماما متحاشية النظر المباشر باتجاهي.

أبدت حبوراً مفتعلاً لأحد الصحافيين اليمنيين:

- منحني وزير الخارجية خريطة اليمن الرسمية.

لم يفطن الصحافي لغمزها، فواصلت من غير أن يستحثها:

- ... الخريطة التي تثبت أن نجران وجازان ضمن الحدود اليمنية.

نهجت أسلوبها متقناً حركة مسرحية مبتذلة:

- وأنا حصلت على الخريطة الإسرائيلية الممتدة من النيل للنيل.

وكلبوة غير مدربة على الانقضاض صرخت:

- أنت متخلف!!

من هناك بزغت، تسير منقبة بجوار شخص تنفي هيئته أن يكون عربياً،

ترتدي عباءتها وتغطي وجهها كاملاً وقد أبقت مسافة صغيرة بينها وبين مرافقها، لم تمنحني وقتاً إضافياً لكي أدقق في عودها وحركة يديها أبقت فقط مؤخرة تشبه مؤخرتها تماماً.

- هل غدوت حبيس أحلام اليقظة؟

ما زالت سلوى تدس الأكل في فمها بنهم فتتعلق حبات الرز على نابيها البارزين، طلقتها السريعة مكنت رذاذها من إسقاط الرز على الأطباق المجاورة لها:

- عيونهم كعقارب الساعة لا تعرف إلا الدوران!

هي تقصدني لا شك، فقد اتسعت عيناي لرؤية تلك المنقبة وظللت أتتبع مشيتها حتى غابت، بقيتُ متطلعة نحوي بعدائية واضحة، انشغلت عنها تماماً وأخذتُ أرقب الجهة التي اختفت فيها قرينة وفاء..

انتهى الغداء بأحاديث جانبية تواعد الجميع على إكمالها في مقيل الوزير.

لم أشأ مغادرة الفندق قبل رؤية ذلك القرين الذي زارني في كل الأماكن التي توجهت إليها، جذبني عمر من يدي:

- كل النساء هنا لا يصلحن أن توقد أنوثتهن بنظراتك.

- هل ترى امرأة هنا حتى تقول هذا القول؟

- تنبهت لك حين عبرت تلك المرأة كيف أخذت وتركت كل شيء وظللت تتابع مشيتها.

- أنسيت يا عمر قولك إنها امرأة واحدة هي التي يفز لها القلب؟

- نعم هي امرأة واحدة للقلب، وبقية النساء فراش لمتعة الجسد، أما أنت فأراك تمنح كل النساء نظرة واحدة.

هل تصدق ملاحظة عمر؟ راجعت موقفي الداخلي من المرأة وفقاً لهذه الملاحظة، أملك نظرتين للمرأة: امرأة أقبلها، وامرأة أرفضها.. كنت محتاجاً إلى بعض الوقت لتقليب هذا التطرف، القبول والرفض من غير وجود فواصل بين النقطتين... أجلت هذا التدقيق إلى لحظة النشوة، لحظة الساعة السليمانية

حين يصفو كل شيء ولا يبقى معك سوى أنا واحدة، الأنا العليا معها تستطيع استخلاص كل شوائبك وقذفها مع أغصان القات المتجمعة أمامك وأنت مبحر مع شفافية الذات.

وجدنا أنفسنا في مقيل وزير الإعلام في مكان كبير صفت فيه المدع أمام الضيوف وتناثرت حزم القات من كل الأنواع، تناثرت أمام المقوتين وبدأ الحديث في كل شؤون الحياة اليمنية.

في حين كان عمر يلمس القات بتقزز، ويضعه أمامه كتيس لم يتعود أن يعلف نفسه بنفسه!

[٦٤]

الليل يسير كداية مثخنة الجروح وصنعاء من خلف نوافذ فندق تاج سبأ تلتحف بالصمت وتتصنع نوماً ثقيلاً أقلقه مقيل حافل بالقات والأغاني الصنعانية.

هل انتهى كل شيء وغدوت شبحاً قادماً من الماضي، عشر سنوات مضت - تنقص قليلاً - أيعقل أن تمضي كل هذه السنوات وتغفل عيون الرجال عن فتنتها؟

هل تزوجت، أنجبت، ألا يزال جسدها الضامر كعود قصب السكر يتلوى ويتثنى ويشبع غرور الفراغ الساكن به؟

رن الهاتف، جاء صوت رجل الاستقبال بلكنة عربية متداعية:

- هل ستغادر اليوم؟
- ليس بعد.
- ولكن موعد حجزك انتهى وإذا مكثت سيكون على حسابك الخاص.
- حسناً ليكن ذلك.

اعتذر وأغلق سماعة الهاتف.

أمي تنتظر مهاتفتي، تريد معرفة سبب واحد يحملني على التفريط في أبنائي، غدت تناصب صديقتها جعدة العداء، ترى فيها كلبة مسعورة جاءتها وهي في حالة ضعف وخطت أولادها الرضع، حملتهم للشوارع الضيقة البعيدة عن حيهم ومن هناك تسللت بهم لمغارة توصل لأسفل الأرض، نقلت إلي أختي غضبها:

- لو أنك لا تريدهم فلا ترمِ بهم في بيت جعدة أو بيت طليقتك..

أي أحاديث يمكن أن أقولها لها الآن، لا أريد أن أقع بين كماشة الواجب والالتزام، أريد أن أتخلى عن كل شيء، أريد أن أعود لتلك الأيام أنتظر مجيء الساعة الواحدة والسير بالقرب من نافذتها لأجد باباً موارباً أدس جسدي فيه وأنهل من رضابها وأجس هضبتين تنفر لملامستهما شقشقات عصفورين رغبا في السقوط إلى قرار بئر سحيقة ليسكنا رفيفهما بارتواء.

أقمنا بيتنا الزوجي في خيالاتنا مراراً، كانت تستبطئ تأخري الدراسي الذي سيفارق الخطى بين تخرجي وعملي، أظهرت رغبتي أن أتوقف عن الدراسة وأقترن بها:

- أنتِ الآن في الجامعة، سنتان ويكون وضعك أفضل.
- نتزوج وأكمل دراستي.

ضحكت عميقاً:

- ومن أين ستصرف علي.. هل تكفي مكافأة الجامعة لكي تتحمل بيتاً؟ لننتظر قليلاً.
- نكتب الكتاب فقط.
- وإذا لم تتخرج، هل تريد أن تجعلني كالبيت الوقف، أو أحمل فستان الفرح وأترقب مجيئك كزينب؟

آه تذكرت زينب.

حين أعلن للتعبئة العسكرية لتحرير الكويت، كان فؤاد قد تملص من كتيبته هرباً عندما لم تفلح كل أعذاره التي تقدم بها لقائد الكتيبة كي يمنحه ثلاثة أيام ليكون عريساً. طلب ثلاثة أيام فقط ووعد أن يعود للمرابطة وأن يغرس جسده كعلم لا يغادر أرض المعركة حتى وإن سقطت ساريته.

كان موعد العرس قد تحدد منذ وقت مبكر ولم يكن أمامه مناص للتأجيل وذهبت كل أعذاره في التملص من المرابطة في حفر الباطن أدراج الرياح فهرب من كتيبته بعد أن ترك رسالة لقائده يخبره أنه لن يتأخر في العودة، فقط يحضر عرسه ويعود بعد ثلاثة أيام.

وبينما كان يسترق فرحة ذاوية حيث لم يكن مسموحاً بإقامة الأفراح خشية من صاروخ عراقي يقتحم المدينة على حين غرة. .كان عرساً صامتاً تبادلت فيه النسوة الحديث الممل عن الحرب وخشيتهن من انفجارها.

وعندما تهيأ لأن يزف إلى عروسه داهمت شرطة عسكرية موقع الزواج وسحبت فؤاد من على المنصة تاركاً زينب تتطلع إلى فستانها الأبيض وتكتم سؤالاً حرجاً:

- إلى متى تظل محافظة على عذريتها؟

زينب لا تزال عذراء إلى الآن تعلق فستان عرسها وتنتظر المحارب لكي يعود من أرض المعركة. . فلا أحد يعرف هل مات، أم أسر.

[٦٥]

في كل مرة أحزم حقائبي تقف أمامي متخشبة، شيء ما يحترق في داخلها، تبحث له عن منفذ يريح صدرها المحترق. . وفي كل مرة أتمنى الهرب من هذه اللحظة فأنا لا أحب لحظات الوداع بتاتاً، أهرب منها دائماً، أهرب من تلويحة قصيرة تحمل ممحاة مهمتها تحويل الكلمات المكتوبة إلى أثر متسخ، أثر يشي أن شيئاً كتب هنا ولم يشأ كاتبه إبقاءه:

- أعرف سبب سفراتك المتكررة لليمن.

- . . . .

- إذا كنت تحبها كل هذا الحب لماذا تزوجتني؟

نحن أربطة يقذف بنا القدر في الطرقات لنتحول إلى مشد مهمته الإمساك بالأيدي والأرجل وشدها في عمود بلغ أعماق الأرض. .أي حمق هذا الذي يجعلنا نقوم بهذا الدور بينما نحن لن نعاد إلى الطرقات نتقلب مع نسمات الهواء أو نتحلل في أمكنتنا من غير أن نقوم بمهمة لم نخترها بتاتا. .

- لماذا لا ترد؟

- . . . .

- ألا تحبني؟

هذه الأسئلة الصدامية تحتاج إلى وسائل نجاة تخفف أثر الصدمات العنيفة، فمثل هذه الأسئلة تكون فيها المواربة حجراً ثقيلاً يسقط في أعماق البحر تاركاً دوائر على سطح الماء. .

- لا أحتاج إلى كلماتك. . يمكنك أن تذهب وقبلها عليك إنجاز مهمة بسيطة.

- ....

- طلقني.

رن الهاتف ناشراً صوتاً متموجاً في تلك الغرفة الساكنة رفعت السماعة متباطئاً:

- ألو.

- أهلاً بك، ألم تغير مقرك لكي نخدمك كما يليق بأصحاب توفيق.

- من؟

- هل نسيتني بهذه السرعة؟

- عفواً، قايد.

- نعم قايد، أترغب في الذهاب إلى عدن فهناك الأجواء أكثر فرحاً من هنا؟

- ولكني أبحث عن شخص هنا في صنعاء.

- إن كنت تقصد غلاماً أو توفيقاً فستجدهما هناك في عدن.

- أريد رؤيتك وبعدها نتفق.

- إذاً استعد، ساعة وأكون عندك.

جلست أرتب حقيبتي.. قبل عام وكهذا الوضع تماماً، وقفت على رأسي لمحت نصل سكين احتزمت به:

- لم أعد أطيق رحلاتك وبحثك عنها وأنا مرمية أسفل قدمك.

- ....

- طلقني..

لم يبق على السفر سوى ثلاث ساعات، وهي تلف رغبتها حول عنقي:

- حسناً عندما أعود نتفاهم..

- لم يعد بيننا ما نتفاهم عليه..

نهضت متجهاً للباب فأمسكت بملابسي:

- سأقتلك إن خرجت!!

رنين الباب يزحزح قبضتها ويهدئ من صراخها، أدرت أكرة الباب لأجد أمها تقف كمسمار صدئ انغرس عميقا فلم تعد تشعر بألمه تفكر فقط في كيفية إخراجه من لحمك. .مدت خطوتها لداخل الصالة وحين رأت دمع ابنتها صاحت:

- ماذا فعلت بها؟

أنشبت أظافرها في صدري، دفعتها عني وقبل أن تقع كان لسانها يصرف كل الشتائم المخزونة في داخلها:

- طلقني.. طلقني.

- طلقها لو أنت رجل.

صراخنا جعل أبنائي يمدون أعناقهم من فتحة باب غرفتهم.. ارتفع ضجيجنا بعويلهم، اختلط كل شيء، كانت مساحة الفراغ المدفعوين إليه لا تستوعب أحجامنا مجتمعة، والحياة حينما تندفع للأمام ولا تجد فراغاً يستوعبها تمزق غشاءه لتوجد لها مكاناً أرحب.. جعدة تنفخ في أوردتها ألمحها تتشكل لنمرة شرسة، تهوي من علٍ ستخمش صدري، وتقطف قلبي، هي تبحث عن وفاء في هذا الصدر، يمكنها بهذا النصل أن تقطف نبضاتي.. أنيابها المدببة تتهيأ لاقتناص الفريسة ونصل سكينها يبرق قريباً من الخاصرة.. كلمتان دوتا عنيفاً، فسكن الوقت، حارت الحياة إلى أي فراغ تتجه:

- أنت طالق..

تركت كل شيء جامداً في مكانه، وسحبت حقيبتي للحاق بأمل رؤية وفاء.

[٦٦]

في لحظات الشوق كل الأشياء الميتة تفيق، تخرج من فجاج الأرض من كل الفراغات وتنحشر في أوردتك، تتراقص في أعماقك توجد لها مكاناً حاضراً، ليس هناك لحظة مكررة، وكل لحظة تستأثر بك تجسد مشهداً يطغى على كل شيء وتبقى أسيراً له، لحظة ما تفتت كل الأزمنة وتبقي زمنها الخاص. أحس أن مشاعرنا الصغيرة والكبيرة تبعث من رقدتها كالجنائز حين تبعث من قبورها، هذا المشهد يحضر في مخيلتنا من غير أن نعيشه، يأتي من المستقبل ليصبح في ذاكرتنا ماضياً.. وتأتي ذكرياتنا من ماضيها لتصبح حاضراً ومستقبلاً حين تمتد معك بقية العمر.. يا لهذا الفراغ الذي تأتي منه كل الآلام، لحظات العمر تعود إليك، تقف لتحكم فيها تمنحها رضاك أو سخطك..

نستأنس كثيراً بهذا النشوز، تتحول تلك اللحظات إلى كائنات طاهرة تخلصت من أدرانها التي أتعبتك في يوم ما، تتحول إلى كائنات تسترضيك حتى الألم يغدو استرجاعه مقروناً بالحنين واستلهام لحظته ومكانه.. أليست الجروح التي في أجسادنا نتحدث عنها بمتعة حين نسرد تفاصيلها لسائل ما..

تطلعت لجروحي: هذا الجرح ولد في لحظة عراك مع ياسين، وهذا الجرح نبت حين أغضبت أبي لأني لم أقف خلف الإمام وانشغلت بمرافقة وفاء لأحد الأسواق، وهذا الشج الغائر في رأسي حجر تلقيته حين كنت أحاول التملص من حارس ملعب الصبان للدخول من غير قطع تذكرة، وهذا الجرح منحتني إياه أمي في ليلة لا أذكر سبباً لانفعالها فقذفتني بملقاط معقوف استقام في فخذي، هذا الجرح هو الجرح الأثير إلى قلبي، ففي ليلة محمومة أردنا التشبه

بعشاق الأفلام الرومانسية، جلبت موسًى وشرطنا مرافقنا وامتزج دمي بدمها كنا نتعاهد على ألا نفترق وألا يخون أحدنا الآخر..

ها هي الجراح تنبعث من جديد تنتقل من فراغها الماضوي لتحل في فراغ مستقبلي، إن الحياة......

رنين الهاتف يوقف تداعيات إحصاء تلك الجروح القادمة من زمن بعيد من الخط الآخر، ومن الخط الآخر جاء صوت عامل الاستقبال بلغته المتداعية:

- السيد قايد يرغب في رؤيتك.
- لحظات وأكون في البهو.

جاء بأسرع مما كنت أتوقع، نزلت متمهلاً فمنظر تلك الغوريلا البشرية جعلني أتريث في السير داخل منحنيات الفندق، في البهو لمحت سلوى تجاور حقيبتها منتظرة فاروق استعداداً للعودة للقاهرة، اقتربت منها مصافحاً فرفضت مد يدها وكذلك فعل فاروق، تمنيت لهما رحلة سعيدة، ورمقت سلوى بنظرة ودودة إلا أن نفورها واشمئزازها ظلاّ يطلان من عينيها، وربما قالت كلمتها الأثيرة:

- متخلف.
- أستاذة سلوى أنا أحب مصر كثيراً لكني أكره الزعماء، أعتذر لمصر، لمصر وحدها من غير زعمائها.

تدخل فاروق بملامحه المشمئزة نفسها:

- يا ابني مصر ليست في حاجة إلى اعتذارك، يجب أن تعتذر لسلوى وليس لمصر!!

مددت يدي، فمدت يدها ضغطت عليها برفق كانت تبتسم، شعرت حيال ابتسامتها بانكسار، فسحبت يدها وانطلقت تجر حقيبتها لخارج الفندق..

أي مشاعر هذه التي تتقلب كموجات الهواء، كنت راغباً في اللحاق بها علني أمسح كثيراً من حماقاتي معها، بدت كائناً ضعيفاً قابلاً للتسامح.. هذه التنقلات بين المشاعر تجعلنا كائنات غير مستقرة، كائنات تقترب من الرضى أكثر من السخط، أعماقنا هي التي تحمل معول التصدع والبناء، ثمة مسامير

نخرجها حين نقف بعدائية، أي صفاء روح تمكننا من إدارة الخد الأيسر حين نصفع على الخد الأيمن، هل أراد المسيح رفعنا لمصاف الملائكة لكنه نسي أن أعماقنا لا تحتمل لحظة صفع مباغتة.. شعور غريب جعلني مصمماً على اللحاق بها وقبل أن أستجيب له، هتف بي واستقبلني بذلك الوجه المبتسم المريب:

- هل قررت مغادرة هذا الفندق؟

- احتمال كبير أن أغادره، أرغب في مساعدتك.

- تفضل اطلب مني ما تشاء.

تحرجت في البدء وأمام تعري وجهه وتصحره فاتحته من غير تردد:

- أبحث عن امرأة هنا.

تفتحت أسارير وجهه:

- ألم أقل لك بأني على استعداد لخدمتك، لكنك لم تفهم عندما قلت لك غادر هذا الفندق... سوف أوصلك لأجمل النساء!

- لا، لا.. يبدو أنك فهمت بصورة خاطئة، أنا أريد امرأة بعينها.

- هل تعرف عنوانها.. .رقم تلفونها؟

- لا، وإن كنت أظن أني لمحتها هنا في هذا الفندق، لمحتها ثلاث مرات، مرة وهي بجوار الاستقبال ومرة في صالة الغناء، ومرة في فندق حدة.

- صفها لي.

زجرته بغلظة:

- وهل تعرف كل نساء اليمن؟

- لم أدّع هذا وإنما قصدت أن تصف المرأة التي رأيتها فربما أعرفها.

- ليست هي التي أبحث عنها ولكنها تشبهها.

- ما اسمها؟

- هذا ليس من شأنك.

- أنت لا ترغب في أن أساعدك.

- أعتقد أن الجحش هو الوحيد القادر على مساعدتي، فقد أخبرني صديق من السعودية أنه على صلة بها.

تبسم وخبط على ركبتي:

- أي امرأة يعرفها الجحش أعرفها، لا عليك سأوصلك إليها مهما كان الأمر.

- هل أنت متأكد؟

- نعم لكن كل ما أخشاه أن تكون ضمن المجموعة التي ذهبت مع توفيق.

- وما علاقتها بتوفيق؟

وقبل أن أتلقى رداً منه لمحت قرينتها مرة أخرى، لمحتها تعبر بوابة الخروج بصحبة رجل متأنق تأنقاً مزعجاً، فلكزت قايد:

- هذه هي التي تشبهها.

نهض من مقعده للحاق بها بينما كان العامل اليمني نفسه يتربص بي بوجهه المكفهر، ربما فكر أن يدنو مني مرة أخرى، وقبل أن يفعل عاد قايد وعلى وجهه علامات الخيبة:

- كانا أسرع من أن ألحق بهما ركبا سيارة كانت تنتظرهما، أظن أني أعرفها.

- أتعرف هذه التي عبرتنا قبل قليل؟

- أظن ذلك.

- ما اسمها؟

- اسمها شمس.. آية من آيات ربي، سأعرفك عليها في ما بعد.

- أحسبها تعمل في الفندق أو اللجنة الإعلامية.

- سنسأل عنها، لا عليك.

- لمحتها مراراً..

ضحك مفتوناً بنفسه:

- أنت تريد من؟ امرأة معينة أو هذه التي تلمحها؟

- لا، لا، أريد امرأة بعينها.

غمزني ضاحكاً:

- اللاتي يعملن هنا أعرفهن، ولا أظن أن من تبحث عنها بينهن.

وأطلق ضحكة تودد مفتعلة:

- استعد للذهاب إلى عدن وأفضل أن تكون بمفردك.

- ولماذا عدن؟

- لأن بغيتك ستكون هناك.

- بغيتي!!

- ألا تريد الجحش؟

انسقت لتحريضه، فصعدت وحزمت حقيبتي وهبطت على عجل، أنهيت التزاماتي مع الفندق وتركت مفتاح غرفتي بيد رجل الاستقبال بينما كان النادل اليمني يرمقني من بعيد، رأيت عمر يدلف من بوابة الفندق حاملاً أكياساً برزت منها جنابي ومصانف يمنية وبقيت كاميراه مدلاة من عنقه، تلك الكاميرا التي يفاخر بها دائماً وأنها التقطت مئات الوجوه غير العكرة، لمحته يقف في البهو متطلعاً للجلوس، أشرت له فتحرك نحوي مبتسماً:

- اشتريت بعض الهدايا وعليَّ تجهيز حقيبتي استعداداً للسفر.

- ألا ترافقني إلى عدن؟

- تغيرت الترتيبات وسوف نسافر جميعاً من صنعاء.

أنزل أكياسه، وحضنني مودعاً:

- ستتواصل حتماً.

- نعم سنتواصل.

قبلني وانسحب متمايلاً بقامته الفارعة وقد أبقى كاميراته معلقة على صدره تبحث عن وجه جميل يضيفه إلى مجموعة الصور التي يحتفظ بها بحثاً عن تلك الغائبة.

[٦٧]

استجبت لدعوة قايد في الذهاب إلى عدن، فأقل الأضرار الالتقاء بالجحش ومن هناك سأواصل بحثي عنها.

وجدته يقف بسيارته فاتحاً فمه كبيارة غدقة بماء طحلبي من أثر القات الذي أكل أسنانه وأبقى له على شواطئ حنكه جذوراً محطمة مطحلبة، فقد تآكلت أسنانه حتى يظن الرائي له أنه شخص ادرد.

وجدت نفسي متورطاً معه في حكايات العهر، كان بارعاً في خلق أجواء ترغيبية لمن عاش مكبوتاً، كانت له مقدرة فذة في وصف حياة المومسات وكأنه يعيش بينهن.

- هل أستطيع سؤالك عن ماهية العلاقة بين توفيق والجحش؟

ضحك فماجت خضرة أسنانه على شفتيه الغامقتين:

- شخصان عادا إلى بلدهما وهما يحملان مالاً وفيراً واشتركا معاً في تنميته.

- أخبرتك من البدء أنهما ليسا يمنيين.

- أنا لا يعنني هذا الأمر كثيراً.

- وأين توفيق الآن؟

- توجه للحبشة.

- الحبشة وماذا يعمل في الحبشة؟

ضحك مرة أخرى، وسحب غصن قات كان مهيأً للمضغ وحشره في فمه:

- يبدو أنك لا تريد الفتاة التي تبحث عنها!

أجوبته مغلقة ويشح في الحديث حين يكون الأمر متعلقاً بتوفيق أو الجحش، كنت محتاجاً إلى سؤال ضخم يحرك ركوده في هذا الجانب.

- سمعت أن توفيق تزوج بفتاة مغتربة.

- توفيق تزوج...

وأطلق ضحكة عالية ممسكاً بمقود السيارة ومفتعلاً ضحكاً إضافيا:

- لا، لا، توفيق من أكبر عوانس العالم ولا أظنه سيفعلها أبداً فهو منشغل بأمور أكبر من الزواج؟

هلت طمأنينة مفاجئة لداخلي (إذاً لم يتزوج، وبالتالي لم يقترن بها)، كان كثعبان يتحصن بجحره جيداً فكلما حاولت إخراجه توارى عميقاً، وكلما هممت بمعاودة الحديث عن توفيق أرخى ابتسامته وربت على ركبتي:

- عندما تصل إلى عدن أفرط كل ما تشاء في مسامع الجحش فهو أدرى مني بذلك، أما أنا فلا أتدخل بين الأصدقاء.

[٦٨]

دخلنا إلى عدن وأخذ يطوف بي بين أحيائها مشيراً لكل مكان: هذا حي دار سعد، وهذا حي الشيخ عثمان، البريقة، خور مكسر، وكريتر، والمعلا، والقلعوة، وتواهي، وهنا قولد مور.

أرض عدن أبقت شيئاً من التاج البريطاني على ثراها، أبقت قلوباً بريطانية تحن لهذه التربة، رأيت قبور الإنكليز مجصصة برخام تحمل سارية كتب فيها اسم الميت وتاريخ وفاته، كانت تربتهم ناشفة ومكشوفة، كم مضى على هذا الرفات؟.. وهل تأتي امرأة لزيارة حبيب دفن هنا؟

في كل تجوالنا كان قايد يهذي بمئات الحكايات، خطر في بالي النادل اليمني:

- هذا الرجل لا يمثل اليمن، فاليمني يموت قبل أن يفعل فعلته!

كنت أسترق ملامحه محاولاً قراءة جمل زائدة تساقطت من بين أهدابه، فسألته مباشرة:

- هل أنت يمني؟

- هل تفيدك الإجابة؟

كان وجهه صحراء من الرمال المتحركة أبقى فيها شيئاً قليلاً من الإشارات التي يمكن قراءتها لمتدرب على قراءة الوجوه، وجهه تسكنه المراوغة والمقدرة الفذة على إقناعك أن بمقدوره فعل أي شيء ترغبه، هذه الشخصيات تتواجد في كل المدن السياحية تبحث عن مغفل لتمص دماءه وتتركه يبحث عن ثمن تذكرة تعيده إلى بلده، لكن هذا الوغد حيرني كثيراً فمنذ أن التقينا لم يطلب قرشاً واحداً.. وجهه الموارب يستدرجني في الحديث..

- هل تقدم خدماتك مجاناً؟

التفت بكامل جسمه ضاحكاً:

- لا طبعاً، سنتحاسب في ما بعد وربما لا يحدث ذلك إذا كنت صديقاً حميماً للجحش أو توفيق.

- أريد أن أصل للجحش أولاً.

- ستجده أمامك.

- أين؟

- في الفندق نفسه الذي ستنزل به.

أنزلني في فندق وضاح، فندق متواضع، ذو مدخل معتم وفي جهة نائية عن حركة المدينة وضوضائها في مقدمة الاستقبال تجلس فتاة بملامح عذبة ويبدو أن وظيفتها فرط ابتسامتها في كل حين، طلبت جواز سفري للاحتفاظ به، حاولت أن أبدو مهذباً في رفضي لطلبها فتدخّل قايد بيننا:

- شروط الفندق أن تسلم جوازك.

- هذه وثيقة رسمية لا أستطيع التفريط بها يمكنني دفع أي مبلغ تشاء مقابل مكوثي في هذا الفندق.

- لا عليك أترك جوازك وأنت مطمئن.

مدت الفتاة يدها إلى درج سفلي وأخرجت مجموعة كبيرة من الجوازات السعودية ولوحت بها في وجهي:

- انظر كل هؤلاء تركوا جوازاتهم لدينا فلا تخشى شيئاً.

في أحيان كثيرة ننقاد لرغبات الآخرين بغباء فادح، مددت لها بجوازي وما زال شياط ذلك الغضب المفاجئ يتمدد في صدري، جذبته بحالتي تلك:

- قلت لك أريد أن أصل للجحش أولاً.

- استرح الآن وانتظرني في المساء داخل الملهى وسآتي به معي.

- أي ملهى؟

- ملهى الفندق.

كتمت غيظي وتوجهت لغرفتي لأجدها غرفة بائسة استوت بموازاة عدة غرف تطل على جبل شمسان، وكان ثمة شاب قد استقر في حجرة ضيقة

تصادفك مع انتهاء سلالم الدرج، يجلس أمام كومة من أعواد القات المستهلك وقد نفرت عروق صدغه الأيمن مستمعاً للوعة اليمنية عبر صوت المرشدي ويتمايل منتشياً كغصن استقبل نسائم ربيع هلت بموعدها.

بحثت في تلك الغرفة عن جرس لاستدعائه فلم أجد، ندهت عليه فلم يلب النداء فلم أجد بداً من التحرك صوبه متسائلاً:

- ما هو نظام الفندق هنا؟

لم ينهض من جلسته بل ظل في رقدته المسترخية يجتر عصارة قاته وينفث دخاناً كثيفاً وتشاغلت سبابته بلف خصلات من شعره:

- كل ما تطلبه سنوفره لك.

كان صوته قادماً من نفس سكنت في واد سحيق، نظرت إليه بعدائية:

- عملك هنا التقويت فقط؟

- ماذا تريد؟

- الغرفة غير مهيأة لاستقبال أحد.

- سوف أنده لك على ليلى لتنظيفها.

تركته على حاله، وأخذت أنتظر أن تأتي ليلى تلك.

مضى الوقت وأنا أتجرع خيالاتها، رأيتها في حالة ذهول وهي تجدني أقف أمامها.. لن ترتمي في حضني، لا شك أنها تزوجت وكل ما أخشاه أن يكون الجحش بعد أن طمأنني قايد بأن توفيق لم يتزوج بعد، هل يعقل أن ترضى بتلك الدابة، وإذا كانت زوجته فهل سيمكنني من رؤيتها؟ وإذا لم تكن زوجته فكيف سيكون اللقاء، هل ستخفي فرحتها أم ستطلقها عبر ابتسامتها التي تحلّق كعصافير الصباح الغادية إلى الحقول؟

خيالات عذبة تمرح في خاطري استأنست بمشهد عبرني: رأيتها تخطفني لأحضانها وتضرب صدري بيديها الصغيرتين وتدلق عتب الأيام اليابسة التي فرقتنا وتسحبني لتجالسني في ركن معتم لكي ألثم خديها لتنفر موصية إياي بالتزام الأدب، أطبقت عيني وأنا واقف أسفل قامتها شاكياً حرقة كل الأيام التي مضت..

[٦٩]

استيقظت مع اقتراب الساعة من العاشرة مساء، كان الوقت ضبابياً ممزوجاً بشيء من الكآبة، صوت غناء يتعالى من الدور السفلي نشطت له، فارتديت ملابسي، وهبطت، سألت أحد العاملين:

– من أين ينبعث هذا الغناء؟

– من الملهى الليلي.

وأوصلني إلى بوابة الملهى بعد أن نقدته ثمناً يزيد على ثمن تذكرة الدخول، دلفت إلى صالة كبيرة كانت إضاءتها خافتة، ودخان كثيف لم يجد له مخرجا، فوقف أمام العين مباشرة، وطاولات تناثر عليها الساهرون يتابعون مغنّياً جأر بأغنية فائقة الروعة (ابعاد كنتم ولاّ قريبين) فشوّه روعتها بصوته المستجلب من حظيرة أو من ورشة حدادة، كان صوته ثاقباً ينز مهدماً مخارج الحروف ومقطعاً مقاطع الأغنية كآلة ضخمة مهمتها قص قطعة حديد صلب، ثمة فتيات كن يتراقصن على تلك الأغنية يشاركهن مجموعة من الرجال معظمهم كان مرتدياً الزي السعودي، وكل واحد منهم يريد الاستئثار بمن تراقصه من دون سواه.. وعلى يمين المغني جلست بعض الفتيات ينثرن ابتساماتهن ويتبادلن النظر مع الباحثين عن المتعة في آخر المساء.

لبعضهن جمال قاهر، وبعضهن كن يغالبن دمامتهن بميك أب متواضع عمّق تلك الدمامة.

اقتعدت في مكان منزوٍ، لتتهادى إحدى النادلات نحوي مطلقة ابتسامة أبانت أسنانها المنضودة، قالت كلاماً لم أسمعه فقدته وسط الضجيج المرتفع،

وضعت يدي على أذني فاقتربت بشفتيها، شعرت بحرارة أنفاسها وشممت رائحة عطرها الرخيص:

– هل أنت من نزلاء الفندق؟

– نعم.

– مرحباً بك، ماذا تشرب؟

– بيرة.

كانت حركتها تغري بمواصلة حديث أعمق من استجابة لطلب مشروب في مكان رث كهذا.. أرسلت ابتسامة مبالغ فيها وتعمدت إبانة مؤخرتها بنصف استقامة وهي تتحرك في الاتجاه الآخر، تلفت حولي: ثمة فرح يجري في عيون الساهرين، النساء متناثرات على كل الطاولات، والمخمورون يتمايلون طرباً مع تلك الأغنيات، وكلما انتهت وصلة نهض الكثيرون استجابة لأغنية تحرك العذاب الداخلي في تلك الأجساد، عيون الصيادين تجول في تلك الغابة الصغيرة تبحث عن فريسة تستجيب لفخاخه المنصوبة، يتبادلون الإشارات مع فرائسهم..

المكان يغري بالبقاء لمغازلة هذه العيون الباحثة عن زبون لمنحه رغبة زائفة وجسداً مراً، هناك أكثر من فتاة مرشحة لهذه الفعلة، المومسات محترفات في إرسال إشاراتهن وجذب فرائسهن إلى منطقة واسعة من الركض، هن مفتونات بملاحقة الصيادين، ففي غابة المومسات قاعدة أخرى للقنص، فالفريسة لا تبحث عن مكان تختبئ فيه من عيون المتربصين بجسدها، هن يعرضن أجسادهن لكل السهام بنشوة ورغبة في الاستسلام المبكر، وحين يتم اقتناص إحداهن لا تكتفي بهذا الصياد، تبحث عن بقية الصيادين لينهشوا عظامها في الليالي القادمة! يطلقن إشاراتهن من خلف صيادين عتاة، تدربن على معرفة فوهات مدافع الأجساد المنتصبة والمهيأة للقذف على الدوام، إحداهن تمنح نحرها ليلثمه جليسها، بينما عيناها وإشاراتها تستمهل زبوناً آخر لكي ينتظر دوره ويتلمس ذلك الجسد الرخامي، الصيد هنا متبادل، ليس هناك قواعد أخلاقية لهذه اللعبة، هنا سوق يعيد زمن النخاسة من غير تحريج على تلك

الأجساد المعروضة كسلعة تستخدم وتعاد لموضعها انتظاراً لمستهلك آخر. . وليس لصياد حق الاعتراض أو الغضب لو رأى فريسته معلقة في خطاف جزار آخر!

اقتربت النادلة ووضعت أمامي بيرة مع قليل من المازة المكونة من: الخيار والجزر والرايب والجبنة، تعمدت أن تلصق خدها بخدي، كانت قد سمحت لنهديها أن يفرا من بلوزتها بفتح زر لم يكن أميناً على هذين النهدين الباحثين عمن يعصرهما مقابل حفنة من الريالات، ألقيت عيني في نهر صدرها فتصنعت خلق ابتسامة حاولت أن تسكب بها أنوثة مستفيضة:

- هل ترغب في شيء آخر؟
- أبحث عن شخص وعدني أن أقابله هنا.
- من هو؟
- يدعى قايد.
- لم يأت بعد. .
- هل تعرفينه؟
- نعم.
- وهل تعرفين شخصاً اسمه غلام ونبزته الجحش؟

اتسعت بسمتها الحلوة، وأشارت للجهة اليمنى:

- لا تقل الجحش فيقذف بك إلى خارج الصالة. . انظر إنه يجلس هناك.

كان يجلس في مقدمة الصالة وحوله أشخاص عديدون وقد صفّت على طاولتهم شتى أنواع المشروبات، تشاركهم الجلسة عدة فتيات هن خلاصة الجميلات في هذا المكان.

- هل هو زبون دائم هنا؟

كانت النادلة لا تزال تضع أذنها بجوار فمي:

- ليس زبوناً بل مشرفاً على هذه الصالة. .

أخرجت ألف ريال يمني ودسسته بين نهديها:

- هذا عربون صداقة.

تفلتت ابتسامتها وألصقت خدها بفمي:

- أنا أعمل بالفندق ولا يمكنني تلبية رغبتك. . تستطيع مرافقتي بعد انتهاء العمل لو أحببت.
- يسعدني تماماً.
- إذاً سأنتظرك بعد انتهاء العمل.

أغفلت كل شيء وأخذت أراقب الجحش، يبدو أن له نفوذاً طاغياً هنا، يكفي أن يحرك سبابته لتتحرك نحوه كثير من القامات تلبية لأوامر يدسها في أذن من يقترب منه، وزاد يقيني من سطوته هنا حين تدخل في السماح لشخصيات دلفت إلى المرقص وهي ممنطقة ببنادقها فقد أشار لرجال الأمن بالسماح لهم ونهض لاستقبالهم وأجلسهم في الطاولة نفسها بعد أن أمر بتجهيز المكان بكراسٍ إضافية، كان يخامرني خاطر: كيف لو خمر هؤلاء وأفرغوا بنادقهم في بطون هؤلاء الذين يتراقصون كالبجع المنتوف الريش!!

لم يكن ينظر إلى الزبائن الذين يملأون المكان، كان معنياً بوضع يده بجوار كأسه وفي وجوه المحيطين به، كنت أرسل بصري باتجاهه عله يلمحني ويأتي، كانت هذه الرغبة جامحة حيال هذا الجحش الذي سمن وغدت حوافره من ذهب على ما يبدو.

- هل أتوجه إليه مباشرة أم أتريث لكي تحين الفرصة المناسبة؟

كنت متردداً بين الإقدام والإحجام، وتنازعني أفكار مليئة بالاحتمالات وكابوسية حين أتصور أنه سينتقم من استخفافي به على الدوام، أتصوره وقد فاقت بداخله كل النعوت الوخيمة التي كنت أصفه بها، ربما تفور من أعماقه ويقتص لنفسه في موطن هو القوي فيه.

كانت النادلة حين تخدم على الجهة التي أجلس فيها تتعمد حك إليتها بجزء مني، تاركة غمزة حلوة كمشهيات لأكلة دسمة، لمحت زجاجة البيرة النافذة فاقتربت وقامت بالحركة نفسها:

- هل ترغب في زجاجة أخرى؟

هززت رأسي، لم تغب طويلاً، وحين كانت تفرغ تلك الزجاجة في

كأسي المنصوب أمامها، جذبت كتفها فانحنت برقبتها لتريني نهدين نافرين:

- وتوفيق هل هو موجود هنا؟

اتسعت عيناها:

- وهل تعرفه أيضاً؟

- لا ولكن مرسول إليه، أين أجده؟

- توفيق خارج البلد.. ربما يكون في الحبشة أو صنعاء.

- وماذا يعمل؟

- توفيق هو الكل في الكل هنا.

وعندما هممت بالانسحاب أوصتني:

- لو خرجت معي لا تخبرهما، أفهمت؟

[٧٠]

مضت ثلاث ساعات وأنا أتجرع هذه البيرة وأتقبل غزل النادلة المبتذل، مقلباً بصري بين الفتيات العارضات لأجسادهن بطريقة بدائية تنقصها خبرة المومسات المحترفات، فهؤلاء تنقصهن حنكة المتدربات وأساليب العهر المتقدمة في عرض خدماتهن بجودة فائقة، وتنقصهن حذاقة الصيادين، لم يعرفن بعد أن طالبي الهوى الليلي وحوش تنقض على فرائسها بنهم من غير تمهيد، ينهشون ما تصل إليه اليد أو العين بصلف المتعجرفين وأرباب الأموال، لا وقت لديهم لإطالة أمد الحرب، هم مستعدون لإطلاق طعنات متوالية وإعادة الجثة إلى موضع العرض، هذه الخصال تغيب عن هؤلاء المومسات اللاتي يحسبن أنهن يقتعدن خدورهن ويتدللن في عرض أنفسهن، يتبرمن من أيدي الصيادين القاسية، ويتأففن من روائح أفواههم، عيونهن جافة المنابع لا تمنح ماء لتلك الألسنة المسعورة.

معظمهن بحاجة إلى تمارين في مواخير أكثر صنعة ورقياً في تقديم هذه الخدمة، في تلك المواخير تأتي المومسات وهن يعرفن كيف يمنحن اللذة ويتقاضين مقابلها ثمناً باهظاً. جسد العاهرة - في كل مكان - فراش رطيب ونفس باردة حتى وإن كانت تقذف حمماً من أسفلك فستتذكر حين تدس نقودك في حقيبتها أنك دهستها في سرعتك القصوى من غير أي شعور بالرحمة... وبعضهن تحس بعمق احتقارك لها فتبحث فيك عن دنس موازٍ!

..كنت أجلس حائراً معدداً احتمالات تغيب قايد كل هذا الوقت.

دخل قايد وعيناه تشيران إلى أنه يبحث عن شخص محدد وحين رآني أشار

لي بيده مبتسماً، وأقبل نحوي ضاحكاً، صافحني على عجل وجلس في مواجهتي:

- أليس هنا أجمل من صنعاء؟

- نعم أجمل فالحياة هنا أكثر حبوراً.

- ألم تلتق بالجحش.. أقصد غلاماً، نصيحتي: لا تردد لقبه هنا، فنحن نردده سراً، الوحيد الذي يناديه بهذا اللقب وبصوت عال هو توفيق.. تذكر توفيق فقط المسموح له بمناداته يا جحش.

عبرتنا النادلة ورمقتني بابتسامتها فجذبها قايد:

- أريد بيرة.. أين شمس؟

كانت الضوضاء قد انخفضت لتوقف الغناء في استراحة قصيرة.

- لم تحضر منذ أسبوعين فقد ذهبت إلى صنعاء.

- ألم تنهي مشكلتها بعد؟

- لا ولكنني عرفت أنها ستكون هنا غداً.

التفت نحوي:

- حظك سيئ، شمس في صنعاء، كنت أتمنى أن تراها.

رشف من زجاجة البيرة مباشرة ومسح فمه فبانت جذور أسنانه المهشمة:

- كنت تسأل عن غلام بإلحاح ألا ترغب في السلام عليه؟

- هو مشغول تماماً الآن.

- هذا عمله، هو يجالس الزبائن الدائمين أولئك الذين تطفر جيوبهم بكل العملات... تعال معي.

جذبني من يدي، وسرنا، خطواتي ثقيلة وحقد دفين ينبعث من صدري كرمح مدبب ينغرس بين لحمه وعظمه، هذا الكائن الهلامي المقزز المقذوف في جنبات حيّنا من غير أن يثير انتباه أحد، ها هو يغدو شيئاً مذكوراً، تشد إليه الرحال، هذا القميء يطاردني في كل مكان ويغدو بوابة عليّ أن ألج منها لرؤية وفاء.

ربت قايد على كتفه، فالتفت باتجاهه التفات من يشعر أنه ملء الدنيا:

- هناك صديق يبحث عنك.

(عليَّ أن اكسب وده، وأمحو آثار الاحتقار والازدراء اللذين أشبعته بهما خلال سنوات طويلة).

- غلام!!

كنت مبالغاً في احتفائي به حين خطفته من كرسيه لحضني مقبلاً إياه بابتهاج، أطلق ضحكة صاخبة معربدة:

- مرحباً.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

أبقاني قليلاً في حضنه، وضرب على كتفي:

- لقد تغيرت..

- وأنت أيضاً تغيرت كثيراً.

عرّفني على جلسائه على عجل، وجذب كرسياً مجاوراً وأجلسني ووجّه حديثه لرفاقه:

- هذا صديق قديم..

اصطف على الطاولة سبعة رجال سحناتهم متباينة، تجالسهم ثلاث فتيات إحداهن طاغية الحسن وغارقة في سكرة لم تمكنها من السيطرة على جسدها فأرخته على كتف رفيقها مبقية سيجارة احترقت واقتربت من أناملها العاجية المرتوية فسارع صديقها - عرفت أنه من مدينة جازان - بالتقاطها وإخماد اشتعالها في منفضة جمعت عشرات الأعقاب.

مكنت غلام من أن يختلس ملامحي كما يشتهي، وبقيت أتأمل جلساءه وأبادلهم التحيات السريعة المقتضبة، وقد جذبتني أنامل تلك الفتاة، أنامل مرتوية متناسقة زينها حناء قاني الاحمرار فجرى في صفرتها كأنهر تدفقت بمائها فروت سنابل راحتيها، شيء ينبعث منها يحرضك للبحث عن جملة تختصر ما اعتلج بداخلك من تقديس لهذا الجمال المستوحش.

غلام أراد إبداء أهميته فترك يده معلقة في الهواء فاستجاب لها أقرب نادل:

- قدم لضيفنا ما يشاء..

انحنى النادل أمامي:

- ماذا تود أن تشرب؟

- بيرة.

تدخل غلام على عجل:

- لا، لا، أحضر له أفخر مشروب لدينا.

ضغط على حروف لدينا بثقل راسماً استعلاء مفضوحاً، تناولت تلك الفتاة سيجارة أخرى بترنح وملقية بثقل نهديها بين يدي رفيقها، فأشعل سيجارتها وهو يلثم طرف عنقها المائل، مجّت سيجارتها بعمق ونفثت دخانها باتجاهي، وفتحت إغماضة جفنيها ليتسرب سحراً خبأته تلك الإغماضة لمثل هذه المواقف:

- مَن الأخ؟

تدخّل للمرة الثانية غلام:

- هذا صديق قديم.. رفيق صبا وربما يطلبك فكرميه..

- تشرفنا، تعال إلى جواري.

دفعني غلام باتجاهها دفعاً، استشعرت بتبرم رفيقها، فلم أستجب لدفعات غلام وبقيت في مكاني..

عاد ذلك الصخب عنيفاً، ليتقافز من طاولتنا ثلاثة رجال مصطحبين الفتاتين ومبقين تلك الطاغية تلهى بتحريك الثلج في كأسها الذي كلما فرغ عادت لتملأه.

هل الوقت مناسب للحديث معه أم أترك الأمر لوقت آخر؟ تعمد إهمالي حين فتح حديثاً مع رفيق تلك الفتاة، حديثاً لم يكن ليتواصل بسبب تلك الموسيقى والغناء المرتفعين..

قميصه المفتوح أبان قشطاً كبيراً بدا من أسفل أذنه وسال على صدره.. يكفي هذا القشط ليذكره باحتقاري الدائم له، ها هي الجراح تنبعث، هذا الجرح كيف يستذكره الجحش.. .أتذكر جرحه هذا جيدا:

- تصور أن الجحش دفع الباب علي وأنا أنتظرك..

- هل فعل شيئاً؟

أرخت رأسها:

- حاول تقبيلي لكني زجرته وصفعته على وجهه.

- الكلب سأجعله يندم ما تبقى من حياته..

جذبتني نحوها، فتملصت من قبضتها واندفعت أبحث عنه في أزقة الحي وبيدي قرن غزال اقتنيته كسلاح يفيد في صد الخصوم حين ينشب شجار مفاجيء، وجدته يقف أمام متجر العم يوسف:

- يا خسيس، ماذا فعلت؟

لم أجعله يجيب فغرزت شفرتي بجوار أذنه وحين حاول إبعادها سحبتها على صدره، قاطعاً ثوبه وفنلته وقبل أن أعمق طعنتي تجمع شباب الحي وأبعدوني عنه.

- لو نطقت بكلمة فسوف أجهز عليك لاحقاً.

كنت أعلم أن تغاضيه عن إهانات الكثيرين - وأنا منهم - ينبع من خشيته الوقوف لدى الشرطة ساعتها سيكون عارياً من أي وثيقة رسمية مما يعني قذفه إلى أقرب باخرة متجهة للهند.

هذه الخشية جعلته كالضبع ينتظر أن يتحول خصومه إلى جثث لينهش لحومهم بحقد وتلذذ.

عاد الراقصون إلى مواقعهم، أحدهم يبدو أنه ذو حظوة ومكانة فقد سمح له رجال الصالة بالدخول محتزماً رشاشاً خلعه من على كتفه وأسنده بركن قريب منه، تناول قطعة جبن وهرشها بمقدمة أسنانه:

- جئت الليلة علني أرى شمساً.

تجرع غلام رشفة من كأسه وخطف ملامحي بنصف التفاتة (أحسست أنه حاول الهروب من السؤال، هل استشعر بالخزي أن يقف أمامي بتهمة قواد) لم يتركه السائل يتنعم بهذا الهروب فعاد إليه السؤال:

- جميعكم يسأل عن شمس، أليس في فتيات الفندق من هي أجمل منها؟

رد السائل:

– هي الأجمل وتضيف لجمالها خصلة أخرى، هي تمنح جليسها الاهتمام الكامل وكأنه عاشقها الأوحد.

ضحك الذي يجاوره عن يمينه:

– قل هي أكثر راحة في الفراش.

تضاحكا وتلاقت أكفهما في صفقة واهنة، ويبدو أن الجملة أغاظت تلك الفتاة المرتمية في حضن رفيقها بإغماضتها المستوحشة:

– لو تنبهتم لحركات شمس ستكتشفون أنها تتصنع في كل شيء.

أعاد السائل سؤاله من غير أن يعقب على مقولتها:

– أين هي؟

رد غلام:

– غداً ستكون بيننا.

انحنيت نحو أذن غلام كان فمي مجاوراً لذلك القشط:

– أريدك للحظات بالخارج.

لم أكن متوقعاً صلافة رده:

– بعد أن تنتهي السهرة سنتحدث!!.. إبقَ في مكانك.

قايد تحوّل إلى كرسي مضاف للجالسين فلم تبدر منه كلمة واحدة، وعندما تلاقت عينانا، هز كتفيه إشارة إلى كونه عملة رديئة بجوار هذا القواد اللعين.

[٧١]

فاض قلبي حقداً على هذا العاهر، كنت أجلس على يساره كبضاعة زهد في شرائها لكنه استمهل عارضها ليقلبها يمنة ويسرة عله يتراجع عن نيته.

يرتفع غناء مجوج، ورقص لأحصنة ملت الركض فاكتفت بتحريك قدميها وهز رأسها، دخان وقهقهات سكارى، ورغبات تسيل من العيون، وأجساد مشرعة تبين أنصاف أثداء، والصيادون يصوبون عيونهم في محاولة لاختطاف الفتيات القابعات في أحضان الآخرين، بعضهم لا يكتفي بالتربص البطيء ينهض خلف الفتيات الذاهبات لدورة المياه ويعقد معهن صفقات جانبية ترتفع فيها الأسعار وزف الوعود الكاذبة، كانت عيون كثيرة تبحث عن انفراج إغماضة تلك الحسناء ورشقها بالقبل والغمزات والإشارات المحرضة لتتحرك لجهة تبعدها عن حضن رفيقها الذي استشعر بتآمر الكثيرين على اقتناص فريسته فخبأها في حضنه متمنياً خزق كل تلك العيون المشتهية ثمرته التي لم يقضمها ويتلذذ بطعمها بعد.

بدأت أشعر بالملل، ويفيض احتقاري لغلام وخشية من أن تتسرب من لساني شتيمة تضاف إلى رصيدي السابق وتعطل ليونته الظاهرة فضلت الخروج خارج الصالة:

– سأنتظرك بالخارج.

هز رأسه من غير مبالاة، شتمته في أعماقي، وتمنيت لو أستطيع وضع حذائي على رقبته وهرسه كحشرة حقيرة، تحركت قبل أن أفعل شيئاً كهذا، فلحقت بي تلك النادلة على السلم:

– أما زلت راغباً في أن نقضي الليلة معاً؟

- متى تغلق هذه الصالة؟

- الساعة الخامسة تماماً.

- إذاً موعدنا بعد الخامسة..

أي حمق هذا الذي أمارسه، لم أكن راغباً بها، في أحيان تتحول اللحظات العابرة الحمقاء إلى قدر، ما الذي يدعوني لأن أستجيب لغزلها في حين أنني غير راغب في مثلها، في كل الرحلات التي جلتها في مدن العالم كنت أبحث عن وفاء، أبحث عن جزء منها في امرأة أخرى، وكل النساء اللاتي صحبتهن كانت كل منهن تحمل شيئاً منها، كنت محتاجاً لأن أجمع نساء الأرض لأجدها فيهن!!

- لا تنس موعدنا بعد الخامسة.

هززت لها رأسي وخطة تقف في آخر البال للتخلص منها حين يحين هذا الموعد.

كانت الساعة تشير للرابعة صباحاً، اقتعدت مقعداً يجاور دورة المياه المخصصة لبنات الملهى لكي يصلحن زينتهن وما اعتور وجوههن من خلل، كنت أراقبهن باهتمام، يقفن أمام المرآة يخرجن أدوات الزينة ويمررنها على وجوههن، يفركن خدودهن، بعضهن تتأمل وجهها في المرآة لبعض الوقت فإذا استحسنته عبثت بخصلات شعرها وخرجت تتثنى.. بعضهن تحرص على إظهار مفاتنها بسحب فتحة الصدر أو التخلي عن شالها ليظهر جمال جذعها الأعلى أو تلجأ بعضهن إلى تمرير فخذها من تلك الفتحة الهابطة من الورك إلى أخمص القدمين، جميع هؤلاء يشتركن في انتظار إشارة من أولئك الزبائن المتناثرين على بوابة المرقص لصنع فخاخ تقتنص حمامة من تلك الحمامات اللاتي لا يحتجن إلى كل هذا العنت في تجهيز شباك الصيد:

- هؤلاء الموسات جئن من أفران الفقر فتخير إحداهن كلهن لهن أجساد لدنة ونفس مرة.

تعمدت أن أبادلهن النظر، لاحظت أن معظمهن يعرفن بأنفسهن ورقم غرفهن وكل منهن توعدك بقضاء ساعة ممتعة.

جاءت تلك الفتاة الطاغية الحسن تسير بتقاعس مربك، تتموج كموجة كسلى، مبدية حسناً مضاعفاً بتلك المشية المتهادية، أحسست برغبة لأن أحدثها، وعندما رأتني اقتربت مباشرة:

- لماذا تركت مجلسك؟

كانت آثار السكرة الثقيلة بادية على لسانها وإغماضة جفنيها اللذين يخبئان سحراً يحيي الجذوع اليابسة..

- شعرت بالاختناق.

- اسمي أمل ورقم تحويلتي ٢٣٢ ستجدني أكثر متعة من شمس التي يتحدثون عنها..

وانعطفت لدورة المياه مستندة إلى صديقتها.

هنا الموسات رهينات للفندق، ليس من حق إحداهن أن تغادر لجهة أخرى خارج الفندق، وليس من حقها أن تذهب قبل انتهاء السهرة، وليس من حقها أن تمنح جسدها لأكثر من ساعة لأي زبون كان والقانون الأخير العودة إلى غرفتها وانتظاراً لمهاتفة زبون آخر، تذهب إليه لساعة تدهك فيها جسدها تحت ثور جاء ليحرث الأرض بهمة نسيها في موطنه الأصلي.

هذه القوانين قطفتها من فم أمل قبل أن تعود إلى الصالة متمايلة ومحرضة أن أجربها قبل أن أحكم!

[٧٢]

تنافر كل من هو داخل الصالة بعد انقضاء السهرة، وأخذ الرجال يحومون سائلين تلك الفتيات عن أسمائهن وأرقام غرفهن.

خرج الجحش مصطحباً نفراً من جلسائه ومودعاً إياهم بوعود أكد التزامه بها بكلمات تقترب من التزلف وتصعد إلى درجة المجاملة، ضم لصدره صاحب الرشاش - عرّفه إليّ على أنه إحدى الشخصيات ذات نفوذ طاغ بالبلد - ضمه ضاحكاً:

- أعدك عندما تصل سوف أجعلها تمر عليك بشقتك.

- أخشى أن تقول احجز بالفندق.

ربت الجحش على كتفه:

- لا، لا، لن نعاملك كبقية الزبائن، سأجعلها تمر بك أولاً قبل أن تسلم جسدها لأحد.

(أوه ما هذا العري، كل شيء هنا عارٍ، الكلمات عارية، والوجوه عارية، والأجساد عارية، هل نحن بهذه الأفعال نعود للجذر البشري الأول حين ولدنا عراة ولم تكن لدينا قيم أخلاقية، حين كان كل شيء عارياً، هذه الفكرة ربما أحتاج لأن أتطرق لها في مقالة أو أستفتي فيها رجال الاجتماع، ربما أفعل في ما بعد).

أقبل نحوي متضاحكاً، وجذبني من يدي لكافتيريا ملحقة بالملهى، خيرني في تناول وجبة الإفطار، كان المكان يغص برواد الملهى، أولئك الذين ما زالوا يبحثون عن فريسة ينهشونها قبل أن تغمض عيونهم في نوم ثقيل، بعضهم يبادل الجحش التحيات فيرد عليها بتعال واستكبار.

(تنتاب القوادين لحظة كبر، دناسته تغدو ميزة في أوكار البغاء، فكل من حوله مدنس ولأنه يقدم الخطيئة المطلوبة من قبل الجميع تتحول صورته من فعل مشين إلى فعل نبيل، هو أشبه بمن يقدم الماء الزلال لمجموعة عطشى في صحراء هالكة ولا ضير أن يكون الماء الزلال مخلوطاً ببصاقه! هذا فعل نبيل من وجهة نظر أولئك العطشى!! هي هكذا الحياة، نحن نرى الصورة مقلوبة بعض الشيء، أتقبل غطرسة القوادين بهذه الفكرة، فكل فعل مشين هو انعكاس لفعل حسن، والحكم على ذلك الفعل يأتي من موقعنا، من زاوية الرؤية لذلك الفعل.. انتقال من فراغ إلى فراغ ورغم يقيني بذلك إلا أني أزدريه.. أزدريه تماماً).

الذي بدأ يؤرقني ما نوع العلاقة التي تربطه بوفاء؟

كانت فتاتان تجلسان داخل الكافتيريا فوجّه حديثه لهما:

- أليس من الواجب أن تكونا في غرفتيكما فربما طلبكما أحد الزبائن؟

ردت إحداهما: سنتناول وجبة الإفطار ونمضي إلى غرفتينا.

زجرهما معنفاً: في غرفتيكما تناولا ما تشاءان.. هيا.

نهضت الفتاتان متذمرتين، فجذب أجلهما ووجه حديثه لي:

- هل ترغب في هذه؟

اعتذرت، فأحسست بأني أهنت جمالها فانتصرت له:

- لو دفع مليون ريال ما ذهبت إليه.

أطلق الجحش ضحكة واسعة، والتفت إلي:

- ما هي أخبار جدة؟

- جيدة..

- ما الذي جاء بك إلى عدن؟

وقبل أن أرد عليه أكمل: سمعة عدن السياحية تناسبكم أنتم.. نعم تناسبكم.

- وعملك الذي تقوم به هنا يناسبك تماماً.

أحسست بأني اقترفت خطأ فادحاً ظننت أنه سيشتمني أو يقودني إلى خارج

الفندق، صمت قليلاً محدقاً في وجهي ومتلاعباً بالكأس التي تجاوره:

- بلدكم تصنع كل شيء!؟

- لم أقصد يا غلام. . .

- بل تقصد ولا يعنيني ما تقوله، فمن هذا المكان أرد كل السخريات التي تلقيتها في بلدكم، هنا أعرف كيف أحرق قلوبكم، وكيف أستغل بلههم!

لم أشأ أن أضيف لحسابي معه عداوة جديدة أو فتح مخزن حقده القديم، كنت في حاجة إلى إبعاده عن حالته العدائية التي بانت على ملامحه وجعلته يبدو أكثر فظاظة وهو يرد على من حولنا، أحسست بأن شيئاً يغلي في داخله:

- سمعت أن توفيق هنا، هل فعلاً حمل الجنسية اليمنية؟

نظر نحوي بازدراء:

- هذا لا يعنيك!

رده المتعض قرب من داخلي رغبة أن أعلق رقبته في يدي وأبصق عليه، كظمت غيظي وتجرعت رشفة من الشاي الذي قدم لي منذ وقت مبكر، لمحته يتطلع في زبائن الكافتيريا ويرد على التحيات المتعددة التي تلقاها من أولئك الجالسين في انتظار فريسة ممتلئة تشبع نهمهم وتمكن عيونهم المفتوحة من الإغماض بقية النهار.

(هذا القواد هو البوابة الوحيدة لمعرفة طريق وفاء، هل يمكن أن يكون قد تزوجها هذا العاهر، آه يا وفاء كيف تجعلي لهذا القواد طريقاً إليك، ألا تخافين على سمعتك، خاطر لعين اجتاح مخيلتي فصعقني لأهرب منه صوب الجحش باحثاً عن اطمئنان. . .).

- غلام.

التفت نحوي متهكماً:

- أنسيت أنك لم تقل هذا الاسم مطلقاً، دائماً كنت تناديني بالجحش فلماذا غلام الآن؟

- لننسَ تلك الأيام.

سحب سيجارة من علبته ووضعها بتمهل بين شفتيه:

- لا أظن أننا سننسى شيئاً من تلك الأيام.

- أما زلت حاقداً علي؟

- ربما كنت حاقداً في زمن مضى أما الآن فلا.

وأطلق ضحكته جافة وهو يتلقى سؤالي:

- هل تزوجت يا غلام؟

أشار بيده في الفراغ:

- كيف أتزوج وأنا قادر على مضاجعة كل هؤلاء النسوة.

(شعرت بطمأنينة، لم يفعلها إذاً، كان يعدد مزايا العاهرات فيما يهبنه من متعة حينما يشاء).

قاطعت استرساله بسؤال مباغت:

- هل تعرف طريق وفاء؟

حدق في وجهي ونهب من سيجارته دخاناً كثيفاً وأطلقه في وجهي:

- أما زلت تحبها؟

- . . . . . .

- لماذا لا ترد؟

- برحيلها أصبحت حياتي مرة، عشرات السفرات لليمن لم أستطع الوصول إليها، أخيراً عرفت من عيسى شرف أنك تعرف طريق وفاء. . أريد رؤيتها. .

قهقه بصوت متواصل وضرب فخذه مرارًا:

- هل تريدني أن أقوم بالدور السابق نفسه؟

- سأعطيك ما تشاء من نقود؟

بلل سيجارة أخرى بلسانه معمقاً بصره في وجهي:

- كل ما أريد.

- نعم كل ما تريد.

- حسناً، غدا أوصلك إليها.

- هل أنت متأكد؟
- نعم متأكد.
- بقي سؤال..
- هل تزوجتْ؟
- وعدتك أن تراها، وعندما تلتقي بها ستخبرك بنفسها.
- ولكن......

نهض مودعاً:

- عليَّ أن أنام فقد أمضيت يوماً مرهقاً، سأوصي عمال الفندق بتلبية كل طلباتك..تصبح على خير.

وسار عمودياً نحو حديقة امتدت أمام الفندق خصصت للعاملين به، لمحت النادلة ترمقني من بعد ويدها تشير لي أن أتحرك أمامها..سرت إلى الاستقبال وتناولت مفتاحي وعدت إلى داخل غرفتي.

[٧٣]

لم أكن متوقعاً استجابته السريعة هذه، هل حقاً سيوصلني لها أم أن وعده هذا مجرد مماطلة لإذلالي، أعرف هذه الحشرات من البشر، هم يبحثون عن المال وأشعارهم بأنهم يقدمون خدمات جليلة لك بعيداً عن مفهوم الخطيئة المترسب في أعماقنا، هم يتحركون من اتفاق ضمني، اتفاق أن أهبك المتعة من غير تذكير بالأخلاقيات، فالأخلاقيات نتوزعها حين نكون معاً مرتدين أقنعتنا، أما إذا خلعنا تلك الأقنعة فيكون هو متفضلاً عليك بتقديم هذه الخدمة النبيلة.

سوف أمنحه هذا الشعور..

أثناء ما كان يحادث جلساءه ملت على قايد متسائلاً عن وضعه داخل ذلك الملهى، سرّب جوابه بحذر وخشية:

- هو المشرف على الصالة.

تذكرت مقولة عيسى شرف بأنه يتصرف كقواد محترف، الله أَغَدَا خسيساً إلى هذا الحد؟ ما زالت المشاعر الحارقة تغمرني وغيظاً يجرف داخلي.

(كيف تسمح وفاء لهذا الحقير أن يعرف طريقها وهو الغارق في هذه المياه الآسنة، كنت أظن في البدء أنه تزوجها، نفيه جعلني اطمئن بعض الوقت، آه لماذا لم يجبني حين سألته: هل تزوجت؟ هل تزوجها ولم يشأ أن يحرق مفاجآته لي بهذا الانتصار، رأيت لمعة غريبة تنبثق من عينيه حينما أخبرته بأني ما زلت أحبها..حينما قلت له هل أستعد للسفر إلى صنعاء ضحك مزدرياً هيئتي ومتمثلاً حركاتي:

- هل استعد للسفر لصنعاء؟

كدت أخطف رقبته كما كنت أفعل دائماً، لولا أن تدارك نفسه مهوناً الأمر:

– وفاء تسكن في عدن.

كيف تسمح وفاء لهذا القواد بمعرفة مسكنها؟ . . ما هي العلاقة التي تربطهما؟

جيوش من الهواجس تتزاحم في مرقدي، أصعق منها، بقي هاجس يسومني سوء العذاب ويتثبت في مخيلتي . . هل تزوجها وأراد إذلالي، أراد أن يقول المنتصر من يضحك أخيراً.

لقد توعدني ذات ليلة بأن تكون له . . .

جافاني النوم، تناولت دفتراً أنيقاً كنت أحمله معي في كل سفراتي لأسجل لها رسائل شوق لم تصلها، كنت عازماً أن أعطيها هذا الدفتر حالما أجدها، كنت مصراً على ذلك حتى ولو وجدتها في آخر العمر وأحفادها يحفون بها، كانت جملة طاغية أرددها في كل مكان من هذا الدفتر:

– أحالت حياتي إلى ريحانة عليّ أن أتذوقها يومياً.

هذه الصياغة اخترتها من عدة صياغات كي لا تثور كعادتها، كي لا تتهمني بشيء، رسائل عديدة أكتب فيها ما أحدثه رحيلها من دمار في داخلي، وحرصت أن أوقع على كل رسالة الوقت والمكان اللذين كتبت فيهما رسالتي . . شعرت برغبة لأن أكتب لها آخر رسالة، سأسلمها هذا الدفتر لتقرأ كل العذابات التي مرت بي في بعدها، كل المرارة، الشوق، الحنين، الأغاني، الضحكات، أريدها أن تقرأ كل شيء، كل شيء . . لا بد وأن تكون رسالة فرح بدنو موعدي معها.

أظن أني كتبت أجمل رسالة فرح، رسالة مختصرة، مختصرة جداً لكنها أجمل ما كتبت.

رن الهاتف في غرفتي من الطرف الآخر جاء صوت امرأة حاولت أن يكون صوتها شهياً من خلال تكسير الكلمات بضحكات ملتوية:

– أنا أنتظرك خارج الفندق.

– مَن معي؟

– أنسيت موعدنا؟ لقد طلبت أن نقضي بقية الليلة معاً.

– أشعر بالإرهاق لنؤجل الأمر هذه الليلة.

– أنا محتاجة إلى ألفَي ريال، هل أرسل لك أحداً لتعطيه . .

– لنؤجل كل شيء للغد.

– ألفان يمني وليس سعودي.

– قلت لك غداً.

أعدت السماعة لموقعها.

(أي عذاب وحاجة تقودان امرأة لأن تبيع جسدها مقابل عشرة ريالات، عشرة ريالات مقابل أن ترتمي يومياً تحت أجساد تلوب فوقها وتهرب منها كبيارة طفح ماؤها . .).

[٧٤]

أعدت قراءة رسالتي الأخيرة، انتشيت كثيراً بتلك الجمل القصيرة الدافئة، غداً ستكون هذه الكلمات نهباً لعيون وفاء.. هل يعقل أني سأراها غداً؟

أغلقت الدفتر ووضعته على الطاولة المجاورة لسرير النوم، واستحضرت وجهها في محاولة للدخول في نوم استعصى كثيراً..

كان نوماً قلقاً، كنت أستعجل الوقت لكي يمضي، أخذت أتقلب في فراشي لزمن طويل وكلما حاولت الدخول في النوم انهالت كثير من صور الماضي، أراها تقف بكل أشكالها، باكية، ضاحكة ساخرة، لم أتمكن من تخيل وجهها بعد عشر سنوات، بقي وجهها كما هو طاغي الأنوثة، شهي الكبرياء عذباً، بقيت كترنيمة لا تنسى، كنت أنسق الكلمات التي سأقولها لها، أعلم أن كل الكلمات ستسقط وتتلاشى حين أقف حائراً أمام عينيها. .سأقف حائراً بأي جزء منها أشبع هذا الظمأ.

استويت في فراشي في تمام الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق، اغتسلت وارتديت ملابسي، ونزلت أسأل عنه، كان الجواب:

– غلام لا يستيقظ الآن عادة يستيقظ عصراً ولا يستطيع أحد إيقاظه قبل هذا الموعد.

(ماذا أفعل الآن. من مخططاتي زيارة عياش، فمنذ أن رحل من جدة ولم نقطع السؤال عن بعضنا) توجهت إليه، وأمضيت سحابة النهار معه، واستسلمت لقسمه في تناول الغداء معه.

كنت أحاول التملص من مرافقته لي، فاعتذرت بوجوب رحيلي لملاقاة صديق آخر، وغادرته رافضاً أن يوصلني وتصافحنا على أمل الالتقاء في وقت لاحق.

لم أكن أعلم أني أسكن في فندق يثير حفيظة أهل عدن، لم أكن أعلم ذلك. توضح ذلك من خلال سيارات الأجرة التي أوقفتها فكلما فتحت الباب مردداً:

– فندق وضاح.

يرفض السائقون الذهاب إلى هناك معتذرين بحجج مختلفة، بعضهم كانت ملامحهم تكفهر فجأة ويشيح بيده أو يبرطم بجمل يحملها الريح قبل أن تصل لمسامعي، أحدهم تأمل وجهي وهو يدفعني من داخل السيارة:

– هذه الأماكن تشوه تاريخ عدن وتشوهنا معه، أريد أن أقول لك كلمة: نحن ليس هكذا أبداً.. أنتم لا تبحثون إلا عن الأماكن المشبوهة!!

يبدو أن جملته لم تخرج احتقاره كاملاً فتخلص مما علق في صدره من زوائد:

– النفس الخبيثة تبحث عن الرائحة الخبيثة!!

قفز في بالي عامل فندق سبأ حين تبرأ من قايد، وعندما لم آبه به قال جملته التي انبعثت الآن كجرح قديم: كلكم تتشابهون.

ها هو السائق يعيد جملة ذلك العامل بصياغة أخرى لكنها أكثر قسوة.

انتظرت ساعة لكي أجد سائقاً يحملني للفندق وبمبلغ مضاعف وكنت خلال الطريق أحاول إبداء أسفي لنزولي بهذا الفندق محملاً مسؤولية اختياره لسائق حملني من المطار مباشرة إلى هنا.

عندما وصلت إلى الفندق كان الجحش يجلس في مقوات كبير يحف به بعض نزلاء الفندق ومعظمهم يتزلف إليه بكلمات لم يكن ليسمعها لولا أنه امتهن تقديم خدمات قذرة..

استنهض فتاة كانت تجاوره، وأفسح لي مكاناً بجواره، وناولني قرف قات:

– هذا أجود أنواع القات خزن.

– غلام، أنت وعدتني.

قاطعني وهو يربت على فخذي:

– كما وعدتك ستراها الليلة.

- ومتى نذهب؟
- حالما أنتهي من تخزيني.
- طمّني يا غلام. . هل تزوجت، أنجبت؟
- قلت لك سابقاً وفر أسئلتك إلى أن تراها.
- سؤال أخير، هل تزوجتها؟

ضحك كما لم يفعل في حياته، وضمني إلى صدره مقهقهاً:
- أما زلت تذكر. . أنت لم تنس شيئاً.
- قل. .تزوجتها.
- لن أجيبك، سأتركك في حيرتك.
- أرجوك يا غلام أخبرني. .
- بعد ساعات ستراها وستخبرك هي بكل شيء.

اندلق كلام كثير وأنا أستبطئ الوقت. .

وكلما نظرت إليه صبرني بيده أو بغمزة من عينيه.

انتهى من تخزينه في العاشرة مساء، ونهض متثاقلاً:
- اذهب وغيّر ملابسك وسأنتظرك داخل الملهى.
- أنا جاهز. .
- هل يعقل أن تقابلها هكذا مغبر مصفر الوجه. . اصعد لغسل وجهك ولتغيير ملابسك
- ومتى نذهب؟
- حالما تنزل.
- الوقت تأخر كثيراً فهل يليق أن نذهب في مثل هذا الوقت؟
- لم أعرف أنك مؤدب إلى هذه الدرجة. .

وفاضت من فمه تلك الضحكة البشعة:
- أنسيت أنك كنت تذهب إليها في الساعة الثانية صباحاً. .

وتمددت بشاعة ضحكته، وهو يدفعني لتغير ملابسي.

[٧٥]

نزلت درجات السلم المؤدي للمرقص، وجلت ببصري فوجدته يقتعد الطاولة نفسها يحف به رفاق الأمس، تحركت إليه وحنيت بجذعي مخافتاً إياه:
- لنذهب.
- أين؟
- غلام دع هذه المماطلة فقد اتفقنا أن أعطيك ما تشاء من نقود.
- أنا لا أماطلك ألا تريد رؤية وفاء؟
- بلى.
- انظر إنها تجلس هناك.

تسمرت فجأة، كانت تجلس مع بقية المومسات توزع نظراتها وابتساماتها لنزلاء الملهى!!
- أي زلزال هذا!!

ظلام، وضوضاء، وصفارات إنذار، وهلع وشوارع مقفرة، وصوت سليمان العيسى يهدر من التلفاز متلعثماً يحاول دفع هلعه:
- انطلق صاروخ. .

صاروخ يخترق سقف السماء، يقترب من هدفه بسرعة مذهلة لا يحيد عنه
- لا أريد أن أموت هنا.

يندفع الصاروخ نحو هدفه، يستقر بهامتي ويتناثر لحمي على جدران كل المدينة، زوجتي وأبنائي يهربون من دمي، أمي تجمع أشلائي الممزقة، وتنتحب، نحيبها يتداخل مع أغنيات زوجتي على ضربات دفوف جعدة، الصاروخ يرتطم بهدفه يختار رأسي مستقراً له ويغرسني في قاع الأرض، يغرسني عميقاً.

[٧٦]

نعم إنها هي، لست مخموراً، أو مستعيراً هيئتها لأنسقها على قوام امرأة تشبها، هي نفسها، لا تعير أحداً بؤبؤ عينيها، تجلس كإمبراطورة تحف بها الوصيفات من كل جانب، والمخمورون يقتربون منها، يميلون على وجهها، يلمسون خدها ونحرها، يغرسون شفاههم تحت ذقنها يضعون أيديهم على كتفها يستنشقون عبيرها، وتلتهم عيونهم جسدها.

ها هي تمنحهم كل شيء إلا عينيها، توزع ابتسامتها (أظنها أبقت شفتيها منفتحتين فهي على هذا الحال منذ أن وقعت عيني عليها) وتمنح كل محدثيها كثيراً من فتنتها، ولا تعارض في تبادل القبل الخفيفة والتلويح باليد للبعيدين ممن احتسى اسمها مع شرابه الروحي فظل يردد كنيتها: شمس.. شمس.

(شمس.. هل هي التي قصدها قايد، ورأيتها في مواقع مختلفة في صنعاء بصحبة رجال مختلفين.. كم من الحمق نرتكب حينما نظن أن أزهار أرواحنا لا يمكن لها أن تتلوث وتسحق تحت الأقدام!).

ارتفع صوت المغني بغناء أغنية صنعانية، فتهافت النساء والرجال إلى حلبة الرقص، وامتدت إليها الأيدي للمشاركة، تهادت بينهم كوردة بزغت بين أسلاك شائكة، حوطها أربعة رجال كل واحد يدنو منها يعصر خصرها أو يحتك بمؤخرتها – حافظت مؤخرتها على توترها وبروزها – كان الجحش يرمقها ويتطلع إليَّ بتشفٍّ.

غرس فمه في أذني:

– اسمها هنا شمس!!

– ......

– ألا ترى أنها ازدادت جمالاً؟

تمنيت لو أن قرن الغزال لم يقشط صدره بل غاص وانتزع أمعاءه.

– أريد أن أراها.

– الليلة جميع من هنا يريدها.

وأشار إلى رفيقه الذي عرفني عليه انه صاحب نفوذ:

– هذا جاء من أجلها لكنني سأتدبر الأمر واجعلها تقتنص ساعة من أجلك.

تَشَفِّيه كان واضحا وهو يتلاعب بكلماته:

– أتكفيك ساعة، أظن أن الساعة كافية.

– ....

– .... فقد غابت عن زبائنها أسبوعين والكل يريدها.

– ....

– افضل ألا تراك هنا، اصعد إلى غرفتك وسوف أرسلها لك..

– ......

– أخشى ألا أتمكن من نقض حجوزاتها.

– ......

– لا، لا، سأقدم دورك على الجميع ثق بهذا!!

– ....

– أريد رؤية عاشقين يلتقيان بعد زمن طويل، ويلتقيان بهذه الصورة لقد اشتقت لمثل هذه الصور

– ....

– لا تظن أن صمتك سيجعلها تترك عملها لكي تواسيك، أنصحك ألا تبدي هذه الروح المنكسرة، ستعاملك بملل وقرف إن أظهرت هذه المشاعر.

– ......

– هيا انهض.

[٧٧]

كنت أنتظرها في غرفتي.

ولم أكن أنتظر ردها:

– أنا الآن أمامك والتي تعرفها انتهت منذ عشر سنوات..

كان يقف بيننا كعادته، مبتسماً ويده لم تتراخ منذ ذلك العهد:

– في السابق كنت أقبل بأي شيء تضعه في هذه اليد أما الآن فأنا الذي يضع التسعيرة.

– ....

– بقاؤها لساعة يكلف أي زبون ثلاثمائة ريال سعودي أما أنت.

قطع حديثه ونظر إليها وهي ترفع خصلة شعرها عن عينيها وتطرقع بلبانة مل منها فمها:

– أما أنت فسوف تدفع ألفي ريال سعودي حتى تتمكن من معاتبتها إن شئت.

وضعت في يده ألفين وخمسمائة ريال ودفعته إلى خارج الباب:

– يكفي ألفان فقد تحتاجها لساعة أخرى.

وناولني خمسمائة ريال وانسحب ضاحكاً..

جلست على سريري واضعاً رأسي بين يدي وانهيارات عظيمة تتقوض في داخلي، جلست بجواري وغرست رأسي في صدرها، حمم من البراكين ثارت أحسست بنيران تشتعل في جوفي:

– إذاً أنت التي كنت تظهرين في فنادق صنعاء؟

– وهل رأيتني هناك؟ هذه المهنة لا تجعل الواحدة منا تركز على الوجه هي مهنة تجعلنا نركز على الجيب أكثر من أي شيء آخر.

رفعت يدها المثقلة بالذهب فبان ذلك الجرح الذي مزجنا دماءنا من خلاله، أمسكت بجرحي المقابل فلم تثرها حركتي بتاتاً (ها هي الجراح تنبعث، تنبعث بذاكرة واحدة، ويغدو الجرح منسياً، جرح بقي أثره ومات زمنه.. لا فائدة).

– متى جئت لليمن؟

– ما الذي دفعك لهذه الحياة؟

– أنت الآن مثلك مثل أي زبون فلا تسألني عن الماضي..

نهضت متحفزاً، فأجلستني على السرير وعبثت بشعري، وأخذت تبحث عن تلك الشامة التي استقرت أسفل ذقني كلما جئتها متربصاً بفتنتها تضم وجهي بيديها وتمسك بشامتي المستقرة أسفل ذقني، تمسكها وتجرها جراً خفيفاً متمنية لو أنها صعدت إلى صحن خدي:

– الشامة تزين المرأة وليس الرجل..

– أريدك أجمل الرجال.

عبثت بشامتي وحاولت أن تبدو طبيعية:

– خلال هذه السنوات ألم يتغير موقع شامتك؟

وضعت وجهي بين يديها وانحنت لتقبيل شفتي السفلى فدفعتها بعنف وقعت أسفل السرير وغطى شعرها الكثيف وجهها، استندت على ركبتي ونهضت.

– هل يشفيك قتلي، افعل ذلك إن شئت أتمنى ذلك، كنت أتمنى لو أن شخصاً قتلني قبل أن أصبح هكذا.. أما الآن فلا يجدي أي شيء!!

كنت صامتاً أنظر إليها وهي تخلع ملابسها بآلية قاتلة.

– لا تضيع الوقت فالساعة المقررة لنا تمضي بسرعة والجحش يترقبني!

تعرت تماماً واستلقت على السرير، ضمر نهداها قليلاً وبانت شحوم خفيفة أسفل بطنها، رأيتها ممددة كجثة مجمدة اقتربت منها وغطيتها بملايات السرير

البيضاء، ها هي في كفنها وها أنا أدفع بها للقبر أهيل عليها عواصف من الغضب المكبوت، وحزن عاصف يغتال جوانحي.

أزاحت الملايات عن جسدها ونهضت، ارتدت ملابسها، وانكبت على الطاولة لتكتب على ورقة نزعتها من دفتري المقذوف هناك ونهضت عجلة:

– انتهى الوقت المحدد لك!!

لملمت جملتها السابقة باعتذارات متتالية، وتناولت الدفتر الذي كتبت لها فيه كل رسائل الشوق، تناولته ومزقت آخر رسالة وانحنت لتكتب عليه بسرعة متناهية، واقتربت مني، قبلت رأسي:

– أنا محتاجة إليك فلا تخذلني... أريد رؤيتك خارج الفندق سأنتظرك في هذا العنوان.

ودست في يدي ورقة كتب فيها عنوان ورقم تلفون ومضت بعجلة.

وقفت في الفراغ، معلقا بين الدهشة والغضب، مسفياً كحفنة تراب عبثت بها ريح عاصفة ومضى، الصدمة لم تجعلني أستشعر بحجم الكارثة التي واجهتها قبل قليل، انتشلني طرق خفيض على الباب.

(هل عادت.. عادت لتبكي وترمي رأسها في حضني، تعتذر عن سقوطها في هذا الوحل، تنتصر لحبنا، تغسل بدموعها درن جسدها الذي رسب في كل هذه القاذورات..)

تتواصل النقرات الخفيضة على الباب، نهضت متثاقلاً وانفتح الباب على مصراعيه، رأيت إغماضتها نفسها التي تسيل بسحر الدنيا وأناملها التي توشت بنمنمات الحناء، فتحت إغماضة عينيها باشتهاء متوحش، ودفعت الباب ودخلت:

– أريدك أن تجربني وتحكم أنا أم شمس!!

وأخذت تستل ملابسها قطعة قطعة.

[٧٨]

بعد تردد قررت الذهاب إلى العنوان الذي أعطتني إياه، كانت تقطن في منزل متواضع فيه سرير واحد وثلاجة صغيرة وأدوات زينة استقرت على فترينة ألصقت بها مرآة دائرية، ارتدت فستاناً يعصر ردفيها ويظهر بروز إليتها واتسعت فتحة صدرها فأبانت جزءاً من انشطار نهديها، بقيت شفتاها أكثر ارتباكاً والجلجة.

– أنا في ورطة أريد مساعدتك.

مددت يدي إلى جيبي، فأسرعت برفعها:

– الحياة التي أعيشها توفر لي المال الكثير.

– ......

تناولت صورة لمولود لم يتجاوز عمره ستة أشهر:

– هذه الخطيئة التي أريدك أن تساعدني فيها.

– ....

– سيكون لقيطاً لو لم يجد أباً ينسبه إليه.

– ....

– لا أريد منك شيئاً، أريدك أن تهبني اسمك لهذا الوليد.

– ....

– يكفي أن تنسبه لك حتى لا أنساك ما حييت.

– ....

– ستكون في الماضي والحاضر دائماً.

– ....

[٧٩]

ها هي الطائرة تحلق في سماء عدن، لم أقدر على البقاء أكثر من ذلك فقد انتهت جميع الإجراءات بسرعة متناهية، عياش والجحش كانا شاهدين لانتساب هذا المولود، انتهى الأمر بأن وقفت أمامي وقبلت رأسي، وزودتني بالوثيقة الرسمية للمولود وأبقت عندها صورة منها، كانت يدها ممدودة بصورة ذلك المولود:

– ابق هذه الصورة معك!!

كنت مستسلماً أنفذ رغباتها بخنوع رغم العواصف التي تجتاحني وأكبح جماحها أن تنسكب في لحظة عتاب كنت أنسقها في مخيلتي، انتهى كل شيء ووجدت نفسي أبحث عن الفندق وعن يد تلوح من هناك.

ها أنا أنتقل من فراغ إلى فراغ، فراغ... فراغ... فراغ

جنحت الطائرة غرباً، مددت يدي لجيبي اصطدمت بشهادة الميلاد وصورة المولود، أخرجتها ووضعتها أمام بصري لمحتهم يتصايحون وهم يشاهدون فيلمهم الأثير (مائة مرقش ومرقش) وكان أصغرهم يحصي عدد أفراد الأسرة متمنياً أن يصل عددهم إلى مائة وواحد ثم يرتد كسيراً:

– أسرتنا الصغيرة لا يمكن أن تصل إلى هذا العدد!!

ينزوي خلف ظهر أمه متمنياً إليها:

– قولي لبنقر يتبنى كلاباً مرقشة..

فتسحبه أمه ليكملا ضحكة مستهجنة من غضبي الفائر على الدوام..

ويتفلت لسانه أكثر:

– بنقر لا يعرف إلا الكتابة وسماع الأغاني.

فيلتف حولها بقية إخوته راجين منها أن تلزمني بتبنّي ما تبقى من مائة مرقش ومرقش.

ها أنا ملبياً دعوتهم أحمل وثيقة ميلاد جرو جاء من ماء مائة كلب وكلب.

وكلابي الصغيرة أين هي الآن، خطفتهم الغولة جعدة، وخبأتهم في مغارة لا تصل إليها العين، ربما يقتعدون غرفة صغيرة مغلقة الأبواب ينبحون كما يشاؤون، وأمهم تركض مع زوجها في مكان ما من جدة تمسح بيدها عمراً قضته في انتظار رجل عشق الفراغ فانتقل إليه بمخيلته وبالسفر.. هي وأولادي رحلوا أيضاً لفراغ آخر، سيتنبه الريح أني عمود دخان، وسيعود ليمزقني.. سيمزقني، فإلى أي أرض سأمضي؟!

أبعدت صورة ذلك الجرو وتطلعت من النافذة.... غابت عدن ولا أثر لتلويحة يدين صغيرتين، ارتفعت الطائرة عالياً.. عالياً جداً.

٢٧ يونيو ١٩٩٩– ١٣ ابريل ٢٠٠٣